حسن الجندي

رواية

صلاة المسوس



حسن الجندي



صلاة الممسوس

رواية

دارك
للنشر والتوزيع

إهداء

إلى ذلـك الفتـى الباكـي الـذي تركـه معلِّمـه وحيـدًا في القـبر ليـلًا، حاولـتَ التخلُّـص مـن خوفـك ممـا يحيـط بـك..
ونسـيتَ أن تخـاف ممَّـا بداخلـك.

قال أبو إسحاق الزجاج: الأَصلُ في الصلاةِ اللُّزوم، فيقال: قد صَلِيَ واصْطَلَى إذا لَزِمَ، ومن هذا مَنْ يُصْلَى في النار أَي يُلْزَم النارَ

معجم لسان العرب لإبن منظور



الفصل الأول

صلاة الخائف

(1)

..2002

برغم استغراقه في النوم إلا أنه استيقظ فجأة فاتحًا عينيه ليفاجأ بظلام الغرفة الدامس، وبرغم أن سنوات عمره لم تتخطَّ السادسة إلا أنه تعوَّد على هذا الظلام الذي برغم رعبه الشديد منه إلا أن أمه علمته أن يتعامل معه باحترافية شديدة.

كل ما عليه أن يغلق عينيه ثانية ويعتمد على حاسة اللمس ليتحسس الموجودات حتى يصل إليها، ثم يوقظها برفق لتنهض هي وتتولى كل شيء، ستحتضنه وتربت على شعره المنكوش برفق وهي تسأله عما يتمنى، وفي الأغلب سيطلب منها أن تتحدث معه.

تأخذه إلى صالة استقبال الشقة ليجلسا تحت ضوء المصباح الأبيض القوي الذي سيبدد خوفه، ويتحدثا في أشياء لا قيمة لها وهي تحاول مجاراته بعيونها نصف المفتوحة من أثر النوم حتى يغلبه النعاس فتحملة مرة ثانية إلى الفراش.

على كل حال قد تعودت هي على استيقاظه المتكرر كل

ليلة وبدأت تقتنع أن ابنها (عبد الرحمن) ـ أو كما تناديه هي (بودي) ـ يكره النوم ليلًا لسببٍ ما، ربما ورث تلك العادة من شخص ما، لكنها تتوقع أن تلازمه بقية عمره.. أما (بودي) فلم يحمل هَمّ استيقاظه في الظلام لأنه سيطبق الخطة التي يعرفها، يحرك يديه.. يصطدم بوجه أمه النائمة بجواره.. تنهض هي لتنير مصباح الغرفة.. ثم نصف ساعة من الحديث خارج غرفة النوم، وربما طاوعته في بعض الليالي وسمحت له بأن يفتح التلفزيون ليشاهده قليلًا وهو يريح رأسه على فخذها وهي تمسح رأسه بيديها حتى يعاوده النعاس رويدًا رويدًا.

لكن تلك الخطة غير قابلة للتحقيق الآن، فأُمُّه لم يرها منذ أيام، والده ـ الذي كان يراه سابقًا يومًا واحدًا في الأسبوع ـ أتى لمدرسته وأخذه لمنزل أحد أقربائهم وهو يخبره بأن أمه سافرت فجأة، هو طفل فعلًا لكنه ليس متخلفًا عقليًا، فقد كان يعلم أن هناك شيئًا سيئًا حدث لأمه، احمرار عين والده وتهدُّج صوته والحزن البادي على وجهه لخصوا الكثير، لدرجة أن (عبد الرحمن) وضع احتمالَ موتها في مخيلته، لكنه بعقله الطفولي رجح أن هذا الاحتمال غير ممكن الحدوث فالأمهات لا يمتن.. هذه قاعدة مفهومة ولم يرَ من قبل ما يكسرها، لم يسأل والده واكتفى بهز رأسه اهتزازات غير ذات معنى ثم جلس في منزل أقاربه صامتًا حتى عاد والده في اليوم التالي ليأخذه لشقته الأولى ويقيم معه في نفس الشقة.

(عبد الرحمن) كان يدرك أن أمه ووالده قد تطلقا منذ عام، وقد عاش والده بعيدًا عنهما طوال تلك الفترة، لكنه الآن هو المسؤول عنه بدلًا من والدته، وعلى ما يظهر أن والده يخاف تلك المسؤولية ويعامل (عبد الرحمن) بنوع من الحذر والشفقة والخوف والعصبية، لدرجة أنه لم ينم بجانبه وفضَّل أن يتركه وحيدًا في الفراش كي يصير رجلًا بطريقة أسرع، أو لربما خاف أن يظهر حنانه كي لا يفسده.

لم يبقَ في عقل (يودي) إلا الخطة البديلة، وهي أن يهبط من الفراش المرتفع عن الأرض في وسط الظلام، يمشي حافيًا مغمض العينين فاردًا ذراعيه أمامه كي لا يصطدم بشيء، يتخبط قليلًا حتى يصل إلى باب الغرفة المغلَق، يفتحه ببطء ومعه يفتح عينيه متوقعًا أن يظهر شيء مخيف يقفز أمامه فجأة.. جميل لا شيء أمامه وها هو الضوء الآتي من صالة استقبال الشقة يلقي بخيوط الضوء داخل ممر الغرف.. نجحت الخطة وانتصر على الظلام بلا أي مساعدات من أمه، تذكَّرها وشعر بافتقاده لها، ولكنه طمأن عقله بأنها ستظهر ثانية.

أطلَّ برأسه من داخل غرفة النوم يحرك عينيه في الممر كنوع من الحذر، ثم أخرج جسده وهو يحسب احتمالات استيقاظ والده من عدمه، تقدم لصالة الاستقبال وضوءها الساطع وهو يجلس على طرف الأريكة القديمة ويضع

قدميـه مـن تحتـه كجلسـة مريحـة، اشـتم الهـواء في الصالـة محـاولًا تحديـد مصـدر تلـك الرائحـة الغريبـة عليـه والتـي يشـتمها في أحيانٍ كثيرة في هـذا الموضـع بالـذات بعـد اختفـاء أمـه.. رائحـة ليسـت بالسيئة ولا بالجيـدة، بعـد سـنوات طويلـة سيشـتمها ثانيـة عندمـا يقـترب مـن موضـع غسـل جثـة أحـد أقاربـه وتحضيرهـا للدفـن، وسيشـتم تلـك الرائحـة العطريـة النفـاذة الآتيـة مـن خلطـة روائـح تسـتخدم كثـيرًا لتعطـير الجثـث، وسـيتذكر كيـف كانـت تلـك الرائحـة تتسـلل لأنفـه في شـقته وسـيربطها دائـمًا باختفـاء أمـه.

فتـح التلفزيـون الصغـير الموضـوع عـلى منضـدة صغـيرة بجانـب الأريكـة، وقلـب القنـوات حتـى وصـل إلى قنـوات كابـل القمـر الصناعـي، مصاريـف شراء طبـق وجهـاز اسـتقبال الأقـمار الصناعيـة خـارج ميزانيـة عائلتـه لذلـك فقـد اكتفـوا بوصلـة سـلكية تتيـح لهـم بضـع قنـوات متنوعـة عشـوائية لا تتخـط الــ 10 قنـوات، وفي بعـض الأحيـان 15 قنـاة عـلى هـوى صاحـب مـزود تلـك الخدمـة لهـم.. طبعًـا اشـتراك شـهري بــ 30 جنيـه في هـذا الوقـت لم يكـن كبـيرًا لكنـه ليـس هيّنًـا بالنسـبة لأسرتـه، ذلـك المبلـغ كان عـادلًا في حصولهـم عـلى بعـض تلـك القنـوات مـن (حمـادة دش) ذلـك الشـاب الطمـوح الـذي قـام بذلـك المشروع غـير القانـوني في شـارعهم.. لـو تغاضينـا عـن أن نصـف تلـك القنـوات لم تكـن تظهـر بشـكل واضـح وتصـدر أصواتًـا مخيفـة بـدلًا مـن أصـوات المذيعـين والممثلـين فسنشـعر بالخدمـة

المعادلـة مقابـل تلـك القنـوات، والحقيقـة أن كلَّ تلـك القنـوات لا تهـم (بـودي) أكثـر مـن قنـاة (سـبيس تـون) وكواكبهـا التـي ظهـرت منـذ عـام ونصـف، طبعًـا بدافـع الفضـول كان يذهـب (بـودي) لبعـض قنـوات الأفـلام الأجنبيـة يتابعهـا بنصـف فهـم لأنـه لا يسـتطيع قـراءة الترجمـة العربيـة التـي تعـرض أسـفل الشاشـة بنفـس سرعـة ظهورهـا، لكنـه لم يحبهـا عـلى كل حـال.

أمـا الآن فهـو يسـتخدم التلفزيـون كمصـدر للصـور فقـط بـلا صـوتٍ كـي لا يسـتيقظ والـده، وحتـى القنـاة المعروضـة نفسـها ليسـت بتلـك الأهميـة لأنـه يسـتقي مـن التلفزيون الأمـانَ والتسـلية في وسـط كل هـذا الصمـت والوحـدة التـي يشـعر بهـا.. كـم مـرَّ مـن الوقـت؟ لا يعلـم سـوى أنـه بـدأ يشـعر بالنعـاس ثانيـةً لكنـه قـاوم وهـو يخبر نفسـه عـن غضـب والـده لـو اسـتيقظ ووجـده نائـمًا أمـام تلفزيـون مفتـوح، عليـه أن يغلقـه قبـل نومـه، لكنـه لـن يعـود لغرفـة نومـه الليلـة وسـينام عـلى تلـك الأريكـة في ذلـك الضـوء المريـح.

شـغل عقلـه بـكل تلـك الأفـكار وهـو يتابـع بعينيـه مذيعـة شـقراء مصابـة بالبلاهـة وتضحـك بـلا توقـف وهـي تخاطـب ممثـلًا مغمـورًا، كاد أن يغلـق التلفزيـون لكـن جـاءه ذلـك الصـوت.

صـوت وقـع أقـدام ثابتـة تصعـد سـلم العـمارة، مـا سـيفعله الآن فعلَـهُ كثـيرًا حتـى إن والدتـه كانـت تراقبـه بابتسـامة ساخرة

قديمًا وهو ينهض ويحضر مقعدًا خشبيًا مهمَلًا ليضعه بجانب الباب بحرص.. توقف وهو ينظر لمصباح الإضاءة في السقف والذي تراقص ضوءه بضع مرات!!.. التلفزيون هو الآخر تعرّض لنوع من التشويش وتراقصت صورة المذيعة البلهاء واختفت ثم ظهرت بوضوح.

صوت الخطوات يعلو ويقترب من طابق (بودي) الذي تغلب فضوله على دهشته، وبدأ في محاولة الصعود على المقعد الذي اهتز قليلًا لكن (بودي) استطاع بخبرته أن يوازن جسده الصغير ليصعد عليه والخشب القديم يصدر أنينًا مكتومًا عندما وقف (بودي) عليه بكامل جسده ثم نظر في العين السحرية للباب التي تتيح له رؤية غير واضحة لما يحدث بالخارج.

أول ما لفت نظره أنه رأى كل شيء بوضوح، وشاهد باب الشقة المقابلة لهم في ضوء مصباح السلم، المفترض أن الضوء مطفأ في هذا الوقت، من يصعد الآن استخدم زر الإضاءة في أسفل العمارة لتضاء كل طوابق العمارة، إذًا فهو من السكان لأن الزر شبه مخبأ في مدخل العمارة.

فرك عينه اليمنى قليلًا ليحسن رؤيته في انتظار صعود صاحب الخطوات.. ها هو رأسه يظهر صاعدًا السلم ثم كتفيه ثم بقية جسده، لم يتعرف عليه جيدًا لكنه قدّر أنه ليس (عمو) أو (أنكل) كبير السن بل هو مراهق أو شاب غير مكتمل الرجولة سيناديه باسمه بلا ألقاب لو كان يعرفه.

هـذا الشـاب توقـف أمـام بـاب الشـقة المقابلـة يتأملـه قليـلًا، ثـم ألقـى بنظـرة عابـرة لبـاب شـقة (بـودي) الـذي أجفـل بموضعـه متمنيًـا ألا يكـون لاحظـه.

الشـاب يسير نحـو بـاب الشـقة المقابلـة ويشـير إليـه بإصبعه.. صـوت صريـر خافـت يخـرج مـن الرتـاج ثـم انفتـح البـاب ببطءٍ للشـاب، تلـك الشـقة يعـرف (بـودي) قاطنيهـا الذيـن أتـوا مـن دولـة عربيـة لا يتذكـر اسـمها لكنـه يعـرف أسـماء بعـض مـن يسـكنونها، فكَّـر أن هـذا الشـاب يقتحـم الشـقة لكنـه لا يفهـم الكيفيـة؟

أمعـن النظـر في الشـاب الداخـل إليهـا بتحفـز وهـو يغيـب عـن عينيـه، صـوت شيء يرتطـم بداخـل الشـقة مـع صـوت رجـل يتكلـم بنـبرة مرتفعـة بكلـمات منغمـة.. اهتـزت إضـاءة مصبـاح شـقة (بـودي) ثانيـة بنفـس وقـت انفجـار مصبـاح السـلم ليغـرق السـلم في ظـلام مقبـض ولم يبـقَ إلا ضـوء خافـت مـن داخـل الشـقة المقابلـة.

وسـط هـذا الظـلام خـرج هـذا الشـاب ثانيًـا مـن الشـقة ناظـرًا بتحفـز إلى الشـقة وهـو يحـذر شـخصًا مـا مـن شيء أو كأنـه يقـوم بتهديـد شـخص يـراه بالداخـل.. في الثانيـة التاليـة خـرج مـن الشـقة (عمـو) يعرفـه (بـودي) لكنـه لا يتذكـر اسـمه، هـو يعـرف فقـط أنـه والـدٌ لفتـاة قريبـة مـن عمـره تدعـى (فاطمـة)، لعـب معهـا مـن قبـل كثـيرًا، و(فاطمـة) نفسـها شـقيقة (سـليم) الـذي

يكبره بعدد من السنوات و(هاشم) الذي يكبر (سليم) نفسه بيضع سنوات، أما (عمو) الذي لا يتذكر اسمه فقد ظهر خارجًا من باب الشقة مرتديًا جلباب نوم، والهيبة تظهر عليه برغم جلبابه وهو يردِّد كلمات منغمة لم يفهم (بودي) أيًا منها.

هل ما يحدث صراعٌ؟ توقع هذا مع ما لاحظَهُ على الشاب الخائف، فقد تراجع للوراء قليلًا حتى أصبح قريبًا من باب شقة (بودي) ثم فجأة تصلَّب جسده ووقع أرضًا ويداه مضمومتان لجسده كأنه مُكبَّل بالحبال وهو يحاول التخلص منها متلويًا على الأرض، و(عمو) يقترب منه ويقف عند رأسه وهو يوقف حديثه المنغَّم، وعلى الضوء البسيط القادم من الشقة المفتوحة وهو يرى تفاصيل جسد (عمو) الواقف ينظر للشاب الراقد بنوع من الاحتقار ويقول:

- كما توقعت.. لست سوى طفل يلهو بلعبة ورثها عن أجداده.

تلوى الشاب أكثر للحظاتٍ ثم توقف وهو ينظر لعمو ويقول ببرودٍ:

- لكني أحضرت لعبتي معي.

برغم الظلام وعدم وضوح الرؤية إلا أن (بودي) شاهد جسد (عمو) يهتز خوفًا وهو ينظر حوله برعب ويقول بصوتٍ عالٍ:

- غبي

في المساحة بين الشاب و(عمو) سطع ضوء أحمر كانفجار الألعاب النارية لكن بلا صوت، وفي موضع السطوع تكون جسد مخيف طويل بقرون ضخمة.. عقل (بودي) لم يفهم ما يراه لأول ثانيتين، حتى نظر هذا الشيء المخيف ناحية باب شقة (بودي) ببطءٍ كأنه يراه ثم أدار وجهه ناحية (عمو).

عند هذا الحد ترغرغت الدموع في مقلة (بودي)، وارتعش جسده ولكن بشكل لا إرادي قفز الصبي إلى الأرض من على المقعد وجرى ناحية غرفته وقدماه تجريان بإرادتهما الخاصة.. تعثَّر ساقطًا على الأرض فبكى أكثر لكن بصوت مكتوم، ووسط دموع عينيه رأى مصباح صالة استقبال الشقة يصدر طنينًا مزعجًا وضوءه يرتفع، نهض بخوفٍ من سقطته ودخل غرفة نومه المظلمة فاقدًا القدرة على التحكم في مثانته فشعر بالسائل الساخن يغرق سرواله.. اصطدم بفراشه فألقى نفسه عليه ودفن وجهه في الوسادة والبلل ينتقل من سرواله إلى الفراش مع رعشات جسده اللا إرادية.

(2)

1366 م- الإسكندرية- مصر

في خيمة صغيرة نصبت على عجل بجانب سور طابية (رشيد) التي تحمي (الإسكندرية) من الهجوم البحري، جلس رجل متربعًا على الأرض في العقد السابع من عمره لكن ملامح العجز لا تظهر على وجهه المليح وبشرته البيضاء المشربة بحمرة، الإجهاد يظهر عليه خاصة بملابسه المهلهلة وجلبابه الممزق في أكثر من موضع وبقع دماء تتناثر عليه، دماء أتت منه هو شخصيًا من جرَّاء الضربات القوية التي تلقَّاها طوال الأيام السابقة على يد جنود الأمير المملوكي (خليل بن عرام)، لقد امتلك ذلك الأمير طُرقًا عبقرية في الإقناع والتفاوض، الضرب والإهانة والتجويع والتهديد ليسوا أكثرها قوةً، وها قد اقتنع الرجل العجوز المسمى بـ (غراب القبطي) بأفكار الأمير (بن عرام) واليوم يوم التنفيذ.

نصبوا له خيمة صغيرة بجانب الباب الخشبي الكبير لطابية (رشيد) ليطبق فيه اليوم حكم الإعدام، والخيمة ليتسنَّى له تناول آخر وجبة يطلبها ويقابل آخِر من يريد

رؤيتـه قبيـل موتـه.

هـا هـي الوجبـة أمـام (غـراب) عـلى الأرض تتكـون مـن دجاجـة محمـرة في السـمن وبـازلاء وجـزر مطبـوخ في صلصـة الطماطـم وبضعـة أرغفـة خبـز، وعـلى عكـس العـادة المتخيَّلـة لمـن يعـرف بموتـه بعـد قليـل فـإن شـهية (غـراب) كانـت مفتوحـة وهـو يغمـس الخبـز السـاخن في البـازلاء يلتقطهـا ويلقـي باللقيـمات في فمـه، نفـس الحـال مـع الدجاجـة اللذيـذة التـي قاربـت عـلى الانتهـاء وهـو يتلمـظ لحمهـا في فمـه باسـتمتاع.

الأصـوات خـارج الخيمـة متداخلـة بـين أصـوات الجنـد وطبـول تقـرع وأصـوات أهـالي (الإسـكندرية) المتجمعـين ليشـاهدوا مـا سـيحدث وكأنـه احتفـال بالعيـد.. في الواقـع لم يكـن الأهـالي في حالـة احتفـال لأن مـا أصـاب (مـصر) منـذ أيـام كـسر الجميـع، فقـد حـضر ملـك (قـبرص) بحملـة صليبيـة جديـدة لاحتـلال (مـصر) مـن مدخلهـا الشـمالي.. مدينـة (الإسـكندرية)، لكنهـا حملـة مجنونـة غـير مُخطَّـط لهـا، دخـل جنـود الحملـة للمدينـة مـع غيـاب والي المدينـة الأمـير (خليـل بـن عـرام) لذهابـه إلى الحـج، ثـم هـروب نائبـه الأمـير (جنغـرا) إلى (دمنهـور)، أرسـل أهـل المدينـة لقائـد الجيـش المـصري الأمـير (يلبغـا المجنـون) في (القاهـرة) لطلَـبْ المَـدَد والعـون لكـن (يلبغـا) اعتقـد أن الرسـالة مفبركـة مـن أحـد المماليـك لاسـتدراجه إلى الإسـكندرية وقتلـه.

لـو طالعـت مـا حـدث لشـعرت أن الجميـع كان غبيًـا بدرجـة

مفزعـة، المماليـك وجيوشـهم في حالـة مـن الارتبـاك بسـبب صراعاتهـم الداخليـة عـلى مناطـق نفوذهـم، والحملـة الصليبيـة ليـس لهـا خطـة واضحـة لاحتـلال مـصر فقـد هبطـوا عـلى (الإسـكندرية) وأعملـوا فيهـا النهـب والسرقـة والقتـل حتـى وصـل أعـداد مـن قتلـوا مـن أهـل المدينـة لعـشرات الآلاف وأسر منهـم النسـاء والأطفـال بـالآلاف وحرقـت المدينـة التـي كانـت بـلا حمايـة، ثـم بعـد ثلاثـة أيـام مـن دخـول الحملـة الصليبيـة بـدأ الجيـش المـصري في القاهـرة في إعـادة تنظيـم صفوفـه للمواجهـة العسـكرية.. لكـن مَلِـك (قـبرص) قـرَّر الفـرار مـن المدينـة بجيشـه ومراكبـه وآلاف الأسْرَى والثمائـن التـي سرقوهـا، لتنتهـي الحملـة ويذهـب الجيـش المـصري للإسـكندرية المحترقـة الخاليـة مـن البـشر اللهـم إلا القليـل ممـن بقـوا مـن الأهـالي آملـين في الدفـاع عنهـا.

هنـا ظهـرت معضلـة عنـد المماليـك.. مَـن المسـؤول عـن تلـك المهزلـة؟ مَـن الـذي سيحاسـب عـلى المشـاريب ويعتـلي الخـازوق بإرادتـه الحـرة؟ هـل هـو قائـد الجيـش (يلبغـا)؟ أم سـلطان البـلاد الأشرف (شـعبان) ذو الاثنـى عـشر عامًـا والـذي كان يسـتجم في متنـزة (سرياقـوس) بالخانكـة في الفـترة السـابقة؟ أم الأمـير (صـلاح الديـن خليـل بـن أحمـد بـن عـرام) متـولي (الإسـكندرية) الـذي سـمع بمقـدم الحملـة قبلهـا بشـهور لكنـه لم يصـدق وذهـب لأداة فريضـة الحـج؟ أم عـشرات الأمـراء مـن المماليـك؟

– هل تشعر بالبرد يا سيد (غراب)؟

توقف (غراب) عن تناول طعامه ونظر بشك إلى (محمود بن الأصفر عينه السودوني) المملوكي الشاب الذي وقف على باب الخيمة القماشي بكامل ملابسه العسكرية التي يستخدمها المماليك للتشريفات والمناسبات، والغريب أن (محمود) هذا كان مملوكًا غير ذي شأن عند سيده (سودون) حتى أرسله إلى (الإسكندرية) وتولى طابية (رشيد) منذ عامين، ولم يرتدِ ملابس التشريفة العسكرية طوال حياته كمملوك.. أما اليوم فالحال مختلف، أو إذا شئنا الدقة فيوم اختفاء (محمود) من حماية الطابية أمام جحافل الحملة الصليبية وعودته اليوم ليشاهد حكم الإعدام تغير من حالٍ إلى حالٍ.

- لا يا حضرة الأمير.. كنت سأحزن إن رحلت بلا وداعك.

ابتسم الأمير (محمود) بخجل وهو يقترب من مجلس (غراب):

- ولمَ تلقبني بالأمير؟، عندما عملت تحت إمرتك كنت تناديني بـ«يا بني»، ما الداعي لهذا اللقب؟

- ستصبح أميرًا في الأيام القادمة، أنت تفهم وأنا أفهم.

اختفت الابتسامة من على وجه (محمود) ولكنه أكمل اقترابه من (غراب) وهو يقول:

- هل أنهيت طعامك؟

- الحمد لله.

تناول (محمود) إبريق الماء النحاسي من طرف الخيمة ومعه الطبق الكبير وقطعة الصابون يناولها لغراب الذي وقف أدبًا يمنعه مما يفعل.

- العفو.

أشار له (محمود) بيده مطمئنًا وهو يعطيه قطعة الصابون قائلًا:

- عفا الله عنَّا وعنك.. أنت لي في معزة أستاذي (سودون)، علَّمتني الكثير في إدارة الدواوين وأمور الحياة.

ابتسم (غراب) بإرهاق وهو يغسل يديه و(محمود) يصب الماء بحرص حتى انتهى.

- هل لك في حاجة غير الطعام ورؤية ابنك؟

- إن أجاز لي الأمير يساعدني في الوضوء قبل نفاذ أمر الله.

ارتعشت شفتا (محمود) كأنه يمنع نفسه من إظهار أي تعابير على وجهه في تلك اللحظة وهو يكمل صب الماء في الطبق، و(غراب) يتوضأ وصوت أنين مكتوم يغادر حلقه عندما يمسح على جلده بالماء وهو يلمس بعض أجزاء جسده، حتى رفع قدمه اليمنى ليمسح عليها فشاهد (محمود) تورُّمَها وأثر جروح السياط عليها من تعليق (الفلكة).

- بالله عليك أن تصدقني في رفضي لقسوة (بن عسرام) عليك.

لم ينطق (غراب) فأكمل (محمود):

- أنا مجبر على الموافقة مثلي مثلك، وإن رفضت سألقى نفس مصيرك.

أنهى (غراب) الوضوء وجلس جانبًا بوجه صامت فجلس (محمود) بجواره محترمًا صمته.

- أتخاف مصيري بحق؟

خلع (محمود) عمامته وخوذته النحاسية ليظهر شعره الأسود الفاحم المبعثر.. على الأغلب لو نظر أي شخص لمحمود و(غراب) لاعتقد أن هذا الأخير من المماليك وأن (محمود) من مصر، لون عين (غراب) الأخضر الباهت وبشرته حملت الكثير من التناقض لتوقع شكل المصريين عدا أن (غراب) نفسه يؤمن بشدة أن أصوله ضاربة في القدم بأرض مصر من آلاف السنين.

ابتسم (محمود) بطرف شفتيه اليسرى وقال بصوت منخفض:

- الخوف هو صلاتنا يا سيد (غراب)، نمارسها خمس مرات باليوم.. ونلتزم بالسنة والنوافل.

ابتسم (غراب) ابتسامة عريضة ظهرت معها بعض أسنانه النخرة، واستنشق نفسًا طويلًا كأنه يزود نفسه بالشجاعة وقال:

- أبي رحمه الله قال لي عبارة لم أفهمها في حينها.. أتسمح لي بترديدها على مسامعك وتعدني بألا تغضب؟

- تفضل.

- قال أبي «صلاة المماليك الخيانة، وصيامهم الكذب، وزكاتهم القتل، وقبلتهم التي يحجون إليها هي عرش مصر»

مرت لحظات صامتة لا يتخللها إلا الأصوات من خارج الخيمة.. حتى تكلم (محمود) مرتبكًا محاولًا رسم ابتسامة:

- أخبرتني عن صلاتنا، ألا تخبرني عن صلاتك؟ أهي الشجاعة والصدق والأمانة؟

- لا.. فأنا خائف.. وصلاة الخائف الصبر.

- هل أنت راض بما أوقعك الصبر فيه يا سيد (غراب).

حمل صوت (محمود) الكثير من الشفقة:

- لولا الصبر لما اخترت التعقل والحلم ولولا..

صمت فجأة (غراب) ولم يكمل جملته وهو يرى الأمير (خليل بن عرام) يدخل عليهم الخيمة وهو ينظر لغراب بنوع من الاحترام والجدية في نفس الوقت ويقول:

- (عبد الرازق) ابنك ينتظرك بالخارج، أرجو أن تعجل لقاءه كي نبدأ.

أنهى عبارته، ثم نظر إلى (محمود) وتبادل معه بضع كلمات بلهجة من لهجات قبائل الترك فنهض هذا الأخير

مغادرًا الخيمة والغضب بادٍ على قسمات وجهه.. عاود (بن عرام) النظر لغراب ثانية.

- أدخله علي يا أمير، وعند خروجه افعل بي كما اتفقنا.

أدار (بن عرام) جسده ليغادر الخيمة لكنه توقف، أراد أن يتكلم مع (غراب) لكن قريحته لم تنتجُ ما يناسب هذا الموقف الغريب، لذا أدار جسده ثانية وقال بجدية:

- هل كل شيء على ما يرام؟

- بالنسبة لماذا؟

امتلأ وجهه الغضب فجأة وهو يصرخ:

- بالنسبة لأي شيء.

- هدئ قلبك يا أمير فما يحدث اليوم لا مفرَّ منه.

تنفس (ابن عرام) براحة وتنحنح متمالكًا أعصابه وهو يغادر الخيمة، لم تمر ثوان إلا ودخل (عبد الرازق) ابن (غراب) والذي يقترب عمره من عمر والده لا يفرق بينهما إلا 17 عامًا، ويحمل نفس ملامحه تقريبًا عدا أنه يرتدي ملابس أكثر هندامًا وفخامة عن والده، كان يسير بجانبه ابنه الصغير الذي لم تتخط سنوات عمره العشرة أعوام، وطبعًا يظهر الفزع على ملامحه.

- لماذا أحضرت (ماجد)؟

قالها (غراب) بصوت حزين وهو ينظر للطفل المذعور

الـذي جـرى عـلى جـده يحتضنـه و(غـراب) يربـت عـلى ظهـره بحنـان بينـما (عبـد الـرازق) يجلـس أمامـه.

- تراجَعْ عما تنوي يا أبي، ما زال الوقت في أيدينا.

قبَّـل (غـراب) حفيـده عـلى جبينـه وأجلسـه بجانبـه واضعًـا يـده عـلى كتفـه الصغـيرة، نظـر لعبـد الـرازق وتغـيرت ملامـح وجهـه للجديـة وصوتـه يخـرج صارمًـا وهـو يقـول:

- لا ترتكب أيَّ حماقة تضيع بها ما أخطط له.

- أيُّ خطط تقصد، أنت ستموت يا أبي، كل شيء انتهى.

- لم ينتـهِ شيء، انصـت لكلامـي وافهـم مـا يحـدث، (ابـن عـرام) اتفـق معـي عـلى أن أعـدم اليـوم مقابـل تـرك داري ملـكك، وتـركك أنـت لتعيـش، و...

قاطعه (عبد الرازق) بثورة:

- عـما تسـاومه يـا أبي؟ اتركنـي لأقـضي عليـه هـو ومماليكـه في سـاعة واحـدة.

بحركـة خاطفـة لا تناسـب جسـد (غـراب) الواهـن العجـوز قفـز هـذا الأخـير مـن مجلسـه وأصبـح فجـأة أمـام (عبـد الـرازق) وهـو يمسـكه مـن جلبابـه ويهـزه بعنـف وهـو يقـول:

- الجـان الذيـن أحضرتهـم للخيمـة ويحيطـون بنـا لـن يغـيروا فيـما يحـدث، أنـا مـن علمتـك وأنـا الـذي أعـرف قدراتـك، تخلَّـصْ مـن غبائـك وغـرورك وتقبَّـلْ مـا أمليـه عليـك.

هـدّأ (عبـد الـرازق) قليـلًا مـن ثورتـه و(غـراب) يـترك ملابسـه ويعـود لجلسـته السـابقة.

- اسـمع يـا (عبـد الـرازق) لا وقـتَ لعاطفـة غـير مجديـة الآن، لـو كنـت قـد رفضـت التضحيـة بنفـسي لقتلـوني وقتلـوك في كل الأحـوال، وأعـرف مـا يـدور بخلـدك الآن، لمـاذا لا نخرجـه مـن موضعـه؟

التمعـت عينـا (عبـد الـرازق) وكاد أن يتكلـم لكـن (غـراب) أكمـل:

- لـو أخرجنـا صديقنـا مـن مكمنـه لـن نسـيطر عليـه كـما تعتقـد، أنـت تذكـر مـا حـدث منـذ أيـام حـين أخرجتـه ليوقـف زحـف جيـش ملـك (قـبرص) وكانـت النتيجـة أنـه لم يفـرق بـين العسـكر والمصريـين.

خفض (عبد الرازق) صوته وهو يقول بتردُّد:

- لكنـه أخـاف عسـاكر الفرنـج، وأجبرهـم أن يغـادروا عـلى مراكبهـم وانتهـت الحملـة الصليبيـة قبـل أن تبـدأ.

- أترغب بمذبحة لأهلك؟

لم يرد (عبد الرازق) فأكمل (غراب):

- انـزع مـن قلبـك نـار الثـأر مـن المماليـك ولا تمسـهم بمكـروه حتـى يقـضي الله أمـرًا كان مفعـولًا.

- كيـف لا تشـعر بـألم الخيانـة يـا أبي؟ أولم يخنـك (محمـود بـن

الأصفر عينه) بعد أن كان تابعك وتلميذك وها هو اليوم يقف مختالًا في الخارج ينتظر مع البقية موتك.

- (محمود) مملوك حتى ولو أظهر لنا اللين، وما سرقَةُ من منازل التجار والأعيان في الإسكندرية في وقت هجوم الفرنج لا يختلف كثيرًا عما سيفعله أيٌّ مملوك آخر، بالعكس أتوقع له الترقي حتى يصل إلى أعلى المناصب، وربما أصبح سلطان المسلمين في يومٍ ما، لذا لا تناصبه العداء فربما أظهر لك المودة فيما سيأتي.

- أنت ترخص دمك يا أبي.

- دعك من ترف المشاعر وانتبه للقادم، سيضعك (ابن عرام) في نفس منصبي بالإسكندرية وهذا سيثبت فيما بعد للناس بأنني كنت بريئًا، ويفهمون الاتفاق الذي عقدته، كما سيترك لك خمسة أفدنة من ممتلكاتي لتعتاش عليها، عليك بألا تصطدم مع المماليك تحت أيِّ ظرفٍ، علِّم هذا لأولادك وأحفادك، ولا تنسَ أن تعلمهم كيف يحافظون على سرنا.. إلى هنا يكفي ما قلناه يا بني لأن الأهالي في الخارج ينتظرون الإعدام بفارغ الصبر وتأخرنا عليهم أكثر من هذا يعتبر قلة ذوق.

نظر (عبد الرازق) مصدومًا لوجه والده الذي ابتسم بسخرية وهو يقبل حفيده ويعدل من هدامه.

- أبي.. لن يعدموك شنقًا، لم تنصب مشنقة بالخارج ولا وجود لحبال.

تلاشت ابتسامة السخرية من على فم (غراب).

- سيعدمونك بالتوسيط.

قالها (عبد الرازق) ومقلتا عينيه تمتلئان بالدموع الحبيسة، بينما (غراب) ينهض واقفًا وهو يستعيد ابتسامته الساخرة قائلًا:

- جيد.. سيعدمونني كما يعدم المماليك بعضهم البعض، إن لم نحيا مثلهم فعلى الأقل نموت مثلهم.. هيَّا يا بني غادر المكان ولا تنظر وراءك.

نهض (عبد الرازق) وهو يسحب طفله (ماجد) الذي تعلَّقت عيناه بعيني جده المبتسم له حتى غادر، حقيقة توقع (غراب) ألا يغادر ابنه الخيمة بتلك السرعة، ربما بعض الرفض أو الغضب، ربما قليل من لحظات الوداع المؤثرة والتي سيرفضها على الأغلب لكنه تمنَّاها، وقف وسط الخيمة يحرك رأسه يتأملها وهو يبتسم ويقول بنبرة منخفضة كأنه يحدث نفسه:

- أمتعتنا الحياة يا أصدقائي، أذاقتني الدنيا طعمَ المال والصحة والشهوة والمرض، ولن أنكر أني أخذت منها أكثر مما احتجت، والساعة وصلنا إلى نهاية الطريق، أستودعكم الله.

انقلبت صينية الطعام وتناثر ما بها على الأرض، ضحك (غراب) وهو يقول:

- لا تثيروا الشبهات بفلتات غضبٍ لا طائل من ورائها،

أنتم أحرار من وقت موتي، لكن طلب أخير لا أمر فيه، أتمنى ألا تغادروا الخيمة وقتَ إعدامي، وألا ترتكبوا الحماقات فلكُلٍّ منَّا نهايته.. أترككم بسلام.

سقط كتفي (غراب) تسليمًا وهو يسير منكس الرأس حتى خرج من الخيمة، تشمم هواء الإسكندرية فسكنت أساريره وهدأ باله، نظر حوله لجموع الناس الواقفة تنظر له بخليط من الفضول والشفقة والحماسة، ارتفعت أصوات بعضهم بكلمات غير ذات معنى فابتسم (غراب) لهم لكنهم ارتبكوا فلم يظهر على وجوه أيٍّ من الأهالي الواقفين تعبيرٌ واضحٌ، أدار (غراب) رأسَه على يمينه ليجد جنود المماليك يقفون متراصين بملابس الاحتفال بوجوه باردة تعودت على تلك المواقف، أما أمراء المماليك جلسوا بأريحية على خيولهم المزينة ماعدا (محمود بن الأصفر عينه).. هو الوحيد الواقف بجانب فرسه يمسك بلجامه وينظر لغراب نظرة تأسف لحاله، لكن (غراب) ابتسم له بأدبٍ وهو يستنشق هواء البحر من حوله ويدير وجهه ناحية طابية (رشيد) الحجرية وبوابتها الخشبية التي تكسرت أثناء المعارك.

هناك يقف الأمير (خليل بن عرام) وحوله مماليكه يحدثهم وهو يشير لهم فوق فتحة الباب وهم يهزون رأسهم احترامًا، نظرَ (خليل) ناحية (غراب) وأشار لمماليكه، جرى اثنان منهم ليقبضوا على ملابس (غراب) حتى وقف (خليل)

أمامه وأخرج ورقة من ملابسه فأتت قَرعات طبول منتظمة من بعض المماليك الواقفين بجانب الحشود المشاهدة، بعد ثوانٍ توقفت أصوات الطبول وهجم الصمتُ على المكان إلا من صوت ضربات موج البحر على الشاطئ القريب من الحدث.

سعلَ (خليل) وهو يفضُّ الورقة ويقرأ ما بها بصوت جهوري:

- بسم الله الرحمن الرحيم، بأمر من سُلطان المسلمين الأشرف صلاح الدين خليل بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون، في الوقت والساعة ينفذ أمر الله في الخائن (غراب القبطي) متولي نظر الإسكندرية، بعد اتفاقه مع ملك القبارصة ليعينه على دخول الإسكندرية في شهر محرم من 767 هجريًا.

- سعل (خليل) للمرة الثانية، وابتلع ريقه وهو يلقي بنظره للحظة إلى (غراب) ليرى حاله، وجدَّه يهرش في شعر رأسه وعلى قسمات ملامحه نوع من البرود وشبح ابتسامة لا يظهر ولا يختفي، عادت عينه إلى الورقة وهو يكمل قراءة:

- فخان المذكور لعنة الله عليه دينه وأهله عندما فتح بوابة طابية (رشيد) لجنود القبارصة وأعانهم على نهب ديار أهل الإسكندرية وشاركهم في النهب والسرقة، كما أخبرنا شهود عيان بأن الخائن نهب دور التجار والأعيان، وأخذ ما بها

مـن مـالٍ ونفائـس لم يسـتدل عـلى موضعهـا حتـى الآن، وعـلى مـا جـرى ومـا صـار ومـا حـدث يقتـل الخائـن جـزاءً بـما فعـل عـلى رؤوس الأشـهاد، بسـم الله الرحمـن الرحيـم وَمِمَّـنْ خَلَقْنَـا أُمَّـةٌ يَهْـدُونَ بِالْحَـقِّ وَبِـهِ يَعْدِلُـونَ صـدق الله العظيـم، والسـلام مـن سـلطان المسـلمين عـلى مَـن سـمِعَ ومَـن حـضر.

أغلـق (خليـل) الورقـة متحاشـيًا النظـر إلى (غـراب) وانشـغل عقلـه بصوتـه أثنـاء قـراءة الأمـر السـلطاني، وهـل كان عليـه أن يقـول الآيـة القرآنيـة بصـوتٍ أعـلى لتـدل عـلى القـوة أم بصـوت أكثـر خفوتًـا لتـدل عـلى الخشـوع، أثنـاء انشـغاله بأفـكاره أشـار للجنـود المسـؤولين عـن الإعـدام ليأتـوا لـه، لكـن إشـارته لم تكـن واضحـة كفايـة لأن الجنـود اعتقـدوا أنـه يشـير إليهـم ليأخـذوا (غـراب) لموضـع الإعـدام، لذلـك جـرُّوه مـن ملابسـه حتـى إنـه سـقطَ مرَّتَـيْن عـلى الأرض مـن شـدتهم، و(خليـل) مذهـول مـن جنـوده لكنـه لـن يسـتطيع لومهـم أمـام العامـة، المشـكلة أن موضـع الإعـدام عـلى بوابـة الطابيـة لم يجهـز بالكامـل وهـو يعلـم بذلـك لكنـه جاراهـم فيـما يفعلـون، حتـى إن مـا حـدث لاحقًـا أظهـر عبثيـة الموقـف وعـدم التنظيـم، حتـى إن الأهـالي بـدأ صوتهـم يعلـو بالهمهـمات وعـدم الرضـا.

تحركـت الأحـداث بسرعـة شـديدة، الجنـود ألقـوا أخـيرًا بغـراب أمـام البوابـة، صعـدَ جنـدي مـن داخـل الطابيـة إلى سـطحها وهـو يلقـي بالحبـل، ارتفعـت أصـوات قـرعِ الطبـول

لكــنَّ أحــدَ الأمــراء أســكتهم لأنهــم بــدأوا في الميعــاد الخطــأ، الجنــود يلفــون الحبــل بسرعــة حــول صــدر (غــراب) ومــن تحــت إبطيــه، ويعقدونــه بعقــدة بســيطة.

يشــد الجنــدي الواقــف عــلى ســطح الطابيــة الحبــل ليرتفــع جســد (غــراب) للأعــلى لكــن عقــدة الحبــل تفــك مــن تلقــاء نفســها بســبب ارتبــاك الجنــود فيقــع (غــراب) أرضًــا عــلى قدمــه فتنكــسر ســاقه وتتصاعــد صيحــات (غــراب) فيصيــب الجنــود الارتبــاك أكثــر، والأمــير (خليــل) يأمرهــم بعصبيــة بلــف الحبــل ثانيــة.. الأهــالي والمتفرجــون تتصاعــد همهماتهــم وبعــض الاعتراضــات.. الجنــود يعقــدون الحبــل ثانيــةً ويرتفــع (غــراب) المتــألِّم محــاولًا كتــم صرخاتــه وهــو معلَّــق كالذبيحــة.

الخيمــة التــي كان يجلــس بهــا (غــراب) منــذ قليــل اهتــزت أعمدتهــا في نفــس اللحظــة التــي اضطربــت فيهــا خيــول المماليــك وهــي تنظــر للخيمــة وتتقافــز، حتــى إن أحــد أمــراء المماليــك الراكبــين كاد أن يســقط.

يظهــر الجنــدي المكلَّــف بتنفيــذ التوســيط وهــو يــصرخ بلغــة إحــدى قبائــل الــترك مخاطبًــا شــخصًا آخــر باحثًــا عــن البلطــة التــي سيســتخدمها لتظهــر المفاجــأة؛ البلطــة ليســت بالمــكان، يســتل ســيفًا مــن أحــد الجنــود ويجــري عــلى جســد (غــراب) المعلَّــق وهــو يــضرب بالســيف ضربــةً قويــةً عنــد جذعــه، ولكــن لأن الســيف كان أخــف مــن الــلازم فقــد شــقَّ بطــن (غــراب) فقــط.

أجزاء من أمعائه خرجت من ذلك الشق وسط صرخاته فضرب الجندي ضربة ثانية وثالثة على أمل انفصال الجذع لتتم عملية التوسيط، لكن السيف كان يُحدِث المزيد من القطوع والجروح الغائرة والمزيد من الأمعاء تتدلى، وبركان من الدماء ينفجر في وجه الجنود ويغرق ملابسهم، حتى إن الأمير (خليل) تراجع للوراء وهو يتمتم بكلمات دينية وأصوات الأهالي الذين جاءوا في الأصل ليستمتعوا بمشهد إعدام الخائن أصبحت تعترض على ما يحدث والنساء تصرخ ملولة.

أما الجندي القابض على السيف فقد توقَّف وهو يزيح الدماء عن عينيه، ثم أمسك بمقبض السيف بكلتا يديه ليعطيه زخمًا أكثر، وبدأ يضرب ضرباتٍ قوية يائسة لجذع (غراب) حتى وصل لعموده الفقري ثم انفصل الجزء السفلي من جسده واقعًا على الأرض وبقية الجزء الأعلى ما زال معلَّقًا.

الغريب أن هذا الجزء ما زال يرتعش، عدا أن صرخات (غراب) توقفت وزاغت عيناه لكن رأسه اتجه ناحية الأمراء المتطين الخيول التي أصابها الجنون، والأمير (محمود) قد ترك لجام فرسه الذي جرى مبتعدًا ووقف هو ينظر لغراب وهو يقسم بأن هذا الأخير ينظر له بلوم برغم أن عينيه

مازالتا زائغتين، بعد بضع ثوانٍ توقف الجسد عن الارتعاش وأُغلِقَت عين (غراب) من تلقاء نفسها.

فجأة اشتعلت النيران في الخيمة بلا سبب فغادر الأمراء بخيولهم هاربين من الجنون الذي أصاب كل شيء والأهالي يبتعدون عن موضع النيران في حالة من التخبُّط، إلا (عبد الرازق) الذي وقفَ وسطهم لا يتحرك وعيناه معلقتان بجثة والده ويده اليمنى تقبض على ابنه (ماجد) ويدُه اليسرى وضعَها أمام عين الطفل ليمنعه من الرؤية، لكن الدموع المنهمرة من عينه تشي بأنه رأى الكثير ولن ينسى مهما طال عمره.

BOOKS

(3)

2002

(بودي) لم يتعود أن يستيقظ من نفسه، بالإضافة إلى أن والده أخبره منذ اختفاء أمه أنه لن يذهب للمدرسة لبضعة أيام، لكن أصوات جلبة خارج غرفته أيقظته، ضوء الشمس المتسلل لغرفة نومه أعطاه بعض الطمأنينة التي افتقدها أمس عندما رأى ما حدثَ خارج شقته.

حتى ما حدث شكَّ أن يكون كابوسًا تمنى أن يرويه لأمه، المشكلة أنه بلل فراشه وملابسه، وعليه أن يعتمد على نفسه في مداراة تلك المصيبة كي لا يعرف أبوه، سحب ملابس نوم أخرى من الدولاب وكورها تحت إبطه وهو يفتح باب الغرفة، عندما سمع أصواتًا كثيرة مختلطة ميَّز منها صوت والده وهو يتحدث مع آخرين بحسرة عن الحريق ومَن ماتوا.

أطلَّ (بودي) برأسه الصغيرة ليتأكد أن الطريق خالٍ إلى الحمَّام، ثم جرى إليه وأغلقه خلفه ليبدل ملابسه حتى لا يعلم والده بما انتابه، أتاه صوت والده من خارج الحمَّام

يأمره بأن يخرج ليتيح لأحد الجيران الدخول، انتهى الصبي سريعًا من تغيير ملابسه، وخرج منكس الرأس يجري لغرفة نومه، لكن والده أمسك به وهو ينظر للملابس الملقاة بالداخل ويقول بعصبية:

- ما زلتَ تبلل نفسك.

لم يرد الصبي ومستوى خوفه يعلو، والأب يقول بنبرة متصاعدة تدريجيًّا:

- لم تحسن أمك تربيتك، لولا أن الجيران عندي في الشقة لربَّيْتَك كما يربى الرجال.

أفلت الصبي الذي جرى لغرفته ودخل الأب للحمَّام يحاول مداراة ملابس ابنه، الأب (أحمد عبد المولى) لم يكن يعرف ما يجب فعله، لكن يجيد التظاهر بأنه يعرف دائمًا، شاربه الكث وطوله الفارع ببطن ممتلئة لا تتناسب مع جسده الأميل للنحافة تعطيك هيئة الأب المصري العتيد على أنه لم يورث لابنه (بودي) طوله الفارع ولا لونه الأبيض المشرب بحمرة لكن ابنه ورثَ لون بشرة والدته الأسمر وصغر حجمها ووسامة قسمات وجهها.

فكَّر (أحمد) في زوجته المتوفاة وهو بالحمَّام يداري ملابس ابنه وعقله مشغول بالمستقبل، أيتزوج ليجد من يرعى شؤونه وشؤون الصبي؟ أم سيتهمه من حوله بأنه قاسي القلب ليأتي بزوجة أب لابنه؟، حقيقة أنه اتفق مع شقيقته لتأتي للشقة

هنا من وقتٍ لآخر لتنظيفها وإعداد بعض الطعام الساخن، لكن هذا الحل مؤقت ويجب إيجاد الحل النهائي.

داري الملابس وخرج من الحمّام ليشير لأحد الجيران بدخول الحمّام، وعاد لصالة استقبال الشقة الضيقة الممتلئة بالجيران رجالًا ونساءً، دخان السجائر يصنع سحابة قريبة من السقف وأكواب شاي أحضرتها إحدى الجارات ملقاة في كل مكان.

- لماذا تأخرت الشرطة كل هذا الوقت؟

قالتها إحدى الجارات كنسوعٍ من مشاركة الوقت فردَّ عليها زوجها الجالس بملابس المنزل واضعًا قدمًا على الأخرى بتناكة.

- ما زالت الساعة السابعة صباحًا يا أم (فوزي) ضباط الشرطة لم يصلوا لعملهم بعد.

- وهل لهم مواعيد حضور وانصراف؟

دارت مناقشة تافهة اشترك فيها الجميع بحماسة عن دور رجال الشرطة المصرية ومواعيد عملهم وكأنهم يجلسون في نادٍ اجتماعي أرستقراطي، متناسين أنهم يجلسون بالقرب من الشقة المقابلة والتي حدثت بها كارثة أجبرتهم على التجمع في شقة (أحمد عبد المولى).

القصة بدأت باستيقاظ (أحمد) للذهاب للحمّام في الخامسة فجرًا، رائحة احتراق أجبرته على الجري داخل الشقة

كالمجانين يستطلع مصدرها، غرفة (بودي) سليمة وابنه يغط في سبات عميق، الحمام والمطبخ والصالون وبقية الشقة بلا مشاكل، وجد مقعد خشبي بجانب باب الشقة فأزاحه مسرعًا وخرج، فعلمَ وقتها مصدر الرائحة.

دخان بسيط يخرج على دفعات قليلة من تحت باب شقة جارهم الذي أتى من سَلطنة عمان ليستأجر الشقة منذ شهور، هو نفسه تعرَّف عليه وعلى عائلته، تذكَّر بسهولة اسمه.. (صابر الحريزي)، وسبب تذكُّره الاسم أنه لوقعه على الأذن غرابة لم يألفها.

- أستاذ (صابر).

نادى (أحمد) بخجل وهو يقف أمام الباب عاجزًا، أعاد النداء بصوت أعلى، ثم طرق على الباب بقوة، يعلم (أحمد) أن عليه أن يكسر باب الشقة وهذا ما حاوله مندفعًا أكثر من مرة ليصطدم به بكتفه لكن الباب كان قويًا.

جرى لينزل السلم ويوقظ أحد الجيران ليساعده في كسر الباب، ثم عاد ومعه جاره الأستاذ (فتحي) والذي كان نسخة منه في الهيئة لكنه كان قويًا بحق، بالطبع بضع ثوانٍ واستيقظ جيران العمارة، وأتوا يحيطون بأحمد و(فتحي) الذي استطاع بقوته، كسر الباب.

الدخان لم يكن كثيرًا، لكن النيران واضحةٌ من الداخل، برغم أنها لم تنتشر، إلا أنها ظهرت بمواضع مختلفة، جثة

رجل في الخمسين متفحمة توقع (أحمد) أنها جثة (صابر) رب العائلة، المشكلة أن (أحمد) لم يستطع التقدُّم لداخل الشقة، الجثة المتفحمة النائمة على ظهرها بجانب أريكة أصابته بالرعشة، الرجال من خلفه شهقوا والنساء تكفلن بالصويت والولولة، تراجع هو خطوة للوراء بينما اقتحم (فتحي) الشقة مداريًا أنفه بكم بيجامة نومه، التمع خاطرٌ في عقل (أحمد) للحظةٍ يخبره بأن حجم النيران التي يراها داخل الشقة لا تتناسب مع تفحُّم الجثة الغريب، ولكنه أبعد ذلك الخاطر وهو يتراجع أكثر مغمضًا عينيه ليبعد تلك الجثة عن عقله.

دارت تلك الذكرى في عقل (أحمد) الجالس ببرودٍ بجانب جيرانه في شقته بانتظار الشرطة بعدما نجحوا في إطفاء النار بسهولة، ولم تكن مهمته في الإطفاء أكثر من تمرير دلو ماء من وقتٍ لآخر لأستاذ (فتحي) البطل الذي تطوع بقيادة المجموعة.

- ما رأيك يا أستاذ (أحمد) في تأخُّر الشرطة عن الحضور؟

قالها أحد الجيران بعدما رشف بصوت مسموع من كوب الشاي بيده، لكن لم يرد (أحمد) بسبب زوجة (فتحي) التي قررت أن تعبر عن فخرها بزوجها فجأة وهي تقول مبتسمة:

- وما الذي ستقدِّمه الشرطة أكثر مما قدَّمَه (فتحي)؟

أنهت عبارتها بنظرة جانبية مبتسمة لزوجها الجالس يمثل التواضع وهو يقول:

- لم أفعل إلا ما يمليه عليَّ واجبي.

- هـل لـكَ ملاحظات جديـدة يـا أستاذ (فتحـي) عـما رأيتـه بالداخـل؟

قالهـا أحدهـم فتحفـز (فتحـي) بجلسـته ورسـم الجدية عـلى ملامحـه وهـو يقـص مـا حـدثَ بفخـرٍ شـديدٍ كأنـه هـو مـن أشـعل الحريـق، وكانـت هـذه هـي المرة الرابعـة يقـول فيهـا نفـس الكلـمات:

- عندمـا كـسرت بـاب الشـقة ودخلـت بعدمـا خـاف أسـتاذ (أحمـد) وهـذا أمـرٌ طبيعـيٌّ فليـس كل الرجـال يتحملـون مـرأى الجثـث مثلـما أتحمَّـل أنـا، فلقـد شـاركت في غسـل الجثـث مـن طفولتـي، وأصبـح قلبـي لا يهـاب تلـك الأشـياء.

التفت إلى (أحمد) الجالس بخجلٍ، وأكمل قائلًا:

- لكـن أسـتاذ (أحمـد) سـاعدني بإطفـاء الحريـق حتـى ولـو لم يدخـل الشـقة.

ثم نظر لبقية الجالسين ليكمل متحمسًا:

- طبعًـا طلبـت منكـم ألا تدخلـوا الشـقة كـي لا تصابـوا أو تختنقـوا.. ولأننـي رأيـت جثـة صاحـب الشـقة في الصالـة التهمتهـا النـيران، وعـلى وجهـه صرخـة ألمٍ فعلمـت أن الكارثـة انتهـت ودخـول أي أحـد غـيري لـن يزيـد أو ينقـص شـيئًا، اتجهـت لغـرف النـوم فعثـرت عـلى الأم محترقـة ومتفحمـة لكـن النـار في غرفتهـا انطفـأت بعدمـا حرقـت أجـزاءً مـن السـقف

والحوائط والفراش، وفي غرفة أخرى وجدت بعض النيران ما زالت مشتعلة وفتى بجثة متفحمة يحتضن طفلة صغيرة، أرجّح أن الفتى هو (هاشم) الابن الأكبر للعائلة، رأيته كثيرًا وكان وَدُودًا محترمًا، وشقيقته (فاطمة) رأيتُها تلعب كثيرًا مع (بودي) ابن الأستاذ (أحمد)، النار كانت ما زالت مشتعلة بهما، لكنهما تفحما بالكامل، جريت على باب...

توقف (فتحي) عن رواية قصته ونظر هو والبقية خارج الشقة لصوت خطوات تصعد على السلم بعد لحظة ظهر صاحبها، (سليم) المراهق ذو السادسة عشر عامًا ابن (صابر) والذي لم يكن وسط الجثث داخل الشقة ولم يعلم أحدٌ بمكانه، لم يعلموا بأنه كان في زيارة لصديقه المصري، وقد تعوّد أن يبيت عنده في منزله من وقتٍ لآخر، يمكنك أن تسمها صدفة أو معجزة لإنقاذ هذا المراهق أو سمها ما شئت، المهم أن (سليم) توقف أمام باب شقته ينظر لمدخلها بدهشة يشوبُها الحذر ثم يحرك نظره لينظر للجيران الجالسين بشقة (أحمد) الناظرين له بصدمة.

المشهد كارتوني بعض الشيء لأن الجيران الثرثارين منذ لحظات تسمروا صامتين، و(سليم) ينظر لهم بعدم فهمٍ ويعود لينظر لباب الشقة المفتوح مقتربًا منه ببطء.

أخيرًا نهض (أحمد) قائلًا:

- انتظر يا بني..

لكن (سليم) دخل بخطوات واثقة للشقة، وعندما لحق به (أحمد) كان (سليم) يخرج من باب الشقة ثانية بقسمات وجه مصدوم، الجميع توقع أن يسمع صراخ (سليم) من الداخل وهو ينادي على أبيه وأمه وإخوته أو على أقل تقدير تمنى الجيران أن يسقط مغشيًا عليه ليدخل أستاذ (فتحي) البطل السوبر مان ليحمله من داخل الشقة ويحضره بينهم.

لكن (سليم) حاول أن يتمالك نفسه وهو ينظر لأحمد والجيران الذين توافدوا ليقفوا بجانبه و(سليم) يهز رأسه بعدم فهم وهو يتنفس بصوت مسموع ويشير بإصبعه ناحية باب شقته.

الجيران يربتون على كتفه وهو يهز رأسه بعدم فهم حتى قال بصوت متحشرج:

- أهذا والدي؟

قصد بالطبع الجثة المحترقة والتي طالعها عند دخوله، في ذلك الوقت لم يكن (فتحي) قد غادر مقعده، حتى نهض بهيبة وكاريزما وتنحنح وهو يخترق جموع الواقفين حتى وصل إلى (سليم) وأمسكَ بكتفه وهو يقول بصوت قصد أن يجعله جهوريًا:

- البقاء لله في عائلتك، يجب أن تتحمل الأمر كالرجال.

نظر له الفتى كأنّه لا يصدق هذه المباشرة في الحديث و(فتحي) يكمل:

- اذكر الله يا بني وتقبل مصيبتك.

- ما هذا الكلام الغبي!!

قالها الفتى فشدَّ (فتحي) على يده بعصبية وهو يبرق عينيه صائحًا كالمجاذيب:

- هل ستكفر بقضاء الله، استغفر الله استغفر الله استغفر الله.

على الأرجح قد مر (فتحي) بتلك اللحظات كثيرًا وهو يستمتع بإبلاغ خبر الوفاة لمن حوله ويستمتع أكثر بالسيطرة عليهم لينفجروا بكاءً، حتى إنه لربما صفع أحدهم مرة أو اثنتين من باب الحماسة، لكن هذه المرة الوضع مختلف، فسليم برقت عيناه هو الآخر وتفوَّه بكلمتين توقع الجميع أنهما سُباب بلهجته الأم، ثم دفع الأستاذ (فتحي) في صدرِه بقوة جعلت هذا الأخير يطير للخلف ليقع في أحضان أحد الجيران، تعالت الأصوات وصراخ بعض النسوة، ثم أبعد البعض (فتحي) الذي أصبح كالثور الهائج قليلًا ورذاذ فمه يتطاير في كل مكان وهو يصيح متوعدًا الفتى الذي سحبه البعض هو الآخر بعيدًا.

حسنًا لقد هدأ الجميع.. أستاذ (فتحي) اصطحبته زوجته لشقتها ودخل (سليم) لشقة (أحمد) وتفرَّق الكثير من الجيران حتى حضرت الشرطة ثم المعمل الجنائي الذي قرَّر مبدئيًا أنه لا وجود لشبهة جنائية، برغم أن مصادر اشتعال

النيران غير واضحة كأنها اشتعلت من أجساد الضحايا أنفسهم، لكن في الوقت الحالي وربما مستقبلًا لن يظهر جديد تحت السطح.

المحضر كُتِبَ على عجلة وأدلى (سليم) بأقواله والتي كانت غير ذي فائدة، عرضَ أحدُ رجال الأمن على (سليم) توصيله لسفارة (سلطنة عمان) فرفض، وأخبر الجميع بأنه سيتصل بأقاربه ليأتوا لمصر في أقرب وقتٍ.

والده (صابر) كما شرح (سليم) في محضر الشرطة قد جاء لمصر منذ شهور لفتح مشروع استثماري بسيط يعتبر امتدادًا لمشاريع العائلة بسلطنة (عمان)، ومَن كان سيدير المشروع هو شقيقُه الأكبر الذي توفي وتعود بقية العائلة لبلدهم.

لم يفت على رجال الأمن أن يسألوا عن إقامة العائلة في مصر وموعد انتهائها، ولكن كل الأوراق جيدة وما زال هناك مدة كافية.. انتهى رجال الشرطة وتم نقل الجثث للمشرحة، وانتهت القصة في العاشرة صباحًا، إن كنت معهم لربما اندهشت من عدم بكاء (سليم)، تتوقع أنه سينهار ويغشى عليه من الصدمة، لكن لم يحدث، نتوقع إذًا العكس، هل جلس الفتى بنظرات نارية متوعدة ينظر للامكان ويحلم بالانتقام حتى لتحسب أنك ستسمع صوت موسيقى مترقبة تأتي في خلفية المشهد كأفلام الثأر؟ الحقيقة أنه لا، كان يتعامل بقليلٍ من الارتباك مع الكثير من التحفظ والتماسك، ربما

هي الصدمة؟ أو أنه لم يصدِّق بَعدُ؟ حتى هو لا يعلم سرَّ تعامله مع الجميع بشكل طبيعي.

رحل الجميع بما فيهم الجيران وتطوع (أحمد) باستضافة (سليم) الذي رفضَ في البداية لكنه قبل مع الإلحاح والموافقة على أن يبيت في الصالون، تركه (أحمد) في الشقة ونزل إلى الشارع ليحضر بعض الطعام.

مرَّت دقيقة وسمع (سليم) صوت باب غرفة يفتح ثم أطلَّ رأس (بودي) الصغير ينظر له مبتسمًا، بادله (سليم) الابتسامة و(بودي) يسير إلى التيليفزيون يفتحه كنوعٍ من أنواع الترحيب بالضيف وهو يقول:

- أتريد قناة (سبيس تون) أم قناة أخرى؟

زادت ابتسامة الفتى لبراءة الطفل وهزَّ رأسه نافيًا، أغلق (بودي) التلفزيون وجلس بجانبه، وقال بحرج وابتسامة طفولية ترتسم على فمه:

- هل يمكنني أن ألعب مع شقيقتك (فاطمة) أم ما زالت نائمة؟

لم يجد (سليم) ردًا مناسبًا، برغم فاجعته لم يفضل أن يخبره بالحقيقة بنفسه، لكن العجيب أن (بودي) تصلب في جلسته وظهر الخوف عليه، نهض فجأة من على الأريكة وعاد جريًا لغرفته مغلقًا بابها خلفه.

في نفس الوقت عاد (أحمد) من الخارج يحمل أكياس

شطائر الفول والطعمية والبطاطس وهو يبتسم مجاملة ويضع الأكياس جانبًا وهو يقول:

- وافقتك منذ قليل على أن تبيت في غرفة الصالون بسبب عصبيتك، لكن يا بني لن أقبل بذلك في النهاية، ستبيت في غرفة النوم الرئيسية وأنا سأنام بجوار (بودي).

هزَّ (سليم) رأسه بالموافقة، توقف (أحمد) وقد ذهلَ لأنه قد حضَّر خطابًا طويلًا لم يسمح له (سليم) بإلقائه.

- هل لك أعمام في بلدك يا بني؟

- لا، والدي وحيد أبويه، وخالي توفي منذ سنين.

جلس (أحمد) على أحد المقاعد محاولًا أن يلطف أسئلته كي لا يثقل على الفتى.

- إذًا مَن أقاربك الذين أخبرت عنهم الشرطة؟

- هم أقارب والدي وأصدقاؤه، سيحضرون لمساعدتي في إرجاع عائلتي لدفنهم بموطننا بصحار.

هز (أحمد) رأسه كأنه يفهم كل شيء، لكنه قال بشكلٍ عابرٍ:

- هل أنتم في الأصل من (صحار) وتقيمون في سَلطنة (عمان)؟

- (صحار) داخل السَّلْطَنة يا عمي.

ابتسم (أحمد) خجلًا ونهض ليفتح أكياس الطعام وهو يقول محاولًا مداراة جهله:

- هل ستقيم بمنزل العائلة عند عودتك لبلدك؟

- لن أعود.

نظر له (أحمد) متسائلًا فردَّ عليه:

- سأظل بمصر وأنقل دراستي لهنا، لقد فكرت في كل شيء.

- متى فكَّرت؟ لم أتركك إلا بعض الوقت، اسمح لي يا بني أنت تشغل بالك بالكثير الآن، دعنا نأكل وسأنزل معك بعدها لأقرب سنترال لتحدث أهلك.

أنهى عبارته ونادى على (بودي) الذي جاء منكس الرأس يتحاشى أن ينظر لمن حوله، أمَرَهُ (أحمد) بالجلوس إلى طاولة الطعام، رفع (بودي) رأسه للأعلى قليلًا بترقب ثم ارتاحت قسمات وجهه وهو ينظر ناحية (سليم) نظرة غريبة لم يفهمها هذا الأخير.

***

بعد منتصف الليل ببضع ساعات، وقت كافٍ لينهض (سليم) من على الفراش في غرفة النوم الرئيسية بالشقة، فكَّر أن يعود لشقته لكنه لم يكن قد استفاق من صدمة موت عائلته بَعد، لم يكن قد نام من الأصل لكنه انتظر حتى يتأكد من نوم (أحمد) و(بودي) ليبدأ ما أراده.

الغرفة مظلمة وهذا لا يؤرِّقه لكنه لا يعرفها مسبقًا وهذا يُشعِره بعدم ارتياح، جلس على حافة الفراش وهو يقول هامسًا:

- إن كنت قريبًا فاحضر يا (صالح) وأسمِعني صوتك.

جاءه صوت هامس في أذنه يقول:

- حضرت.

أكمل (سليم) همساته وهو يقول:

- ابحث لي عن أقرب جِنيٍّ شاهد ما حدثَ لعائلتي بالأمس، أي جني أو ساكن من عمار المكان لأستجويه.

- أخبرتك يا سيدي أن كل خدام ومُرافِقي أبيك قُتِلُوا بالأمس ومعهم عمار شقق هذا البناء.

تململ (سليم) وارتفع صوته وهو يجز على أسنانه:

- مارس عملك وابحث مرة ثانية وثالثة، يجب أن تأتي لي بأي جني شاهد ما حدثَ.

مرت دقيقة عاد بعدها صوت (صالح) يقول:

- غادر غرفتك في التو واللحظة لترى شيئًا هامًا.

نهض (سليم) من على الفراش وتحسس طريقة حتى الباب ليفتحه، وجد (بودي) يقف بوسط صالة الشقة وهو يداري جزءًا من عينيه بيديه الطفوليتين وهو ينظر للأسفل وهو يقول:

- (سليم)، أنا أعرف أن عمو المخيف هذا هو صديقك.. قُلْ له ألا ينظر لي بتلك الطريقة لأنه يخيفني.

- عما تتحدث؟

نظـر (بـودي) بطـرف عينـه ناحيـة (سـليم)، وعـاد لينظـر أرضًـا وهــو يقـول مترجيًـا:

- عـن عمـر الـذي يقـف بجانبـك الآن، ذي الجسـد النحيـل والعيـون الواسـعة، الـذي يتحـرك بسرعـة كبـيرة، قـل لـه أن يتوقـف عـن تخويفـي.

(4)

1382 م - الإسكندرية - مصر

أنهى (ماجد) طعامه، ونهض من على الأرض ينادي على خادمه (حسن) الذي أتى جريًا يحمل الدلو وإبريق الماء ليصب لسيده الماء بعد مناولته قطعة الصابون اللزجة.

كانت دار (عبد الرازق بن غراب) كما هي تقريبًا عدا أن من بقي بها من الخدم هو (حسن) العجوز الذي تعوَّد على خدمة (غراب)، ومن بعده (عبد الرازق) الذي توفي منذ عامٍ والآن هو في خدمة (ماجد).

وقد وفى الأمير (خليل بن عرام) بوعدِهِ لغراب عندما ترك (عبد الرازق) كمتولي لنظر الإسكندرية في الشؤون الإدارية ومِنْ بعده (ماجد) الذي شربَ صنعة جده وأبيه في الإدارة برغم حداثة سنه والذي لم يتجاوز السادسة والعشرين عامًا، ربما قلَّتْ مصادر دخل العائلة لكنهم ظلُّوا على حسن السمعة بالإسكندرية ونواحيها وكأن إعدام (غراب) بتهمة الخيانة لم يكن، وحتى الآن ما زال (بن عرام) يعامل (ماجد) وعائلته بذوقٍ خاصٍ وكأنه يكفر عن خطيئة لم يعترف بها.

انتهى (حسن) من صَبّ الماء على يدِ سيِّده ثم توقف وهو يستمع لصوت قرعات طَبْلٍ خارج الدار، نظر له (ماجد) مطمئنًا وهو يقول:

- هذه تشريفة الأمير (بن عرام)، افتح المجلس بسرعة وسخن بعض اللبن بالعسل.

هرول (حسن) للخارج بينما (ماجد) يعدل من هندامه ويرتدي عمامته ثم يسحب قارورة العطر من أحد الأدراج يغرق بها ملابسه، تنفَّس بضعة أنفاس ليطرد التوتر من عقله وهو يغادر الحجرة متجهًا لقاعة الاستقبال بالدار المعدة منذ سنين طويلة لمناقشة شؤون إدارة الإسكندرية.

دخل القاعة مرتفعة السقف المزدانة بالنقوش النباتية على جدرانها وامتلأت بالمقاعد التي تزينت بالصدف الأبيض المصري، وأمام كل مقعد طاولة صغيرة لتقديم المشروبات، وفي وسط القاعة نافورة يُلقَى فيها من وقت لآخر زيتٌ عطريٌّ يشيع رائحة خلابة حول الجالسين، باختصار كانت قاعة ملكية الطبع تختلف عن بقية الدار المتواضعة والعادية، لكنها واجهة العائلة التي وجب الاحتفاء بها أمام الكل.

دخل القاعة فوجد بابَها المطل على الشارع قد فتحه (حسن) ليتقدَّم من الباب اثنان من الجنود المماليك بملابس التشريفة وبلا أسلحة.

- الأمير صلاح الدين (خليل بن أحمد بن عرام) يطلب مقابلتك.

ابتسم (ماجد) وفي باله فكرة أن (بن عرام) يحب مناداة اسمه أبًا عن جد ليتشبه بالمصريين الذين يحفظون أسماء جدودهم، لكنه مع ابتسامته قال بتملق:

- هذه الدار، وكل دور الإسكندرية مِلكٌ للأمير يدخل ما شاء منها بغير استئذان ولا موعد.

أنهى عبارته وهو يتقدَّم ناحية الباب متخطيًا الجنديان ليستقبل الأمير بنفسه لكن (بن عرام) دخل عليه القاعة قائلًا:

- حلو اللسان أنت يا (ماجد)، عمر الله دارك وأمنك شر الزمان ومكائده.

كانت التجاعيد بادية على وجه (خليل بن عرام) ولكنها تجاعيدُ قسوةٍ أكثر منها عجزًا، وكلما ابتسم زادت التجاعيد وكأنها تشققات في وجهه الصارم، مدَّ يده يصافح (ماجد) بمحبة وهو يربِّت على كتفه كعادته في معاملة خصومه قبل أحبابه، ثم أشار للجنديين بالخروج، لكن طفلًا صغيرًا أزرق العينين أصفر لون الشعر مليح القسمات يرتدي جلبابًا وحذاء، دخلَ من الباب ينظر للجنود برهبة، حمل (بن عرام) الطفل وهو يقول مبتسمًا:

- أتترك شقيقك ليلعب في الخارج يا (ماجد)؟

ثم احتضن الطفل وهو يربت على ظهره بحنان ويجلس على أحد المقاعد مجلسًا الطفل على قدمه و(ماجد) يجلس بالقرب منه و(بن عرام) يكمل:

- اسمه (إبراهيم).. نعم أنا أتذكر الاسم.

- خادِمُك (إبراهيم بن عبد الرازق) يا أمير، شرفٌ لنا أن تتذكر اسمه.

قالها (ماجد) وهو يطلب من الطفل (إبراهيم) مغادرة القاعة لكن (بن عرام) أخذ يلاعبه وهو يخبره:

- أتعرف يا (إبراهيم) أنني حضرت ولادتك؟

ردَّ الطفل ببراءة:

- أنت الأمير (بن عرام)؟

- نعم.

- أخي (ماجد) أخبرني عنك.

حاول (بن عرام) الحفاظ على ابتسامته وهو يسأل (إبراهيم):

- ماذا أخبرك؟

- قال لي إنك صديق لأبي وجدي، وإنك تحمينا من الأشرار.

نظر (بن عرام) بإعجاب إلى (ماجد) ثم أعاد بصره لإبراهيم وقال:

- صدقت يا ابن الغالي، أرى فيك جمال جدك ونبوغ والدك.

ثم لثم الطفل على خديه وهو ينزله للأرض ليجري مغادرًا القاعة و(بن عرام) ينظر لماجد ثانية بامتنان قائلًا:

- لم تخب ظني فيك يا (ماجد).

- عمَّ تتحدث يا أميرنا؟

- عما أخبرت به شقيقك.

- والله ما أخبرته إلا بالحقيقة.

ارتاح (بن عرام) أكثر بمقعده وهو يتنهد قائلًا:

- عجيب أنك لست من المماليك وتحمل لي صفاء نية لا يحمله أبناء جلدتي.

- أراك مثقلًا بهموم الأرض، هل عودتك لإمارة الإسكندرية أثقلتك بالهموم؟

- لا.. بل القاهرة المحروسة هي ما تثقلني.

دخل الخادم (حسن) إلى القاعة حاملًا صينية نحاسية عليها إبريقٌ امتلأ باللبن الساخن المُحلَّى بالعسل وأكواب نحاسية مزخرفة يمتلئ إحداها بالماء والبقية فارغة، وضعَ الصينية على الطاولة المقابلة لماجد الذي أخذ الإبريق وتناوَل كوبًا فارغًا صبَّ فيه القليل من اللبن وشربه على دفعة واحدة.

فعلَ ما فعلَ لأن هذا ما علَّمَه إياه والده، أن يشرب من نفس الكوب الذي سيشرب منه أمراء المماليك ليثبت لهم أنه غير مُسمَّم، وأصبحت تلك عادته التي يفعلها لا شعوريًّا أمام من يستضيفهم من الأمراء، حتى إن (بن عرام) لم يلقِ

بـالّا لمـا يحـدث لأنـه تعـوَّد عليـه هـو الآخـر ولـو لم يفعـل (ماجد) مـا فعـل فلـن يقـرب (بـن عـرام) شراب ولا طعـام في داره.

أعـاد (ماجـد) صـبَّ اللبـن في نفـس الكـوب الـذي شرب منـه وأعطـاه لابـن عـرام الـذي تناولـه وهـو يرتشـف منـه مسـتمتعًا و(ماجـد) يقـول:

- مـا أعلمـه أن مولانـا السـلطان (سـيف الديـن برقـوق) حفظـه الله يقـدِّرك ويحبـك.

- السلطان لا يفهمنـي، يخيَّـل إليـه أننـي خطـر عـلى سُـلطانه، ويعلـم الله مـا بقلبـي ناحيتـه.

- أعتقـد يـا أميرنـا بأنـك تشـعر بالنفـي في الإسـكندرية، بعدمـا كنـت وزيـر الديـار المصريـة بالمحروسـة.

نظر (بن عرام) لماجد وقال بلوم:

- قلهـا ولا تخـف، قـل إننـي عُزِلـت عـن الـوزارة ثـم عينـت في الإسـكندرية لأبعـد عـن مصـارع الحكـم في القاهـرة.

- ومـا الضـير في أن تكـون هُنـا في الإسـكندرية؟، لمـاذا لا تراهـا فـأل سـعد عليـك، عـلى الأقـل لـن تكـون وسـط المخاطـر حتـى تنتهـي الغمـم والمعـارك حـول العـرش ويمكنـك وقتهـا أن تعـود للـوزارة ثانيـة.

ضحكَ (بن عرام) وهو يرتشف اللبن ويقول:

- لقـد تمكَّـن مماليـك الجركـس مـن مفاصـل السَّـلْطَنة يـا (ماجـد) وانتهـى الأمـر، مماليـك الـترك أصبحـوا خدامهـم.

- علمني والدي يا أمير أن في عرف المماليك كل شيء ممكن، وإن كان الجركس في الحكم اليوم، فغدًا يفعل الله ما يشاء، وربما كنت أنت السلطان بعد طول عمر سلطاننا بالطبع.

- ابتعادي عن القاهرة خطرٌ عليّ، يجب أن أكون وسط مكائدهم قبل فوات الأوان.

صبَّ (ماجد) اللبن في الأكواب ثانية وتناول كوبه وارتشف منه مفكرًا وهو يقول:

- هل هناك حاجة لوجودك في الإسكندرية بنفسك؟ ضع نائبًا لك واذهب إلى السلطان في القلعة.

- والسبب؟

- عندي اقتراح، ما رأيكَ أن تخبر السلطان بأن هناك مكيدةً تدبر له من بعض مماليك الترك.

أبعد (بن عرام) بصره عن (ماجد) وهو يقول باستخفاف:

- أنت لا تفهم شيئًا عن مكائد المماليك، سيعلم السلطان بـ...

قاطعه (ماجد) متحمسًا وصوته يشبه الفحيح وهو يقول:

- لكنك ستحيط المؤامرة فعلًا، ستقوم بقتل 20 مملوكًا من الترك ممن يتولون حراسة القلعة.

صرخَ فيه (بن عرام):

- أجننت؟

- لا، أنا أخبرك بما فيه مصلحتك، أنا أسمع أن لكل باب من أبواب قلعة الجبل نوبة حراسة يتبادل عليها فرقتان من المماليك، اختر نوبةً بها مماليك الترك، واقتل عددًا كبيرًا من أفرادها بشكل سري، واخترهم من غير المماليك السلطانية، ثم اذهب للقلعة بشكل مفاجئ وانفرد بالسلطان وأخبره بأن عيونك أرشدتك للمؤامرة لكنك فضَّلت التصرف في أسرع وقتٍ وقتلهم قبل أن ينفذوا مهمتهم، واطلب من السلطان أن يخفي الأمر عن الجميع كي لا تدب الفتنة بين مماليك الترك والجراكسة الذي ينتمي هو لهم.

ظهرَ بعض الاقتناع في عين (بن عرام) وهو يضع الكوب على الطاولة أمامه ويقول بشك:

- السلطان (برقوق) سيشك، لو كنت أنا بموضعه لشككت.

- وهذا هو المطلوب، أو تدخل الريبة قلبه، لن يصدق، ولكنه لن يكذب حتى تأتيه البينة، وفي ذلك الوقت يرتفع شأنك عنده ويعطيك الفرصة للعودة للقاهرة ثا...

توقف فجأة (ماجد) عن الحديث وكأنه تذكر شيئًا.. شرد بعقله لحظات استفزت (بن عرام) الذي قال بعصبية:

- ما بك؟

- أخبرني يا أمير.. ألم يأمر السلطان بحبس الأمير (بركة اليلبغاوي) وأنصاره في سجن ثغر (الإسكندرية)؟

- نعم لكنه عفا عن أنصار (بركة) وأشرفت أنا بنفسي على خروجهم وعودتهم للقاهرة منذ أيام طوال.

- إذًا لم يبق في سجن (الإسكندرية) مملوكي بأهمية الأمير (بركة)؟

- أفضِ لي بما يعتمل برأسك.

نظر (ماجد) ناحية باب القاعة ليتأكد من عدم اقتراب أي جندي من الباب، ثم همس قائلًا:

- (بركة اليلبغاوي) هو عدو سُلطاننا، والجميع يعرف أنهما تنافسا على حكم مصر والشام، منذ سنين، وانتصر السلطان بأتباعه من المماليك الجراكسة وحبس الأمير (بركة) وأتباعه من مماليك الترك، ثم أفرج عنهم واحدًا بعد الآخر وملكهم بعض المناصب ليتقي شرهم.

- لم تضف على ما يعرفه العامة بمصر جديدًا.

أكمل (ماجد) بخبث:

- لكن الصراع ما زال قائمًا، أليس كذلك؟

- هاتِ ما عندك.

- طالما (بركة) ما زال حيًا في السجن، يظل عرش السلطان مهددًا، فربما استطاع مماليك (بركة) إخراجه وتنصيبه.

- لا تكن أحمقَ وتفكر في قتل الأمير (بركة)، فهو خشداش السلطان، تربى معه عند نفس الأستاذ والمملوك لا يقتل خشداشه.

- لكن السلطان يحلم بقتله لتنتهي الفتنة ويتفرق أتباعه، وإن قتله لثار أتباعه ومماليكه من الترك وربما قتلوا السلطان.

داعب (بن عرام) شاربه وهو يقول مفكرًا:

- تقصد أن يقتل (بركة) بمحبسه، ولكن بدون أمر السلطان؟

- وهذه هي مكيدتك يا أميرنا.

- أقتله أنا؟

- لا.. هذا هو ما سيحدث.

أنهى (ماجد) عبارته في وقت نهوضه وذهابه ليغلق باب القاعة وهو يكمل:

- انسَ كلَّ ما قلته لك عن ذهابك للقاهرة وقتل المماليك لتظهر للسلطان بمظهر المدافع عنه، عليك بالمكوث بيننا في (الإسكندرية)؛ لأن السلطان يستعد لقتل الأمير (بركة) في سجنه وتلفيق التهمة عليك ثم الاقتصاص منك ليشفي غليل مماليكه.

عاد للجلوس أمام (بن عرام) وهو يكمل:

- عليك بزيادة الحراسة على (بركة) ومنع أي رجل من الاقتراب منه، حياتك يا أمير تتصل بحياة سجينك، وسيتخلص السلطان من (بركة) ومنك بضربة واحدة.

- تفكيرك غريب لكنه عاقل.

- إنْ طلبَ منك السلطان الحضور للقاهرة عليك بنقل (بركة) من محبسه لمكانٍ آمنٍ حتى تعود للإسكندرية، لا تنسَ يا أمير، فحياتك على المحكّ.

***

منتصف الليل حلَّ على (ماجد) وهو جالسٌ على وسادة مريحة بإحدى قاعات داره، ما زال الحوار بينه وبين (بن عرام) يدور برأسه ويُعَاد مرارًا منذ غادر الأمير، فكَّر بأنه قد زود الحراسة الليلة على الأمير (بركة) بسجن ثغر (الإسكندرية) كما اتفق معه.. المشكلة أن قلقه الآن مُضاعَف، فهو يعلم عن المماليك الكثير لكنه ليس منهم، فهل صدقه (بن عرام)؟

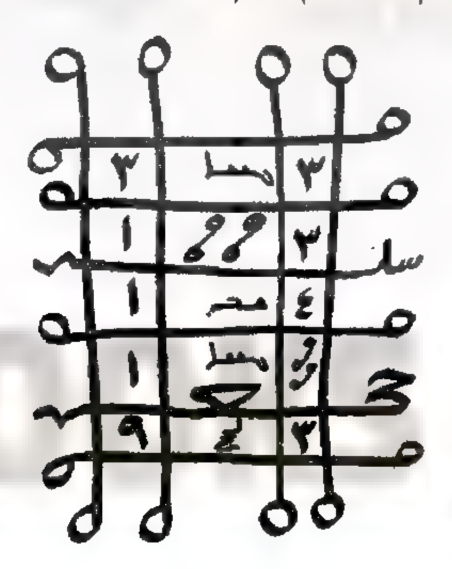
فكَّر هل يجب عليه تنفيذ ما انتوى عليهِ مُنذ أيام؟ هل سيفشل فيقبض عليه ويقتل كما قتل جده (غراب)؟ هل سيقف شقيقه الأصغر (إبراهيم) وسطَ الجموع ليشاهد إعدامه كما شاهد هو توسيط جده؟ هل سيأخذون (إبراهيم) من أمه والتي هي زوجة والده الثانية؟ أم سيقتلونه؟

الفرصة التي سنحت له هذه الأيام ربما لن يطالها مستقبلًا؛ لذا نهض متثاقلًا ووقف يتنفس ببطءٍ ليجبر نفسه على الهدوء والاتزان قبل بدء ما سيفعله.

تجرَّدَ من كامل ثيابه حتى أصبح كما ولدته أمه، ذهب لصندوق أغراضه في طرف الغرفة وأخرج منه حقيبة من

القماش الأحمر مملثمة، سحبها حتى منتصف الغرفة عند مصباح الزيت الذي اشتعل طرفه ليضيء المكان بجانب مصباح آخر معلق على الجدار.

أخرج من الحقيبة أدواته وقطعة قماش بيضاء مربعة المقياس، فضها على الأرض وأخرج دواة حبر عاملها بحرص كبير وهو يضعها على الأرض، فتحها ليظهر داخلها سائل أحمر تطفو داخله قطع صفراء تشبه حبات الأرز، تناول قلم من البوص المدبب حفر عليه طلاسم ورسومات وحروف، غمسه في الحبر الذي يسميه المداد الروحاني والذي صنعه منذ ثلاثة أيام فقط، ثم رسم بتأنٍّ على قطعة القماش طلسمًا.



ترك قلم البوص على الأرض وغمس إصبعه الإبهام في الحبر ثم رسم ثلاث دوائر على جسده، واحدة أعلى فخذه وأخرى عند موضع الطحال وأخيرة بجانب أذنه.

جلس على ركبتيه بجانب مصباح الزيت الذي يشبه مصباح شخصية (علاء الدين) الخيالية، أطفأه وأخرج فتيله، وألقاه بعيدًا، أمسك قطعة القماش المطلسمة ولفها حول نفسها حتى صارت كفتيل في هيئة قريبة من الحبل، ألقى بعض الزيت من المصباح عليها ثم أدخل طرفها في المصباح لتصبح كفتيل الشمعة.

أشعل طرفها بحرص بحجر الإشعال المنتشر في منازل مصر، أضيأت بوهج عالٍ وهو يقول بخوف:

- أقسم وأعزم عليكم أيها الجان والأعوان والخدام والمردة والشياطين والغواصين والطيارين في الهواء، وساكني الجبال والتلال والرمال والأشجار، والسبعة والسبعين فرقة منكم والجنود والعساكر والوزراء والملوك، بشلشلة القعقعان وقسمها وسرها وزجرها أن تظهر لي البيان بصوت أو همس أو حركة أو رجف.

نظر حوله مترصدًا لما سيحدث لكن الصمت بقي على حالِه. أعاد ترديد عبارته لسبع مرات.. لا علامة على شيء.

افترش الأرض على ظهرِه والحصير يضايق جسده العاري ويؤلمه، ثبَّتَ نظره على سقف الغرفة المظلمة يفكر في جدوى

ما يفعله، هل أخطأ في تلاوة القَسَم؟ ربما ما علَّمه إياه والده لا يضر ولا ينفع؟

طالت أفكاره حتى بات لا يعلم كم مضى عليه وهو في هذا الوضع، حتى سمع الأصوات.

ليست أصوات مخيفة لمن تعوَّد عليها، فهي أصوات مواء قطط خارج منزله، القطط تنتشر بشوارع مصر كلها فليس غريبًا عليه أن يسمعها في أي وقتٍ ليلَ نهار، لكنها هذه المرة أكثر قليلًا من المعتاد، مواء عنيف وأصوات غرغرة تخرجها القطط من حناجرها كأنها منزعجة من شيءٍ تراه.

أضيفت على أصواتها صوتُ كلابٍ تنبح بلا انقطاع بجنون وكأنها تهاجم شخصًا أو تخيفه، نظر لمصباح الزيت ونهض متأهبًا، سمع طَرقاتٍ على باب الغرفة، ثلاث طرقات، هل هي علامة؟

- أعطني علامة أخرى على الحضور.

قالها بعدم ثقة خوفًا من أن يكون قد تخيَّلَ ما حدثَ، اهتز ضوء اللهب واشتم رائحة عفن ملأت أنفه لدرجة وضعه يده على وجهه يسد أنفه، لو كان قد نجح فهو الآن في نقطة اللا عودة.

حافظ على استقامة ظهره وأغمض عينيه وهو يشير بيده اليمنى للمواضع التي رسمَ عليها دوائر بجسده وهو يقول:

- عال متعال في علوه بالأجناد القوية، عال متعال في علوه

بالأجناد القوية، أجيبوني من قبل حلول العذاب ووجوب النكال بالشلشلات السريانية حر.. حر.. قر.. قر.. شر.. شر، انزلوا على (بركة) الملقب بزين الدين الجوباني اليلبغاوي، انزلوا على (بركة) الملقب بزين الدين الجوباني اليلبغاوي، بالضرب والتسليط بمواضعي هذه

أحس (ماجد) بألمٍ في جسده في نفس المواضع التي يشير إليها، ولكنه أكمل:

- أين كردم أين دردم، أين عصاب، أين صاحب جبل الدخان، أين الراكب على الفيل والمتعمم بالثعبان، بتكفال بصعى كعى ميال مطيعين لك يا آل زريال، بسفح دم (بركة) وقتله في التو واللحظة..

***

في سجن ثغر (الإسكندرية) نام قائد الحرس على فرشة صغيرة بغرفة النوبة، انفتح باب الغرفة فجأة ودخل جندي يصرخ في قائده الذي استيقظ مفزوعًا وهو يشتمه بلغة قبائل الترك:

- مصيبة بعنابر الأمراء يا سيدي.

ولأن القائد كان ينام بكامل ملابسه فقد سحبَ سيفه المعلَّق، ووضعَ عمامته على رأسه في لحظاتٍ وهو يجري خارج الغرفة وأمامه الحارس حتى وصلا إلى ممرِّ سجن الأمراء المليء بزنازين الأمراء المماليك.

بعض زنازينه يطل منها الأمراء المحبوسون ينظرون إلى زنزانة بعينها بخوفٍ وهم يتكلمون هامسين، وبعضهم يقرأ القرآن، كانوا ينظرون لزنزانة الأمير زين الدين (بركة)، اقترب القائد من الزنزانة وهو يراه راقدًا على ظهره يتأوه ممسكًا بمواضع بجسده، ثم يتحوَّل التأوُّه إلى صرخاتٍ، ولأن القائد مملوكي فهو يعلم أن (بركة) لن يصرخ من ألمٍ بسيطٍ من الممكن تحمُّله، فقد تعرَّض هو وبقية المماليك لآلامٍ لا يتحملها البشر الطبيعي.

- افتح باب الزنزانة.

قالها القائد بعصبية فردَّ الجندي خائفًا:

- لربما كانت مكيدة من الأمير.

صرخ فيه القائد فأخرج الجندي المفتاح الذي يفتح كل زنازين هذا الممر ورشقه في القفل، لكن الوقت كان قد فات.

فالأمير (بركة) تلقى ضربة على جانب رأسه الأيمن من شيءٍ غير مرئي لكن صوت تحطُّم عظام جمجمته كان واضحًا، بعدها سكنَ جسد (بركة) والدماء تسيل من رأسه تصنع ببطءٍ بركةً من الدماء والقائد يصرخ في الجندي:

- اذهب لطواشي السجن، وأخبره أن يستدعي الأمير (خليل بن عرام).

***

انطفأ نار المصباح الزيتي فجأةً فنظر له (ماجد) في حيرة وهو يمسح عرق جبينه بيده، حتى أتاه صوت يخبره في أذنه:

- تم مرادك يا ابن آدم.

نظر حوله في جزع وكأنه كان يتوقع أن يرى من يحدثه، ثم هدأ غير مصدق لما سمع، ذهب لملابسه الملقاة وأعاد ارتداءها بعقلٍ خاوٍ، وصوت القطط والكلاب يتوقف في الخارج، جلس على الوسادة يلتقط أنفاسه بصعوبة ويحاول أن يفكر، لكن عقله لا يعمل، حاول التفكير في (بركة) لكن عقله يمنعه، حاول ثانية التفكير في أنه قتل شخصًا لأول مرة في حياته لكن عقله منعه.

ووسط حبات العرق التي تملأ وجهه تساقطت بضع دمعات من عينيه لكنه لم يشعر بهم وهو يمسحهم مع عرقه.

(5)

2002 م

تسمر (سليم) واقفًا ينظر إلى (بودي) الذي ما زال يداري وجهه، شعر أن الكلمات تهرب منه لكنه قال بصوت مبحوح:

- منذ متى ترى شخصًا يقف بجانبي؟

أجاب (بودي) ببساطة:

- رأيته اليوم صباحًا بجانبك يأتي ويذهب، ورأيته يحدثك أكثر من مرة يحدثك في أذنك وأنت تهز رأسك كأنك تفهمه.

نظر (سليم) ناحية (صالح) الذي لا يراه الآن وقال:

- اذهب أنت لمن ينام بالداخل وراقبه، إن استيقظ أبلغني.

أبعد (بودي) يديه تدريجيًا حتى نظر لسليم وابتسم:

- ألم تخف من هيئته يا (بودي)؟

قالها (سليم) محاولًا السيطرة على صدمته وهو يجلس على طاولة السفرة و(بودي) يجلس على مقعد بجانبه وهو يقول ببراءة:

- خفت منه في البداية، لكن عندما رأيتك تحدثه تأكدت أنه طيب، لأنك طيب.. أليس كذلك؟

تزاحمت الأفكار بعقل (سليم) عما يشاهده (بودي)، لقد وصف (صالح) بدقة، حتى حركته السريعة، هذا الصبي لا يتخيل، لكن ما الذي أكسبه هذه القدرة؟

- هل أخبرت أباك بما تراه؟

يكاد يقسم (سليم) أنه رأى الخوف في عين الصبي، خوف لم يرَ مثله عندما كان ينظر لصالح، قال (بودي):

- لن يصدقني لأنه لا يحبني، أمي كانت ستصدقني لكنك تعرف ما حدث لها.

لم يشعر (سليم) بأن الصبي كان ينصب له فخًا، فبودي توقع موتها لكنه غير متأكد، وشعر بأن عليه أن يختبر (سليم) بادعاء أنه يعلم، لذا أجاب (سليم) بتأثر.

- أعرف.. رحمها الله.

في ثانية واحدة احتقن وجه الصبي واغرورقت عيناه بالدموع، هنا فطن (سليم) للمكيدة لكنه لم يمنع نفسه من الإعجاب بعقل الصبي، ثم تذكَّر أنه عندما كان في نفس عمره لم يكن غبيًا، ومعظم الأطفال يعاملهم الكبار باستخفاف وتكون النتيجة مثلما فعله (بودي) الآن.

ربت على رأسه فانهمرت دموع الصبي الذي حاول أن يكتم صوته لكنه خرج متقطعًا، قال (سليم) بسرعة محاولًا

أن يشغل عقل الصبي وفي نفس الوقت يرضي فضوله:

- قلت لي إنك رأيت (صالح) الذي يقف بجانبي اليوم أليس كذلك؟

من وسط دموعه أجاب:

- نعم.

- ألم ترَ شيئًا غريبًا مثله؟

توقف الصبي عن البكاء وهو يستنشق مخاطه ويفكر ثم يقول:

- أمس رأيت شيئًا ما أخافني.. لكن لا أتذكره.

انتبه (سليم) هنا وهو يقول للصبي بهدوء؟

- متى رأيت هذا الشيء؟

- استيقظت أمس لأشاهد التلفزيون فسمعت صوتَ أقدامٍ تصعد على السلم، نظرت من فتحة عين الباب السحرية فوجدت شخصًا لا أعرفه يحاول الدخول لشقتكم، و...

- أكمِل ولا تخف.

- لا أتذكر سوى وجهٍ مخيفٍ ينظر لي.

قالها (بودي) وهو يهز رأسه دلالة الحيرة بينما (سليم) يتحفز بمقعده ويقول:

- هل تتذكر وجه هذا الشخص؟

- نعم.

- أتقدر على وصفه؟

- لا.

لم تتسلل الخيبة إلى (سليم) بل على العكس انتابته جملة من الأفكار حاول أن يقيم إحداها، كل أفكاره تتضمن استغلال الصبي، وفي نفس الوقت لا يقدر على تركه فهو الوحيد الذي يعلم بما حدثَ.. لم يفكر كثيرًا قبل أن يأخذ قراره.

- (بودي) هل تعلم أن أبي وأمي وإخوتي ماتوا بالأمس.

برقت عين الصبي واتسعت وهو يقول ببطءٍ:

- حتى (فاطمة)؟

لم يرد (سليم) على ما سأله وإن كان شعر بغضب يفور بأعماقه لثانية قبل أن يتحكم فيه وهو يقول:

- ما رأيك أن تساعدني مقابل أن أساعدك في أن لا ترى (صالح) أو أيًا من الأشكال المخيفة تتحرك حولك.

- لكني أرى شخصًا واحدًا، الذي يقف بجانبك.

- مع الوقت سترى آخرين، لقد فتحت رؤيتك وسترى الكثير الأيام القادمة.

لم يبدُ على (بودي) أنه يفهم كلماته و(سليم) يتنهد ناظرًا للسماء مفكرًا في شيءٍ ما يقوله لكن الصبي قال بعد أن هدأ من البكاء:

- كيف أساعدك؟

ابتسم (سليم) وقال بسرعة:

- أول شيء عدني أنك لن تخبر أحدًا عما رأيته.

- أعدك.

- ثاني شيء سأجعلك تتذكر ما حدثَ بالأمس، وبعدها سأخلصك من كل ما يخيفك، لكن أريد منك أن تنفذ ما أطلبه الآن.

لم يفكر الصبي كثيرًا وهو يهز رأسه متفهمًا وهو يقول:

- ما الذي يجب عليَّ فعله؟

- أن تسبقني لغرفة الصالون الآن، وأنا سألحق بك.

قفز الصبي قفزًا من مقعده بحماسة كأنه يستعد للعبة جديدة وكأنه نسي كلَّ ما حدث له و(سليم) يراقبه بدهشة وإعجاب حتى دخل (بودي) لغرفة الصالون المظلمة و(سليم) ينهض ويهمس:

- (صالم) احضر إن كنت تسمعني.

همس الصوت في أذنه:

- حضرت.

بنفس الصوت المنخفض قال:

- أعرف أنك تستطيع إدخال البشر في غيبوبة لفترة، أتقدر أن تحقق ذلك على (أحمد) النائم بغرفة الصبي؟

- أقدر.

- لكم من الوقت بزمننا؟

- 15 دقيقة تقل أو تزيد.

- اسمع.. أنا أحتاج لأطول فترة ممكنة لأني سأتعامل مع قرين الصبي.

قال (سليم) عبارته وهو يتجه ليغادر صالة استقبال الشقة لكن شعرَ بأن ملابسه تجذب للخلف وصوت (سالم) يقول بأذنه:

- أنت ممنوع من هذه الأشياء، والدك لم يعلمك ما يكفي.

ببرودٍ نظر (سليم) خلفه وقال:

- والدي مات إن كانت ملاحظتك جيدة، لم يبقَ إلا أنا وأنت فلا تفكر في التخلي عني.

- ستؤذي الصبي.

- لا تجادلني واذهب ونفذ الأمر ثم ساعدني في تهدئة الصبي.

أنهى عبارته واتجه إلى المطبخ.

***

جلس (بسودي) بجسده الضئيل على مقعد من مقاعد الصالون الضخمة المزخرفة وهو يتقلب في جلسته بين الثانية والأخرى بعدم راحة، وأمامه جلس (سليم) على ركبتيه والقلق يعصف بعقله لكنه يخفيه خلف ابتسامة مطمئنة.

- (بودي) سأستدعي الآن (صالم) الذي رأيته، أحتاج منك ألا تخف منه، وأن تعلم أنه يحبك ولن يؤذيك.

- لكن مظهره مخيف.

بنفس الابتسامة أجابه:

- ليس له حيلة في شكله، هو وعائلته ومن يشبهونه يحملون مظهرًا لم نتعود عليه، لكنه طيب القلب وإلا ما صادقته.

لم يبدُ على الصبي أنه اقتنع بما يسمع لكنه هزَّ رأسه بتفهم، فقال (سليم):

- والآن اهدأ تمامًا.. (صالم) احضر الآن.

رأى (بودي) جسدَ (صالم) النحيف يدخل غرفة الصالون من أحد الحوائط، يسير ببطء حتى وقف بجانبه.

- اجعله ينام بعمق.

قالها (سليم) فلمس (صالم) بيده النحيلة رأس الصبي الذي أغلقت عيناه ونام بعمق غريب، نهض (سليم) وهو يدور في الغرفة ويقول بعصبية:

- لا أريد أخطاء الآن يا (صالم)، سأستنطق قرين الصبي ثم أنسيه ما رأى حتى يعيش حياة طبيعية.

برغم أن (سليم) لم يكن يرى (صالم) إلا أنه كان ينظر لنفس النقطة بجانب الصبي النائم التي يقف فيها تقريبًا، هنا أتى صوت (صالم) واضحًا يمكن لأي شخص سماعه:

- يمكـن أن تنتظـر رجـال أرض النحاس حتـى يحضروا، هـم أعلـم منك.

- توقـف عـن تخويفـي، ربـما لـن تسـنح لي تلـك الفرصـة ثانيـة.

- يمكنني أن أستجوب قرينه بنفسي.

- لا.. أنـا أريـد القريـن في حالـة موافقـة ليمسـح ذكريـات الصبـي بعـد أن يبلغنـي بـما حـدثَ.

قالهـا وهـو يجلـس ثانيـة عـلى ركبتيـه أمـام الصبـي، رفـع يـده اليمنـى ووضعهـا عـلى جبهـة (بـودي) وقـال:

- عزمـت وأهبـت عليـك بفتـح بيننـا وبـين قرينـك، بحـق الملك الـذي نصفـه مـن ثلـج ونصفـه مـن نـار، وبحـق الملـك القاعـد عـلى الكـرسي الجديـد، وبحـق الهـواء السـابح بـين السـماء والأرض، بحـقِّ مَـن وصفـوا باللـون الأخـضر المتصرفـين بـالأرواح، وبحـق الكروبيـين الذيـن يدخلـون الحجـب ويخرجـون، في عـين بـرق إذا أبـرق ورعـد إذا أرعـد، بحـق كل عزيمـة عزمهـا مخلـوق مـن طـينٍ عـلى مخلـوق، مـن نـار أهيـا شراهيـا أهيـا شراهيـا ونحـت شروا بدموتـا عليـك إن لم تخضـع وتظهـر، شرغ في السـماء ينفـث تـإن حيق عليـك حتـى تظهـر، زجـري إليـك إن لم تحـضر بـكل أولاد الجـان مـن أولاد كاح وحمـال سـلاح وسـكان ريـاح، الغائصـين طبـاق الثـرى والطائريـن في الهـواء والسـابحين في المـاء، السـلام عليكـم يـا قريـن (عبـد الرحمـن)، يـا مـن ولـدت حـين ولـد، وبكيـت حـين

بكـى، ومشـيت حـين مشـى، احـضر أمامـي مسـتكين مسـتكين، الوحـا الوحـا العجـل العجـل الساعة السـاعة السـاعة.

انتفـض جسـد (بـودي) وتصلـب، ولكنـه مـا زال نائـمًا، فتـح فمـه لآخره ثـم أغلقـه وعـاد جسـده للاسـترخاء، أطـلَّ شيء مـا برأسـه مـن رأس الصبـي، رأس في نفس حجمـه لكـن بـلا عـين ولا أنـف، فمـه يشـبه فـم الصبـي وشـعره الأسـود الأكـرت، تحـرَّك الـرأس شِبهُ الشـفاف ينظـر يمينًـا ويسـارًا بـلا أعـين، لكـن هـذا الـرأس نظـر لصـالح الواقـف.

- أنت قرين (عبد الرحمن)؟؟

نظـر الـرأس باتجـاه (سـليم) الـذي لم يسـتطع إخفـاء فزعـه فهـو لم يجـرب بنفسـه اسـتجواب قريـن وكان الموقـف غريبًـا عليـه بـل ومرعبًـا، لم يتكلـم الـرأس فأعـاد (سـليم) السـؤال، فتكلـم الـرأس بصـوت متحـشرج وبنـبرة ليسـت قريبـة مـن صـوت الصبـي:

- أنا.

لم يفهـم (سـليم) هـل اكتفـى القريـن بتلـك الإجابـة أم هنـاك تكملـة.. مـرت لحظـات قـال بعدهـا (سـليم):

- ماذا رأيت بالأمس؟

لم يتحـرك الـرأس وظـلَّ ثابتًـا فسـمع (سـليم) صـوت (صـالح) يهمـس بأذنـه:

- اسأله بدقة أكثر عمَّا تريد لأنه لن يفهمك.

استجمع (سليم) رباطة جأشه وقال بصوت حاول أن يجعله مهيبًا:

- هل شاهدت (صابر) الذي يسكن في الشقة المقابلة لك بالأمس؟

- نعم.

قالها القرين وصمت فسأل (سليم):

- أخبرني ما الذي كان يفعله وقت أن شاهدته.

بنبرات باردة لا تحمل أي شعور بدأ القرين في رواية ما شاهده.

***

استيقظ (بودي) على أصوات تأتي من خارج غرفته، نظر حوله بريبة، ضوء النهار يدخل من النافذة، نهض وهو يمسك برأسه الذي شعرَ فيه بقليلٍ من الألم، هل يخبر والده بهذا الألم؟ لا سيلومه بالتأكيد.

نزل من على الفراش وهو يستمع لأصواتٍ تأتي من الخارج، الحقيقة أنه لا يتذكر كثيرًا مما حدثَ الأيام السابقة، هناك ذكريات متفرقة عن أن والده نام بجانبه بالأمس في الفراش، وذكرى عن (سليم) لكنها ذكرى غير ذات معنى، يتذكر أنه يجلس يشاهد التلفزيون وقد خفض الصوت كي لا يوقظ والده وصوت أقدام تأتي من خارج الشقة.

كلها ذكريات غير مترابطة وغير مفهومة، لذا فقد أبعدها عن رأسه المتألم وتوجَّه ناحية باب الغرفة يستمع لأصوات الرجال الآتية من الخارج.. تحديدًا من صالة استقبال الشقة حيث جلس (أحمد) يرحِّب بشدة بضيوفه القادمين من سَلْطَنة (عمان)، كانوا ثلاثة رجال أعمارهم بين الأربعين والخمسين، يرتدون ملابس غالية الثمن وتفوح منهم عطور قوية وترتسم على وجوههم ابتسامة محببة كأنهم تدربوا عليها أو على أقل تقدير قد تعودوا على مجاملة من حولهم.

بجانبهم يجلس (سليم) صامتًا وأكبرهم سنًا يوجِّه كلامه إلى (أحمد) قائلًا بلهجة عمانية سهلة الفهم:

- كنا نعلم أن لسليم أهلًا بمصر يحفظونه من كل شر ويقفون معه كمثل وقفتنا وأكثر.

كان الرجل مجاملًا بلا سبب وأحمد يحاول أن يرد عليه بعبارة أكثر مجاملة لكنه كان يفشل في كل مرة، ولكنه أعد ردَّه جيدًا وألقاه:

- يا (مؤيد) بيه (سليم) كولدي (عبد الرحمن) وهذا منزله ومنزلكم الذي أصبح عامرًا بوصولكم اليوم.

نظر (مؤيد) لسليم وقال:

- بمجرد اتصالكم بالأمس حجزنا تذاكر السفر وجئنا بأسرع ما مكنتنا الوسائل، كنا نعلم أنه في حماك يا سيد (أحمد) لكنه ولدنا وعلينا أن نساعده في العودة.

- للأسف يا عمي لن أعود للسلطنة، سأظل بمصر حتى أنهي ما بدأه أبي.

قالها (سليم) بلهجة عمانية أدهشت (أحمد) لأنه تعوَّد على كلام (سليم) بلهجة مصرية لن تفرقها عن أي مصري تقابله.

ضيَّق (مؤيد) عينيه وهو يلمس شاربه الضخم بيده اليمنى بحركة لا إرادية ويقول:

- ما بدأه أبوك سننهيه نحن، أم أنك تشكك فينا يا بني؟

- لا لا لا.. لكنها إرادتي.

- سنتناقش في ذلك بعد عودتك مع المغفور لهم إلى بلدنا.

قالها أحد الرجال بأدبٍ وبابتسامةٍ ودودة حقيقية فقال (سليم) بسرعة:

- أظن أننا سنبدأ إجراءات شحن الجثث من اليوم.

برغم ثقل كلمة شحن الجثث التي قالها إلا أنه لم يندم عليها، نهض بعدها (مؤيد) و(سليم) ومَن معه و(أحمد) يطلب منهم الجلوس ليقوم بضيافتهم، لكنهم أصروا على الذهاب بسليم الآن والعودة في وقت آخر إن استطاعوا.

خرجوا جميعًا من العمارة ليستقلوا سيارة مرسيدس سوداء أجَّرها (مؤيد) بمجرد وصوله وهو الذي يتولى قيادتها، الغريبة أنه طوال الطريق في السيارة لم ينطق أحدُهم سوى الوقت الذي يسأل فيه (مؤيد) باعتباره السائق على الطريق

فيجيبه (سليم) الذي حفظَ الكثير من شوارع (المعادي) بسبب تسكعه مع مصريين تعرف عليهم من قاطني منطقة (المعادي).

خرجت السيارة واتجهت إلى طريق كورنيش النيل، وبعد أقل من ساعة كان (مؤيد) يركن السيارة في أحد شوارع منطقة (الهرم) الجانبية الهادئة، خرجوا ودخلوا أحد المنازل التي تُصنّف كفيلا صغيرة تحيط بها بعض الأشجار.

الجميع يتبع خُطَى (مؤيد) الواثقة وهو يفتح الباب ويدلف داخل الفيلا التي امتلأت بحقائبهم.. من الداخل لم تكن مجهَّزَة بشكلٍ جيدٍ برغم أنها تؤجرَ كمنزل خاص مفروش لكنها نظيفة على كل حال.

جلس (مؤيد) على مقعد مريح والبقية يقفون له احترامًا، فأشار لهم بالجلوس على المقاعد والأرائك وهو يقول بجدية:

- والآن سنوزع الأدوار علينا، أنا سأظلُّ بمصر لأفهم ما حدث لصابر وأتأكد إن كان قتل أم...

قاطعه (سليم) برعونة:

- أنا الذي سأبقى.

صرخ فجأة (مؤيد):

- أجننت يا ولد.. تراجعني في كلامي، تأدَّبْ.

- هذا قراري يا عمي، مَن ماتوا هم عائلتي وهذا الشأن يخصني أنا وحدي.

قال أحد الرجال لمؤيد ملطفًا الأجواء:

- (سليم) لا يقصد إهانة، هو فقط متحمس ومشاعره هي قائدة آرائه الآن، دعونا لا ننسَ ما حدث لصابر.

هدأ (مؤيد) نوعًا ما وهو يتراجع بظهره للوراء ويداعب شاربه بيده قائلًا:

- إن كان (صابر) والدك فهو صديقي ورفيقي منذ صبانا، ولنا عهد أنت لا تفهمه، وهو يخصني مثلما يخصك، لكن تلك الأمور لن تؤخذ بحمية الشباب ورعونتهم، أنت أضعف مما تتخيل.

- لن أكون ضعيفًا بمساعدتكم.

نظر الرجال لبعضهم البعض ثم قال أحدهم:

- مساعدتك في ماذا؟ نحن لا نعرف ما حدث بعد، سنبدأ بحثنا...

أوقفه (سليم) بإشارة من يده وهو يقول:

- أنا علمت، ماتت عائلتي على يد من كان يبحث عنه والدي.

ضيّق (مؤيد) عينيه وهو يقول:

- كيف عرفت؟

- استجوبت قرينَ طفلٍ شاهدٍ ما حدث.

نهض (مؤيد) غاضبًا يردّد:

- استجويت قرينَ طفلٍ؟ هل أصابك مَسٌّ من الجنون؟

- الطفل شاهد ما حدث وفتحت رؤياه على الجان بالخطأ، وأنا أصلحت الخطأ وحجبت الذكريات التي شاهدها كي لا يجن وفي المقابل عرفت كل المعلومات.

ركل (مؤيد) المقعد المجاور له بقدمه، وبرغم كبر سنه إلا أن المقعد الثقيل تحرَّك مترًا إلى الوراء من عنف الضربة.

- اسمع أيها المتحذلق ستعود معي مكبلًا لأعيد تربيتك ثانية، أتمارس السحر على طفل وتنتظر منَّا مساعدتك.

قالها (مؤيد) وهو يصرخ فنهض (سليم) يصرخ هو الآخر والدماء تتجمع في رأسه:

- لن أعود وكلمتي نهائية، وإن كنت صادقًا في علاقتك بأبي فلي عليك حق في أن تساعدني.

صراخ (سليم) في وجه (مؤيد) أصابه بالدهشة وهو المهاب من الجميع، لم يتقبل في البداية أن يواجهه مراهق بتلك الطريقة المنفلتة، فكّر في أنه ليس مندفعًا أو متأثرًا بسبب موت عائلته، بل هذا هو طبعه الحقيقي، يعتمد على الانفجار على مراحل وإن بدأ في الصراخ فلن يتوقف.. لذا سحبَ (مؤيد) المقعد الذي ركله وجلس عليه وقال بهدوء مفتعل:

- لنفترض أني ساعدتك.. احكِ لي عن خطتك وما ستفعله.

جلس (سليم) ويداه ترتعشان بشكل غير ملحوظ وهو يسعل قليلًا ليعيد صوته لطبيعته بعد الصراخ وقال:

- لا أمتلك خطةً متكاملةً الآن، أحتاج لأن أبدأ من البداية مثلما بدأ والدي.

- قلت إن مَن قتل عائلتك هو من كان يبحث عنه والدك، ماذا إن عاد وقتلك أو على أقل تقدير كان يبحث عنك الآن.

- هذا أول طلب لي عندك قبل أن أشرح لك أي شيء.

- أي طلب؟

- أريدكم أن تحضروا قريني وتلقنوه بيانات مختلفة عني وعن عائلتي وحياتي حتى لا يتم استجوابه بدون علمي.

سأل أحد الرجال بدهشة:

- عم تتحدث؟

أكمل (مؤيد) بنفس الاستغراب:

- لا يوجد مثل هذا الشيء.

لكن (سليم) ردَّ بإصرار وهو ينظر للأرض:

- وأريد أن تعلموني أن أخاطب قريني وألقّنه ما أريده من قصص وبيانات فيما بعد لأحمي نفسي في المستقبل مِن الذي قتل عائلتي، وفي نفس الوقت لا أريد لذكرياتي الحقيقية أن تُمحَى.. ولا تحاولوا الإنكار فوالدي وأخي أخبراني بوجود تلك الطريقة وأنكم تعلمونها.

عاد (مؤيد) يداعب شاربه مفكرًا ثم قال:

- هل تعلم يا (سليم) لمَ جاء والدك لمصر؟

- ليتتبع حالات قتل سحرة مصريين ماتوا بطرق غريبة.

- إذًا لم يخبرك والدك بكل شيء.

امتقع وجه (سليم) لكن (مؤيد) أكمل ببساطة:

- لا تحاول أن تدَّعي أنك عليم بكل الأمور، فأنا أعلم أن من كان سيخلف والدك هو شقيقك (هاشم) رحمة الله والذي تدرب جيدًا على ما نفعل، أما أنت فلم تكن تستهويك طُرُقنا ولا حياتنا، وفضَّلتَ أن تتعلم القليل، وقد أحبَّكَ والِدُكَ وتركك على راحتك، لكنه لن يرضى بأن أرمي بك إلى التهلكة لأنك ترفض تصديق أن هذا الأمر أكبر منك.

خيم الصمت على الجميع و(مؤيد) ينظر لسليم يحاول قراءة تعبيرات وجهه، وهذا الأخير ينظر للأرض في نفس وضعيته الثابتة.. كم مرَّ والجميع ساكنون كالتماثيل.. ربما دقيقة أو أكثر، نظر بعدها (سليم) لمؤيد وقال بنبرة هادئة واثقة:

- لن أجبركم على شيء، ولن تجبروني بالمثل، الحقيقة التي لا جدال فيها أني سأعيش بمصر وأبدأ رحلة بحث طويلة عما كان يبحث عنه والدي ومعي الأساسيات، موتي مسألة واردة بدون مساعدتكم لكن لا اختيار أمامي فأنا أعرف طريقي، فهل تعرفون طريقكم؟

أكمل (مؤيد) تحريك أصابعه على شاربه وهو ينظر لسليم بلا كلام، بعد فترة ليست بالطويلة ابتسم وقال ببساطة:

- أرى أمامي رجلًا لا مجرد مراهق، تذكّرني بنفسي وبصابر أبيك وبكثير من الناس، تلك الطاقة التي تسري في جسدك ولا تعلم مصدرها، لكن عندي سؤال فضولي أرجو أن تجيبني عليه بصراحة، هل تشعر بالخوف؟

بلا تفكير أجاب:

- لا.. لم يبقَ عندي ما أخسره لأشعر بالخوف.

ابتسم (مؤيد) مستهزئًا وهو يتأمل بعينه سقف الفيلا ويقول كأنما يخاطب نفسه:

- حتى ولو علَّمَك والدك رحمة الله عليه لم يكن سيعلِّمك على طريقتي الخاصة.

ثم نظر لسليم في عينيه وأردف:

- بما أنني سأساعدك فيجب عليك أن تتعلم معي دروسك، وأولها أنك عليك أن تحافظ على خوفك، لو فقدتَ القدرة على الخوف ستفقد قدرتك على الحذر.. لا تتباهَ بأنك لا تخاف فمن يدعون ذلك هم أكثر أشخاص يمكن إفزاعهم وتهديدهم لأنهم يعيشون وهم القوة ويقيمون قدراتهم بأعلى من الحقيقة.

لم يعرف (سليم) أيفرح أم ينتبه لكلمات (مؤيد)، لكن هذا الأخير لم يعطه الفرصة لأنه نهض من مقعده مشيرًا للرجلين وهو يقول:

- ثبتوه على الكرسي جيدًا.

أمسكاه من كل يد بقوة و(مؤيد) يقول:

- سأنفذ لك ما تريد ولنبدأ معًا صفحة جديدة، سأغير من هوية قرينك وأبقي على هويتك، لكن احذر دائمًا مما تتمناه لأنك ستتحمل نتائج أخطائك.

اقترب منه (مؤيد) ووقف أمامه وهو يكمل كلماته:

- والمعضلة يا (سليم) أن الأخطاء في طريقنا هذا تساوي الموت أو الحياة.

(6)

1382 م - الإسكندرية - مصر

تبدَّل حالُ (ماجد) منذ أيام، يجلس شاردًا في غرفته بديوان (الإسكندرية) يتحدث العاملون تحت يده عما أصابه، يتلقى الأوامر من (القاهرة) ويشرف على تنفيذها، ينتشر عماله في كامل قاعات الديوان يعملون بنشاط خوفًا من عقابه، يقولون إنه كان صارمًا في عمله كأبيه وجده، لا يتهاون في معاقبة مخطئٍ أو ردع جبار، عيناه مسلطتان على كل الدفاتر والأوراق داخل الديوان يوميًّا فلا تفوته فائتة.

لكنَّ حالَهُ تبدَّل فجأة، أصابه الهم وزاغت عيناه وتوقف عن عقاب المخطئ مكتفيًا بلفت نظره، باختصار تبدَّل تمامًا، يقول البعض إنه تأثر بما حدثَ لابن عرام، القصة أن (بن عرام) أعلن عن موت الأمير (بركة اليلبغاوي) في محبسه ميتة طبيعية ثم أمرَ بدفنه، بعدها بثلاثة أيام حضر للإسكندرية الأمير (يوسف النوروزي الدوادار) بناء على طلب السلطان، وفتح قبر (بركة) المدفون بجانب السجن في مدافن المهمشين من المساجين.

لم يكن صعبًا الوصول لجثته والتي لاحظ فيها الأمير (يوسف) ضرباتٍ عدة بالفخذ والكلى وضربات قاتلة بالرأس، قبض على (بن عرام) وأخذه (يوسف) معه للسلطان (برقوق)، وآخر ما وصل إلى (الإسكندرية) من أخبار أن (بن عرام) وضع في خزانة الشمائل بالقلعة، وهو الموضع الذي يرتعب من ذكره المماليك، سجن مرعب مخصص للأمراء صنع خصيصًا لكسر إرادة المماليك، الأهوال التي تُحكَى عنه أصعب من أن تصدق.

فانتشرت بعض الأحاديث الجانبية لدى العاملين بالديوان بأن (ماجد) كان على صلة طيبة بابن عرام وأنه حزين لما حدث له، هذا هو التفسير الوحيد، فموت (بركة) مرَّ على عوام (الإسكندرية) مرور الكرام كما مرَّ عليهم القبض على (خليل بن عرام)، وكما يقول الناس ببَرّ مصر أن مصارع المماليك تخصهم يقول المماليك أيضًا بأن شؤون العوام للعوام، وكأن عالم المماليك والعوام لن يختلط أبدًا كي لا تنهار مصر والشام، أو هذا ما اعتقده الجميع.

أصوات خارج غرفة (ماجد) تأتي عالية لتخرجه من شروده فينهض من خلف مكتبه الصغير ليفاجأ بأحد الرجال يأتي وفي يده خادمه (حسن) الذي قال لاهثًا:

- الأمير (محمود) في دارك يا سيدي.

- (محمود)!!!!!!!!

نظر له (حسن) نظرة ذات معنى وهو يقول:

- الأمير (محمود بن الأصفر عينه).

- أتركت الدار بلا رجال؟

- أمرني الأمير بذلك ولم يقبل حتى بأن أرسل لك رسول، وهو الآن يجلس في السلاملك بقاعة المسافرين مع (إبراهيم).

لم يرتدِ (ماجد) عمامته وهو يهرول و(حسن) يحاول اللحاق به.. لحظاتٌ وكان (ماجد) يمتطي جواده من إسطبل الديوان ويلكزه بعنفٍ محاولًا الإسراع، ولأنه ليس خيالًا ولم يتعود الجري بفرسه فقد كاد يسقط أكثر من مرة من عليه ناهيك عن البلبلة التي أثارها وسط الشوارع إلى منزله والناس تهرب من حوافر الحصان العجوز.

دقائق وقد وصلَ إلى مدخل قاعة المسافرين بداره، وجد في الشارع مماليك لا عدد لهم، بملابس القتال وبالشدات العسكرية والخوذات في مشهدٍ لم يرَه من قبل إلا وحمل وراءه مصيبة، هؤلاء الجنود جاهزين للقتال حقًا لا كذب، والدليل أن اثنين منهما أشهرا في وجهه الرماح وهما ينظران لعينه بتحدٍّ كأنهما يدعوانه للاقتراب كي يقتلاه.

قبل أن يتكلم سمع صوتًا من داخل القاعة يتكلم بلهجة قبائل الترك فأبعدا السلاح عن وجه (ماجد) وأحدهما يقول بلهجة مصرية مطوطة:

- أنت (ماجد بن غراب)؟

هزَّ (ماجد) رأسه برعب فأشار له مملوكٌ آخر بالدخول من باب القاعة، ترك حصانه في الشارع بدون حتى أن يربطه، ودخل ليجد الأمير (محمود) بكامل ملابس التشريفة يجلس على أحد المقاعد يداعب (إبراهيم) وهو يعلمه نطق بعض الكلمات بلغة قبائل (القبجاق) والطفل سعيد وهو يكرر نفس الكلمات بدقة، وكأن (محمود) لم يلحظ (ماجد) إلا في تلك اللحظة وهو يمثل الدهشة حين دخوله ثم ينهض فاتحًا ذراعيه على اتساعها قائلًا:

- الحبيب ابن الحبيب ابن أعز حبيب.

لم يقترب (ماجد) كثيرًا لأنه لم يفهم سبب تلك الطريقة، المماليك لا يسلِّمون على العامة بتلك الطريقة، لكن (محمود) لم يمهله وقت للتفكير وهو يحتضنه ويربت على ظهره قائلًا:

- أنا المخطئ في عدم سؤالي عنك، لكنك تعلم انشغالي في المحروسة منذ تركت (الإسكندرية).

لم يتكلم (ماجد) مذهولًا وحاسته السادسة تخبره بأن يقلق من شيء ما، عاد (محمود) للجلوس وأجلس (إبراهيم) على قدمه يداعب شعره ويقول:

- اجلس يا بني فعندي الكثير من الذكريات لأفتحها معك.

جلس (ماجد) يحاول لمّ شتاته و(محمود) ينظر للقاعة بحنين قائلًا:

- ياااااه، أفنيت عمري في هذه القاعة أيام جدك (غراب القبطي) رحمه الله وأسكنه الفردوس الأعلى.. كان يجتمع بنا هنا ولم تكن أنت قد ولدت بعد، ولن تصدق أنه عاملني كولده (عبد الرازق) رحمه الله.

قال عبارته وهو يهز رأسه بورع، ثم نظر لماجد يقول:

- اعتذاري لك يا بني لأنني لم أعزِّك في وفاة أبيك (عبد الرازق).. عظم الله أجرك.

- غفر الله ذنبك يا أمير.

كانت تلك أول عبارة ينطقها (ماجد)، وبرغم أنه لم يقصد إلا أنها خرجت منه بنبرة اتهام، فابتسم (محمود) بخبث وقال:

- أعلم أنك غاضب مني لأني نزلت بالإسكندرية في السنوات السابقة ولم أزر دارك، لكنك تعلم أنني من أرباب السيوف، ولا أتحرك إلا في مهمات أُكلَّف بها من أستاذي أو السلطان.

هنا استطاع (ماجد) استعادة هدوئه الظاهري وهو يتأمل وجة (محمود) الذي اقترب من الخمسين في العمر وهو يقارنه بوجهه الذي رآه يوم إعدام جده (غراب)، وكلمات (عبد الرازق) والده يحذره منه أشد التحذير حتى إنه قال إنه يأمن للأفعى في حضنه ولا يأمن لمحمود في سجنه.

- حاشا لله أن أغضب منك يا أمير، فأنت بمثابة الأبّ

والسند والعزوة، بل سامحني أنت على عَدَم ترحيبي فلم يَجُلْ بخيالي أن تشرف داري المتواضعة، ووالله لو علمت بقدومك لاستقبلتك بنفسي راجلًا على باب (الإسكندرية).

عاد (ماجد) للملعب ثانية وهو يرد الجُمَل والكلمات بأحسن منها أو لنكون صادقين عادت له القدرة على نفاق أعدائه كما علَّمه أبوه، دخل من باب القاعة (حسن) بعدما سمح له الجند فقال (محمود) بسرعة:

- خادِمُك المطيع أخبرته بأن يذهب لإحضارك لكنه مانع، فأخبرته بأن دار (غراب) هي داري، وحرمته حرمتي ولكنه نسيني على ما يبدو.

أجاب (حسن) متأدبًا:

- ما عاذ الله أن تغيب طلعتك البهية عن عقلي يا مولاي، إن ضايقتك فهو حكم السن.

ضحك (محمود) ونظر لإبراهيم وهو يقول:

- مَن يقيم في داركم يتعلم الكلام المعسول.

ابتسم له الطفل بغير تعليق فوجه (محمود) كلامه إلى (حسن):

- بعد إذن صاحب الدار لي اشتياق لمشروب لم أذق في مثل حلاوته منذ انقطعت صلتي بداركم، ما رأيك يا (حسن) أن تعد لي شراب العناب بالسكر المذاب؟

ابتسم (ماجد) وقال:

- تتذكر يا أمير أن (حسن) ينقعه في الماء كل يوم ليقدِّمه لجدي وأبي.

- ومن ينسى، هل ستتحفني به؟

أشار (ماجد) برأسه لحسن الذي غادر القاعة ليدخل الدار و(محمود) يقول:

- لم أحضر ولادة (إبراهيم)، أهو شقيقك من الأم؟

- تزوج والدي بعد وفاة أمي وجاء منها بإبراهيم فأصبح كابنٍ لي.

نظر (محمود) إلى (إبراهيم) يتأمله وهو يقول:

- لَكَمْ يذكِّرني بجدك الذي هو لي بمثابة الأستاذ.

- أعرف أنك أحببته.

- بالمناسبة (إبراهيم) يتعلم اللغات سريعًا، لقد أخبرني بعض العبارات بالقبطية، أتعلمها له؟

- مجرد تسلية للطفل.

- وعلمت أنه يتعلم السريانية، لم أعلم سبب تكلُّم والدك وجدك بها.

لم يجد (ماجد) اتهامًا من حديث (محمود) لكنه كان حذرًا وهو يجيب:

- تعلُّم اللغات عادة في عائلتنا.

- أتعرف ما ينقص شقيقك في اللغات؟ أن يتعلم لغات قبائل الترك والقبجاق والجراكسة.

ضحك (ماجد) وقال بتهذيب:

- لن يحصل على أي فائدة من تلك اللغات.

- من قال؟ من تعلم لغة قوم أمن مكرهم، والمماليك سادة المكائد.

قال عبارته ومثَّل أنه تذكر شيئًا فقال:

- كدتُ أن أنسى، الأمير (خليل بن عرام) يرسل لك السلام من خزانة الشمائل.

قالها ولم يبدُ على وجهه أيُّ انفعال سوى الابتسامة التي أصبحت باردةً، حافَظَ (ماجد) على انفعالاته وقال بأسى:

- تأسفت لما أصاب الأمير (بركة) ولم ولن أصدق أن الأمير (خليل بن عرام) غدر به.

- هو أخبرني في محبسه بأنك حذرته من كل ما حدثَ.

بدأت شكوك (ماجد) تتحقق، (محمود) أتى لمصيبة وها هو يبدأ في الإعلان عنها تدريجيًّا، ابتلع (ماجد) ريقه وقال:

- في رأيي المتواضع هناك من دبر تلك المكيدة.

- على كل موت (بركة) أراح السلطان (برقوق) لأنه لن يقدر على قتل خشداشه، وما دام السلطان ارتاح فكل شيء يمكن تدبيره.

حتى الآن يشعر أن كلامه يحمل شيئًا لكنه لم يقع عليه بعد، نظر (محمود) لإبراهيم وقال بودٍّ:

- أتعرف ما هي مهنتي يا (إبراهيم)؟

- أنت أمير.

قالها الطفل فضحك (محمود) وقال:

- أنا أمير، وأخدم أمير اسمه (سودون) و(سودون) يخدم السلطان، لكن مهنتي هي شاد الدواوين، أراقبها وأراجع حسابتها، أتعلم أن (ماجد) يدير ديوان (الإسكندرية) العمومي؟

هزَّ (إبراهيم) رأسه بالموافقة فقال (محمود):

- أنا مهنتي أن أراقب (ماجد) وأراجع كل أعماله كي لا يخطئ.

قالها ونظر لماجد الذي التقط تلميحات التهديد في كلامه، دخل (حسن) في نفس الوقت حاملًا الأكواب والإبريق على صينية وضعها أمام (ماجد) الذي صبَّ الكوب الذي كان سيشرب فيه ليظهر لمحمود أن المشروب آمن، لكن هذا الأخير التقطَ الكوب الممتلئ من يده قبل أن يشربه وأخذه وهو يقول:

- أنا آمن في هذه الدار أكثر من داري.

أنهى عبارته وجرع جرعة كبيرة من الشراب وهو يتلمظ

بفمـه مستحسـنًا طعمـه، بينـما (ماجـد) يصـب لنفسـه كوبًـا سـمع (محمـود) يقـول:

- لا تنسَ أن تدعو بالرحمة لابن عرام.

تجهَّم وجه (ماجد) فجأة فأكمل (محمود):

- أخرجـه السـلطان مـن خزانـة الشـمائل بعدمـا صلبـه بالمسـامير عـلى هـودج جمـل، ثـم أرسـل بالجمـل يلـف المحروسـة حتـى وصـل إلى أتبـاع ومماليـك الأمـير (بركـة)، أتعـرف مـا فعلـوه بـه؟

قالها وتجرع جرعةً كبيرةً من الشراب مستمتعًا وقال:

- مماليـك (بركـة) أوسَـعُوه ضربًـا بالدبابيـس والسـيوف حتـى قطعـوا جسـده وهـو حـيٌّ يـصرخ، سـمعت أن بعضهـم قضـم أجـزاءً مـن جسـده غـلًا.

- رحمة الله عليه.

هزَّ (محمود) رأسه بلا معنى وهو يقول:

- السُّـلطان كلفنـي بشـكل شـخصي بمهمـة البحـث وراء مـا حـدثَ، وأنـا وعدتُـه، مـا رأيُـكَ يـا (ماجـد)؟

أنهـى عبارتـه وهـو يضـع الكـوب عـلى الطاولـة أمامـه ويكمل مداعبتـه لإبراهيـم و(ماجـد) يتجهـم وهـو يقـول بثقة:

- وأين هي المشكلة، أليست كل الأطراف سعيدة الآن؟

ضحـكَ (محمـود) بصـدقٍ وجسـده يترجـرج عـلى مقعـده ونظـرَ إلى (ماجـد) يقـول بإعجـابٍ:

- يعجبني وضوحك وتبهرني ثقتك.. الأطراف سعيدة لكن السلطان لا يعلم هل هناك خطر يتربص به من الإسكندرية أم أن كل شيء على ما يرام؟

- أعداء السلطان من المماليك.

- نعم نعم.. ونحن أدرى الناس بألاعيبنا، لكن لاعب جديد يدخل ساحة المسابقة بين المماليك سيخيفنا.. عيوني داخل سجن (الأسكندرية) أخبرتني بموت (بركة) الغريب، والسلطان هو الآخر علم بما علمت أنا به، ولا أكذب عليك إن قلت إني خائف، والسلطان أيضًا، لا أعلم بالتحديد ما حدثَ لكن أشك ولو وصل شكي للسلطان لهدمت دار (غراب) بمن فيها.

- وما سر عدم هدمها إلى الآن؟

ثبت (محمود) عينيه على (إبراهيم) وهو يقول بتأثُّر حقيقيٍّ:

- جدُّك (غراب)، أحببته وعوضني عن أبي الذي أتذكره بصعوبة.

- ما الداعي لشكك يا أمير؟

- في واقعة الإسكندرية عندما أتى جيش القبارصة هربنا جميعًا.

صدم (ماجد) لصراحة (محمود) الذي أكمل بجدية وعيناه مازالتا على (إبراهيم):

- لم يـرضَ جـدك بالهـروب وبقـي، يقـول بعـض العـوام أن جيـش القيارصـة هـرب بعـد مذبحـة شـاهدوها بـأم أعينهـم، شيء مـا يقطعهـم بـلا رحمـة ولا تمييـز، شيء مـا لم يفـرق بـين أهـل (إسـكندرية) وبـين المعتديـن.

- إنه خيال العامة يا أمير.

نظر له (محمود) بجدية وقال:

- في المحروسـة وصلـت أخبـار بـأن (غـراب) عـلى صلـة بـما حـدث.

- مَن قالها؟

سـكت (محمـود) وفي عقلـه تتشـكَّل بعـض الذكريـات سرعـان مـا أبعدهـا وهـو يسـحب شـهيقًا ويبتسـم بعـده ويقـول مبتسـمًا:

- نعـم هـو خيـال العامـة كـما قلـت، والآن عنـدي اقـتراحٌ سـينزع الخـوفَ مِـنْ قلوبنـا جميعًـا ويظَـلُّ الجميـع سـعداء.

هدأ حال (ماجد) قليلًا واستطاع الابتسام.

- أنا مصغٍ لكل ما تطلب.

- سـأتكفل بـكل أمـور (إبراهيـم) حتـى يشـب ويصبح رجلًا تفتخـر بـه وسـط أقرانه.

- نحن في حماك يا أمير وكل ما...

قاطعه (محمود) بجدية وهو يقول:

- لا يـا (ماجـد)، كلـماتي لم تصـل لعقلـك بعـد، أنـا سـآخذ

(إبراهيم) للقاهرة المحروسة، يقيم معي كأحد أبنائي، أفضل الأساتذة سيعلمونه ويدربونه على كل نواحي الحياة.

هربت الكلمات من (ماجد) ولم يتمكنن من معالجة ما قاله (محمود) الذي أكمل بحماسة:

- دعنا من الأخذ والرد في الكلام، أنت تعرف أن قراري لا رجعة فيه، وذكاؤك لا يقل عن أبيك أو جدك، أقبل وثِقْ فيَّ، واعلم أنه لولا وجودي لما بقي رجل أو امرأة يحملون اسم (غراب) على قيد الحياة.

هزَّ (ماجد) رأسه بعدم فَهمٍ وقال بخوف حقيقيٍّ:

- ستأخذ (إبراهيم) مني ومن حضن أمه لتضمن لي الحياة.

على وجه (إبراهيم) الطفل ظهرَ القلق كمرآةٍ لوجه أخيه لكنَّ (محمود) الذي شعر برعشته ربت على ظهره وهو يقول:

- (ماجد) اقبل بأفضل الأسوأ وكن عاقلًا.

بمحاولة فاشلة قال (ماجد) متظاهرًا بالثبات:

- عندي لك مقترحٌ أفضل، خذني أنا وستجدني طوع يديك حتى لو كان مصيري خزانة الشمائل، وسيسعد السلطان.

تنهد (محمود) وقال بشيء من اللين:

- إما ما قلته لك وإما لا شيء يبقى على حاله، الأمر في يدك.

- اذهب لأمّك يا (إبراهيم) وأخبرها أنني سآتي لزيارتها بعد برهة.

قفزَ (إبراهيم) من على قدم (محمود) وجرى مغادرًا القاعة وعين (ماجد) تترقرق بالدموع ويداه ترتعشان لا إراديًّا وهو يقول بدون أن ينظر لمحمود:

- أتسمع يا أمير عن قهر الرجال؟

لم يرد (محمود) ولم يكمل (ماجد)، وساد الصمت فترة لا يقطعها إلا صوت بائعين يأتي من الشوارع في الخارج، سقطت دمعة من عين (ماجد) فقال (محمود):

- (إبراهيم) أمانتي، ويعلم الله أنني بهذا أنقذك من تدبير السلطان لقتلك.

استجمع (ماجد) قوته ليقول بحسرة المغلوب على أمره:

- لن يمس (إبراهيم) بأي سوءٍ وهو بعيدٌ عني، أنا لا أتوعدك بل أقرُّ لك بأمرٍ واقعٍ لا محالة، حياة (إبراهيم) تساوي حياة الجميع.

ردَّ (محمود) بسرعة:

- رسالتك وصلت، ورسالتي لك ألا تخف واهدأ بالًا.

رفع (ماجد) عينيه لينظر بها بحقد لمحمود الذي ظهرت الشفقة على وجهه وهو يقول:

- سأتركك الآن لتعد (إبراهيم) وأذهب أنا لمقابلة رجلٍ جليلٍ سيرافقنا غدًا في مسيرتنا للقاهرة ليقابل السلطان.

لم يردّ (ماجد) فنهض (محمود) وهو يسير ناحية باب القاعة وهو يقول:

- أنت تعرف هذا الرجل وقابلته، الشيخ المبارك (ابن خلدون).. اعتبر هذا فألَ حسن يا (ماجد)

غادر (محمود) وترك (ماجد) لحسرته.

***

القاهرة المحروسة، من يحرسها وكيف؟ هكذا فكَّر (إبراهيم) الطفل الذي ركب وراء أحد الجنود على الحصان الأسود المرتفع، تجربة لم يمر بها من قبل منذ أن خرج من (الإسكندرية) بالأمس يركب خلف جندي مملوكي أوصاه (محمود) بأن يكون في عهدته.

التجربة الأولى أن ركوب الحصان مؤلم بشدة، أوجاع في فخذيه انتابته بعد بضع ساعات، وكل مرة يتوقف الموكب الذي يتكون من عشرات الأحصنة يلتقط أنفاسه لكنَّ ألَم قدميه يزداد، الأمير (محمود) على حصانه يسير بجانبه ويحدثه من وقتٍ لآخر يشرح له أسماء بعض القرى والبلدان التي يمر بها الموكب.

ومن وقتٍ لآخر يجد بعض الفلاحين يظهرون على قارعة الطريق يشاهدون الموكب صامتين أو يلوحون له وهم

يدعـون المماليـك لتنـاول الغـداء أو شرب الشـاي و(محمـود) يهـز يـده لهـم ويبتسـم رافضًـا بـأدبٍ.

كان شـخصية غريبـة في عـين الطفـل، فهـو يجمـع كل التناقضـات في وقـتٍ واحـدٍ فـلا تعـرف هـل يضحـك الآن أم يتوعـد أم يحـزن لأن تعبـيرات وجهـه تتغـير بلمـح البـصر.

وعـلى نقيـض تلـك الشـخصية كان هنـاك مسـافر معهـم عـلى حصـان يسـير في وسـط الموكـب، ومـن وقـت لآخـر يتقـدَّم بحصانـه حتـى يصـل إلى (إبراهيـم) ينظـر لـه بدهشـة وابتسـامة حانيـة، ويتجـاذب معـه أطـراف الحديـث، مسـافر يختلـف في الهيئـة والخُلـق عـن المماليـك، يرتـدي جلبابًـا أزرق وعبـاءةً سـوداء وعمامـة كبـيرة ولحيتـه مهذبـة وابتسـامته صادقـة.. تعـرَّف عليـه في الطريـق، الشـيخ (عبـد الرحمـن بـن خلـدون).

في بدايـة الرحلـة لاحـظَ (إبراهيـم) أن لهجتـه تختلـف عن لهجة أهـل مـصر، لكـن الغريـب أنهـما تبـادلا النـكات والأحاديـث المَرِحـة وشـعرَ بنـوعٍ مـن الثقـة عـلى الرغـم مـن أنَّ أخـاه حـذره مـن الجميـع قبـل السـفر، إلا أن (ابـن خلـدون) هـذا مختلـف عـن الـكل، بالطبـع سـأل الطفـل مـن وقـتٍ لآخـر عنـه وعـن حياتـه بنـوع مـن الفضـول، لكنـه لم يُطِـلْ في تلـك الأسـئلة لأن نظـرات (محمـود) الجانبيـة لـه جعلتـه يفهـم أنـه يتخطـى حـدود المسـموح.

- أتعلم يا (إبراهيم) أنني أزور المحروسة مثلك لأول مرة.

قالها (ابن خلدون) بابتسامته المريحة، فقال (إبراهيم) وهو يتشبث بملابس الجندي الذي يركب وراءه:

- أنت جئت معنا من (الإسكندرية).. لكنك من مكانٍ بعيدٍ.

- من مكانٍ بعيدٍ لكن قريب.

- لماذا أتيت؟

ضحكَ (ابن خلدون) وقال:

- لا أعلم.

- ولم تسير معنا إلى المحروسة؟

- لا أعلم، وطالما أنت أيضًا لا تعلم، فمصائر رحلتنا واحدة، لنستمتع بها مهما كانت نهايتها.

عندما وصل الركب للقاهرة لم تختلف نظرات (إبراهيم) عن نظرات (ابن خلدون)، فكلاهما يفحصان كل شيء بانبهارٍ عدا أن (إبراهيم) برغم سماعه عن المحروسة إلا أنه لم يتوقع أن تكون نمطيةً بهذا الشكل، رائحة الغبار تملأ الأجواء وسط الشوارع، أصوات الناس تداخلَتْ معَ بعضها لتصنع سيمفونية من الضوضاء أزعجته في البداية لكنه تعوَّد عليها بعد قليل واستحسنها.

وبأذنه التقط لهجة أهل (المحروسة) في الحديث، يتحدثون المصرية بسرعة غريبة ويكسرون الكلمات مع علو الصوت الذي يبرره حجم الضوضاء في شوارعها.

الغريب أن الناس هنا لا يحملون ذَرَّةً من الفضول تجاه الموكب عكس أهل (الإسكندرية) الذين سيصدمون من هؤلاء المسلحين الراكبين على الأحصنة.

لم يمر الكثير حتى خرج الموكب من أحد الأبواب وظهرت الصحراء على الأطراف حتى شاهد (إبراهيم) أسوار قلعة (صلاح الدين الأيوبي) تظهر منعزلة ضخمة قوية مقبضة، تأخر (محمود) بحصانه ليسير بجانب (إبراهيم) ويقول مشيرًا للقلعة:

- هُنا يقيم سلطان البرين والبحرين، هنا العرش والقبر.

- قبر مَن؟

نظر (محمود) حوله ثم مال برأسه ليقترب من أذنه قائلًا:

- قبر أعداء العرش.. وأنصاره.

اقترب الموكب من أحد أبواب القلعة فتوقَّف و(محمود) يتقدمهم حتى وصل إلى حراس الباب الذين حيوه بوقفة عسكرية وقرعت الطبول من مكان ما، وأحد الحراس يقول بصوت مجلجل:

- حضر الأمير (جمال الدين محمود السودوني) لمقابلة السلطان.

انفتح الباب وعين (إبراهيم) معلقة بكلمات نحتت بشكل بارز فوق الباب.

((بسم الله الرحمن الرحيم. أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة المجاورة لمحروسة القاهرة التي جمعت نفعًا وتحسينًا وسعة على من التجأ على ظِل ملكه وتحصينًا، مولانا الملك صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب محيي الدولة أمير المؤمنين على يدِ أمير مملكته ومُعِين دولته قراقوش بن عبد الله المالكي الناصري في سنة تسعة وسبعين وخمسمائة)).

اقترب (ابن خلدون) بحصانه جوار (إبراهيم) وقال:

- ندخل للقلعة معًا، ألم أقل لك إن مصائرنا واحدة.

(7)

2002

نهض (سليم) من نومه مفزوعًا، صوتُ جرس باب الشقة مزعجٌ لدرجة قاتلة، عن أيِّ شقة نتحدث؟ شقة عائلته التي احترقوا داخلها، كم مرَّ على تلك الحادثة؟؟!! أربعة أشهر تزيد أو تنقص بضعة أيام، يقيم (سليم) من وقتها في نفس الشقة بعد أن اشتراها (مؤيد) باسمه، كما أنه وبنفوذه منعَ نشر اسم (سليم) في أي جريدةٍ واكتفت الجرائد بِذِكر خبر الوفاة للعائلة بالكامل عن طريق ماس كهربي كما رجحت سلطات التحقيق الأمنية.

ستنبهر مما يمكن لمؤيد أن يفعله داخل (مصر)، لقد التحق (سليم) بالتعليم الثانوي المصري في سابقة ربما لم تحدث بتلك الطريقة السحرية من قبل، انتقل ملفه من سَلطنة (عمان) إلى (مصر) بلمح البصر، نظام التعليم المصري الصارم البيروقراطي قبل استثناءً لسليم وهي معجزة كونية لا تتحقق إلا كل مائة عام، ويبدو أن صلات (مؤيد) داخل السَّلطنة وداخل (مصر) ليس لها حدود.

صحيح أنه يدرس بنظام الثانوي المنزلي في مدرسة خاصة بمنطقة (المعادي) في عصر كانت المدارس الخاصة تعني أن طلابها غير متفوقين بالتعليم العام، لكن كل شيء على ما يرام.

صحيح أن اسم والده (صابر الحريزي) تغيَّر في الأوراق المصرية، وأصبح اسم (سليم) بالكامل هو (سليم عبد الغفار جاد الرب) وهو اسم مفتعل كما ترى لكن كل شيء على ما يرام، بالنسبة لأحمد، الساكن في الشقة المقابلة كان التفسير أن اسم (صابر الحريزي) هو اسمُ شهرةٍ لا أكثر وهو تفسيرٌ لم يبتلعه (أحمد) لكنه قبله بعد فترةٍ على اعتبار أن لكل بلد عاداتها، وتقريبًا لم يندهش أحدٌ من هذا التغيير لأن (صابر) المتوفي لم تكن له صلات بأحدٍ في مصر، ناهيك عن أن الجميع يتناسون ببساطةٍ عندما يتعودون عليك فحتى (سليم) استطاع الذوبان وسط الجميع بسهولة بالغة وخاصة بعدما اكتملت لهجته المصرية في تلك الأشهر، وصارت أقوى نطقًا حتى إنك لن تفرقها عن لهجة أي مصريٍّ آخر إلا بصعوبة بالغة.

ماذا حدثَ للجثث، نقلت للسَّلطنة لتتم مراسم الدفن بدون حضور (سليم) الذي ظلَّ بمصر بعد العدة ويهيئ حياته لما هو قادمٌ، تلاحقه الأسئلة عن إذا كان يسير في الطريق الصحيح أم هو يلهو بلا هدف؟

جرس الباب المزعج يعيد إليه وعيه غصبًا فينهض من على الأريكة التي وضعها بجانب الباب في صالة الاستقبال، تسأل نفسك لمَ ينام بهذا الموضع العجيب؟ أخبرك بأنه لم يستطع حتى الآن النوم في أي حجرة بداخل شقته، أو حتى بجانب موضع موت والده في صالة الاستقبال لذا فقد أزاح الأريكة بعيدًا.

ليس خوفًا ولا اشمئزازًا، فقد أعيد طلاء حوائط الشقة وتم تغيير الأثاث والأرضيات، لكن نفسية (سليم) عجزت عن تقبُّل موتهم مع استمرار حياته، ستندهش من أنه استطاع الابتسام ثانيةً وعاد للاشتياق لبعض الأطعمة والمشروبات، حتى هو يصاب من وقتٍ لآخر بالصدمة من نفسه عندما يكتشف أنه يشاهد مسرحية على التلفزيون ويضحك على الممثل (سعيد صالح) في (مدرسة المشاغبين) أو على (عادل إمام) في مسرحية (شاهد ماشافش حاجة).

ولكنه لم يبكِ أو يحزن من الأصل حتى تعود قدرته على الابتسام، فما حدثَ مرَّ وكأنه لم يكن.

صوتُ الجرس المزعج يلح عليه بإصرارٍ فيفتح باب الشقة ليجد (أحمد) واقفًا بملابس النوم مبتسمًا بسماجة:

- ما كل هذا النوم يا (سليم)؟

سؤال ليس له إجابة، هزَّ هو رأسه بلا معنى فأكمل (أحمد):

- هيًّا لنفطر سويًّا، (بودي) ينتظرك في الداخل.

***

دخل (سليم) لشقة (أحمد) ليجد (بودي) يجلس مبتسمًا على طاولة السفرة التي رصت عليها أطباق عامرة بالفول والجبن والبيض والخبز، (أحمد) هو الذي أعد الإفطار كعادته، وهي عادة لم يتوقف عنها منذ الحادثة، كما لم يتوقف عن إجبار (سليم) على تناول وجبة الإفطار والغداء معه هو و(بودي)، طبعًا حاول إقناعه بأن يبيت معه لكن (سليم) أصر على موقفه وإن كان فهمَ ضمنيًّا أن (أحمد) يعتبر نفسه والدهَ بشكلٍ أو بآخر.

أما (بودي) فتحوَّل هو الآخر لشقيقه الأصغر بعفوية شديدة، استبدال عائلته القديمة بأخرى جديدة مستحيل لكن (سليم) يساير الجميع وإن كان يستمتع بأنه ينتمي لهم حتى ولو دارى شعوره عن نفسه.

- عمتو (هالة) ستأتي اليوم.

قالها (بودي) فجأة والجميع يتناول الطعام كأنه يعلن عن نشرة أخبار السابعة صباحًا، فقال (أحمد) وفمه ممتلئ بلقيمات الفول:

- كدت أنسى، ماذا تريد على الغداء اليوم يا (سليم)، أراهن بأنك سعيد بأنني لن أطبخ اليوم، (هالة) تتكفل بكل شيء.

- أي شيء.

- ما رأيك في ورقة اللحم بالخضار؟

هزَّ (سليم) رأسه بتفهم فأكمل (أحمد) وهو يقشر بيضة ويعطيها لبودي:

- (هالة) ستنظف الشقة وأنا في العمل، أما زلت تصر على عدم تنظيف شقتك؟

- أنا أنظفها بنفسي.

كان (سليم) يرفض دخول أي شخص تقريبًا لشقته و(أحمد) يعلم بذلك جيدًا لكن كل مرة يعرض عليه نفس العرض كنوع من المجاملة.

- ما أخبار أستاذ (فوزي) معك؟

قالها (أحمد) فردَّد (سليم) بعين نصف مفتوحة:

- (فوزي)!!!!

- مدرس اللغة الفرنسية، ألا تحضر الدروس الخاصة معه؟

- آه.. جيد جيد.

- أتمنى يا بني أن تهتم بالدروس والمجموعات الخاصة التي تحضرها؛ فهي البديل للمدرسة كما تعلم

- آه.. جيد جيد..

قبل أن يكمل (أحمد) دار مفتاح في ريتاج باب الشقة وانفتح لتظهر (هالة) شقيقة (أحمد) والتي تمثل طنط في

كل عصر وكل زمان بملابسها الملونة ووجهها المريح الذي لا يحمل أي ملامح مميزة يمكن وصفها وحجابها التقليدي وصوتها الهادئ النائم الحاد في نفس الوقت.

- كيف حالكم يا أولاد؟

قالتها وهي تغلق خلفها باب الشقة، و(بودي) ينزل من على المقعد ويجري عليها ليحضنها وهي تقبّله على خده.. طبعًا لها نسخة من مفتاح الشقة تستخدمها وقتما أرادت وهذا ما لم يتقبله (سليم) برغم أن الموضوع لا يخصه؛ فهي ليست شقته، لكنه يرى بأن هذا المفتاح انتهاك صارخ للخصوصية، أو لنقل أنه بدأ منذ الحادثة في ضرب سور حول نفسه ليمنع أيّ أحدٍ من الاقتراب من حياته لذلك يرى الجميع متساهلين بخصوص حياتهم.

اقتربت (هالة) من (سليم) تربت على كتفه وهي تقول بحنان:

- وما أخبار عريسنا الهمام؟

مزاحها سمج ولا ردَّ عليه لكنه ابتسم وهو يقول كلامًا غير مفهوم كردٍّ.

- ألم ترتدِ ملابس الحضانة يا (بودي)، هيًّا اسبقني على غرفتك وأنا سألحق بك.

جرى (بودي) فجلست هي على الطاولة تقول بصوت خافت:

- أخبرني بسرعة يا (أحمد)، هل حدثَ الأمر ثانية؟

توقف (أحمد) عن تناوُل الطعام وهزَّ رأسه متأسيًا وهو يقول:

- تكرر نفس ما حدثَ وبشكل أوضح.

حاول (سليم) ألا يرفع نظره عن أطباق الطعام كي لا يحشر نفسه فيما لا يخصه، لكن (هالة) قالت بسرعة:

- ألم تخبر (سليم) بما حدث؟

- أخبريه أنتِ.

نظرت (هالة) لسليم وقالت بحماسة:

- (بودي) في منزلة أخيك الآن، وأنت فردٌ من العائلة ورأيك يهمنا.

مثل (سليم) الاهتمام وهو يرفع رأسه بتثاقل ناظرًا إليها وهي تقول:

- منذ عشرة أيام تهاجم الكوابيس (بودي) كل ليلة، وفي الصباح ينكر أنه حلم بأي شيء، (أحمد) لا يقبل برأيي.

- لن أعرّض الطفل لهذه الأمور.

قالها (أحمد) بحزمٍ فسأل (سليم) بقليل من الفضول:

- ما الذي أكّدَ لك أنه يمر بتلك الكوابيس؟

ردَّ (أحمد) ببساطة:

- كنت أمرُّ عليه كلَّ ليلةٍ لأطمئن عليه، حتى وجدته بإحدى الليالي يتحدث وهو نائمٌ ويبكي، أيقظته فأنكر

بخوف أنه كان يحلم، صرتُ أمرُّ عليه في الليلة الواحدة أكثر من مرة، حتى لاحظت تكرر الأمر يوميًّا.

قالت (هالة) بسرعة:

- الولد محسود يا (أحمد)، أو الأدهى أن يكون ممسوسًا، يجب أن نحضر الشيخ (حمادة) ليخرج منه الجني.

- لا أؤمن بتلك الأشياء.

- الجن مذكور في القرآن فلا تكفر يا (أحمد).

قالتها (هالة) بعصبية بينها (سليم) يسأل (أحمد):

- هل استطعت تمييز ما يقوله أثناء الكوابيس؟

- كلمات ليس لها معنى، ((قرن)) ((صالن)) أو ((صالم)) لا أعرف، بعض الأحيان ينادي على أمه لتنقذه.

لم يقدر (سليم) على مداراة ذهوله الذي تجلَّى على ملامح وجهه و(هالة) تقول وهي تشير له:

- أرأيت.. حتى (سليم) يشعر بحجم المصيبة، سأحضر الشيخ (حمادة) غدًا ليرقي الصبي، أنت لا تعرف من هو الشيخ (حمادة البتانوني) إنه ثقيل جدًّا في أمور العفاريت.

لم يردّ (أحمد) الذي غلب على أمره وكأن (هالة) هي أمُّه لا شقيقته، وأمرها سيكون نافذًا بلا مناقشة، أما (سليم) فقد ارتعد لمجرد تفكيره فيما سيحدث.

- نسيت أن أسألك يا (سليم)، ماذا تحب على الغداء؟

***

مقهى في شارع (المنيل) بالقاهرة أو لنكون أكثر دقة فنصفه كما يلقِّبه السواد الأعظم (قهوة بلدي)، بضعة مقاعد خشبية رُصَّت بلا ترتيب على رصيف بائس، يخيم الصمت على مرتاديه في هذه الساعة من اليوم، الثانية عشرة ظهرًا، وقت ينخفض فيه الزحام وتتغير فيه نوعية الزبائن ليصبحوا شبابًا وطلابًا هاربين من مدارسهم القريبة أو رجلًا ينتظر ميعادًا بتململ يشرب كوب شاي لا يكمله لمنتصفه حتى.

وسط الجالسين ترى (سليم) بقميصه الأزرق وسرواله الجينز ونحول جسده يطلع على مذكرة دراسية لمادة اللغة الإنجليزية، وبجانبه كوب عصير مانجو قارب على الانتهاء.

قلَّب في صفحات المذكرة، يمثِّل الاهتمام، حتى وصل إلى ثلاث وريقات قطعوا من جريدة حديثة، يتحدثون عن حوادث قتل لرجلين أحدهما كتب عنه أنه يعمل في مهنة علاج روحاني والثاني مهنة عادية.

أكملَ تقليب حتى وصل لورقة من مجلة حملت إعلان صغيرًا عن الروحاني (توفيق الفلكي)، كلهم يسمون نفسهم هذه الأيام بالفلكي، الإعلان عن «جلب الحبيب» و «عودة الأزواج» و»تزويج العانس»، مع وسيلة اتصال تليفونية، فكر بأنه بحث بصعوبة حتى وصل لعنوان هذا الرجل، في العمارة المقابلة للمقهى الجالس عليه الآن.

تسعة أيام يراقب تلك العمارة حتى كوَّن بعض المعلومات

غير الهامة في مجملها لكنها أتاحت له رؤية (توفيق) نفسه مرتين الذي له مكتب في الطابق الخامس لاستقبال الزبائن، مراقبة نوعية الزبائن، معرفة أنه ينهي عمله في التاسعة مساءً ويتأخر في مكتبه لوقتٍ غَيْرِ معلومٍ، حتى إنه لاحظ شابًا يتردد عليه بعد خروج آخر الزبائن، هذا الشاب أتى ثلاث مرات ومكث في الأعلى لساعتين وخرج بشكلٍ طبيعيٍّ، سأل (سليم) خادمه من الجن (صالح) إن كان رأى عليه شيئًا غير طبيعي فعلم أن لا جن يرافقه.

السؤال الأهم؛ لِمَ اهتم (سليم) بتوفيق هذا بالذات؟ الحقيقة أنه وجد ورقة واحدة من أوراق شقيقه احتفظ بها وسط دفتر قديم ومعها الأخبار المقصوصة من الجرائد، هذا الدفتر نجا من الحريق، ورقة خط عليها بعدم اهتمام اسم (عبد الفتاح الطوبجي) وتحته بخط أصغر عشرة أسماء (توفيق) هذا منهم.

أرسل (سليم) خادمه ليدخل مكتب (توفيق) ليتصنت عليه، لكنه فشل، (صالح) الجني لا يرى الشقة في الطابق الخامس، يرى موضعها فراغ لا يقدر على خرقه.

إذًا فحوائط شقة (توفيق) كُتبَ عليها نصوص مخطوط (التابوت الأسود)، سمع تلك القصة من والده عندما كان يعلمه في طفولته التعامل مع السحرة، أخبرَه بأن بعض سحرة أهل مصر توارثوا سِرَّ كتبه (أبيطوب) الملقب بأبي

الجن والـذي عاش قبـل الميـلاد بــ400 عـام في (سـيناء)، كتـب (أبيطـوب) هـذه الطلاسـم في مخطوطـة، والتـي إن وُضعَـتْ عـلى أي شيء منعـت الجـن مـن رؤيتـه إلا بإذنـه، والـده لم يـرَ مثـل هـذه الطلاسـم مـن قبـل لكنـه علَّمـه طريقـة لتفـادي هـذه الأزمـة.

واليـوم موعـدُ تطبيقِهـا، حاسـبَ القهوجـي وغـادر المقهى يعـبر الطريـق حتـى دخـل العـمارة، صعـد للطابـق الخامـس فوجـد الشـقة المفتوحـة وبجانبهـا لافتـة أنيقـة تتحـدَّث عـن مكتـب العـالم الروحـاني إلـخ إلـخ وهـذا الهـراء، دخـل بثقـة فوجدهـا مـن الداخـل أقـرب لعيـادة الطبيـب منهـا لمكتـب، الزبائـن يجلسـون عـلى المقاعـد ويقفـون بجانـب الحوائـط بصمـت حزيـن يشـاهدون تلفزيونًـا صغـيرًا معلقًـا في ركـن صالـة الاسـتقبال يعـرض فيلـمًا مـن قنـاة محليـة بـلا صـوت تقريبًـا.

جـرى ببـصره بـين الجميـع حتـى وقـع عـلى سـيكرتيرة ممتلئـة تقبـع خلـف مكتـب عتيـق.

- هل يمكن أن أحجز ميعادًا لمقابلة الشيخ (توفيق)؟

بتلقائية ناولته ورقة مطبوعة ليملأها ببياناته وهي تقول:

- كشـف مسـتعجل 800 جنيـه، كشـف عـادي 450 جنيـه، امـلأ الاسـتمارة ببيانـات المريـض، والدفـع قبـل الدخـول.

كل هـذه النقـود!! كـذا فكَّـر وهـو يخـرج الــ450 جنيـه مـن جيبـه، برغـم أنـه تحسـب لتلـك الأرقـام إلا أنـه مـا زال مندهشًـا لهـذا النصـب البـيِّن.. ناولهـا المبلـغ فقالـت مـن غـير أن تنظـر لـه:

- املأ الاستمارة واتركها، رقم كشفك هو 49.

انحنى ليكتب بيانات خيالية داخل الورقة ثم سلَّمها للسيكرتيرة وهو يقول:

- أيمكنني دخول الحمَّام؟

أشارت لرواق جانبي وهي تقول:

- آخر هذا الممر على يسارك.

خطا داخل الممر ببطءٍ مفتعل ليزيل الشُّبهة عن تعجله، لسببٍ لا يعلم أحس بأن الجميع ينظر إليه بشك، ربما أبلغت تلك السيكرتيرة (توفيق) بأن يحذر منه، توقف عند باب الحمَّام وقلقه يتصاعد وهو يحاول فتحه فيأتيه صوت من الداخل لرجل يقول:

- الحمَّام مشغول.

نظر في الأرض خجلًا وهو يضع أوراق المذكِّرة التي يحملها تحت إبطه والدم يتصاعد لرأسه لا يعرف إن كان خوفًا أم قلقًا أم خجلًا، مرت دقائق فكر فيها أنه أصبح مصدر شك الآن وتوقع أن يفتضح أمره، والمشكلة أن (سالم) ليس بجانبه فقد توقف عند باب الشقة لأنه لا يستطيع الدخول، أي أنه الآن في كمين وربما تحول من الصياد إلى الفريسة.

خرج مَن كان بالحمَّام فدخل هو مغلِقًا الباب خلفه، لم يقدر على التنفس بقوة ليهدأ، لحظة الحقيقة جاءت وحان وقت العمل، أخرج من جيبه قنينة صغيرة شفافة في حجم

زجاجة الدواء بداخلها سائل شفاف يشبه الماء لكنه في كثافة الحبر، أخرج من الجيب الآخر فرشاةَ رسمٍ رفيعة وفتح الغطاء وهو يبلل الفرشاة بالسائل الشفاف ثم يرسم على حائط الحمَّام المطل على منور العمارة الداخلي، رسم طلاسم بحذرٍ لأنه لا يراها فهو يستخدم مادة شفافة.

كان تحضير (سليم) ينصب على أن حائط الشقة امتلأ بالطلاسم، ثم وضع دهان الحوائط فيما بعد فوقها، لذلك فإن هذا الطلسم الشفاف سيفتح منفذًا لدخول (صالم) ليتصنت على (توفيق) باعتباره ساحرًا ولا يمتلك خدمة من الجان تمكنه من رؤية (صالم).

أغلق الزجاجة ووضعها في جيبه، شم رائحة عطرٍ غريب،

تبعهـا مجموعـة مـن الروائـح حتـى أصبحـت خانقـة، عندهـا سـمع صـوت (صـالم) في أذنـه يقـول صارخًـا:

- اهرب الآن، المكان تحت الهجوم.

مـن خـارج الحـمَّام سـمع جلبـة ففتـح البـاب وغـادره لـيرى الزبائـن يبسـملون وينطقـون الشـهادة وهـم ينظـرون حولهـم بفزعٍ، جـرى حتـى وصـل لمكتـب السـيكرتيرة التـي سـندت ظهرهـا لأحـد الحوائـط وعيناهـا مثبتتـان على بـاب غرفـة مكتـب (توفيـق) عـلى مـا يبـدو، نظـر هـو أيضًـا فلَـمْ يفهـم، البـاب مُغلَـق، لكـن في الثانيـة التاليـة أتـت دقـات مـن داخـل الغرفـة، يتبعهـا صرخـة نسـائية مـن الداخـل، انفتـح البـاب لتخـرج امـرأة فهـم أنهـا زبونـة كانـت مـع الشـيخ بالداخـل، خرجـت تجـري وهـي تـصرخ فجـرى النـاس ليدخلـوا الغرفـة، لكـن البـاب أُغلـق في وجوههـم بعنـف.. لكـن قبـل إغلاقـه شـاهد رجـلًا بالداخـل يقـف وسـط الغرفـة فمـه مفتـوح كأنـه يتثـاءب وعينـاه مفتوحتـان عـلى اتسـاعهما.

وسـط صرخـات النـاس وكلامهـم غـير المتناسـق سـمع صـوت (صـالم) يـصرخ حرفيًـا في أذنـه:

- المكان يمتلئ بالجن.. اهرب.

لم يفكـر وهـو يهـرب مـن بـاب الشـقة المفتـوح لكـن الأوراق التـي كان يحملهـا تحـت إبطـه وقعـت فجثـا عـلى ركبتيـه يلمهـا عـلى عجـل وصـوت صراخ (توفيـق) يـأتي معذبًـا مـن الداخـل.

نهـض وغـادر الشـقة هاربًـا حتـى تعثـر عـلى السـلم لكنـه أعـاد توازنـه، وأكمـل الهـروب المضحـك.

(8)

1382 م - القاهرة - مصر

تركوني وحيدًا، الأمير (محمود) أخذ الشيخ (ابن خلدون) معه لمقابلة السلطان ونسيني الجميع في هذا المكان العجيب، هكذا فكر (إبراهيم) ذو السبع سنوات وهو يجلس داخل القلعة بجانب بوابة خشبية ضخمة يسمع من خلفها أصوات الضجيج لصيحات، وأناس يتكلمون بلغات لم يميزها وإن ميز اللهجة المصرية بطريقة غريبة، وبجانب (إبراهيم) يقف حارس صامت متجهم الوجه تأكد (إبراهيم) أنه سيمنعه من التحرك إن فكر بذلك.

كل ما حدثَ منذ دخولهم القلعة في موكب الأمير (محمود) أن هذا الأخير أوصى الفارس الذي يقود الحصان الجالس فوقه (إبراهيم) بالتوجه إلى مكان يدعى (طبقة الصندلية) وانتظاره أمام بوابتها، انفصل الفارس بالحصان عن الموكب و(إبراهيم) يلتهم المكان بعينيه منبهرًا حتى وصل الفارس إلى مكان يشبه فندق (البنادقة) الذي يقيم به تجار مدينة (البندقية) عند حضورهم للإسكندرية، سور طويل يحيط

بمساحة مستطيلة امتلأت بالمباني المزخرفة المتلئة بالغرف، وذلك الباب الخشبي الطويل الذي وقف عنده الفارس بلا كلام وأنزل (إبراهيم) ثم وقف بجانبه كالتمثال ويده اليمنى تمسك بمقبض سيفه وهو ما زال في غمده.

ساعة أم ثلاث قد مرت!! لم يعلم ولن يعلم، لذلك فقد جلس الطفل على الأرض ليريح ساقيه المتألمة وهو يبتلع ريقه الجاف علّه يشعر بارتواء لأنه لن يطلب الماء من الجندي على كل حال.

فجأة ظهر ثلاثة فرسان في الأفق على خيولهم المدرعة يقتربون من الباب ويتوقفون عنده ينظرون للطفل بفضول، وأحدهم يصيح كأنه يخاطب البوابة الخشبية بلهجة مصرية متكسرة:

- افتح الباب، أنا (قراشا) أمير سلحدارية السلطان.

انفتح الباب بسرعة غريبة ليكمل الفارس كلامه كأنه يخاطب شخصًا يراه على الجانب الآخر من البوابة المفتوحة:

- السلطان المعظم سيأتي لزيارة الطبقة الآن.

بعد أن أنهى الفارس عبارته نظر للجندي الواقف بجانب (إبراهيم) وسأله:

- أهذا (إبراهيم) القادم من (الإسكندرية)؟

هزَّ الجندي رأسه موافقة فغادر الفارس ومَن معه مبتعدين و(إبراهيم) يقف مداريًا رهبته مما حدثَ كأنه

متهم وسيعاقب على ما لا يعرفه، لم تمر فترة زمنية طويلة حتى وجد موكبًا من عشرات الفرسان بعضهم بزيٍّ أحمر والآخر بالزي الأزرق، ووسطهم رجل بعباءة مزركشة وعمامة عريضة طويلة ملونة زينت بالمجوهرات يركب حصانًا بسرج ملون وبجانب هذا الرجل الذي تيقَّن من أنه السلطان رأى (محمود) على حصانه يسير بجانبه.

وصل الموكب إلى البوابة فخرج منها رجلٌ في الأربعين مليحُ الخلقة بعينين زرقاوين وجسد ممتلئ قليلًا يرتدي سروالًا من القماش وقميصًا من الجلد الأسود، وعلى رأسه عمامة عربية يسقط طرفها بجانب وجهه، خرج الرجل مبتسمًا وهو يحني رأسه للموكب والسلطان (برقوق) ينزل من حصانه فينزل البقية، تقدَّم السلطان حتى وصل للرجل وقال بلهجة مصرية:

- كيف حال أولادي يا (منجكي)؟

- بنعيمك يتمرغون وبحماك يلوذون يا سلطان المسلمين.

نظر السلطان لإبراهيم يتأمله في وقت طال حتى شعر هذا الأخير بالرعب.

- أنت (إبراهيم بن غراب القبطي)؟

- نعم يا مولاي.

قال عبارته وهو يرتعش حرفيًا، خاصة أن السلطان اقترب منه حتى أصبح لا يفصله عنه سوى بضعة سنتيمترات.

- جدك كان رجلًا ذا حكمة ورأي، قابلته كثيرًا وأحببته.

لم يجد (إبراهيم) ردًا يصلح فنظر للأرض ورائحة عطر السلطان المبهرة تقتحم أنفه.

- الأمير (محمود) قال عنك العجب العجاب، هل يمكنك تنفيذ أوامري إن ألقيتها على مسامعك؟

نظرَ الطفل له وقال:

- أنا طوع أمر سلطان المسلمين.

ابتسم السلطان ونظر لمحمود قائلًا:

- يتعلم في لمح البصر كما قلت يا (محمود).

أعاد النظر لإبراهيم وهو يشير للرجل الذي خرج من البوابة منذ قليلٍ:

- هذا هو أستاذك الطواشي (صندل المنجكي) أمير طبقة (الصندلية)، سيسكنك وسط المماليك وتعيش معهم حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

ثم نظر لصندل وقال:

- خذه أنت وأسكنه بنفسك وليعامل كمعاملة المماليك السلطانية.

- أمر مولاي، هل هو من أولاد الناس؟

- لا.. من أولاد البلد.

اتسعت عين (صندل) وتراجع خطوة إلى الوراء مصعوقًا فقال السلطان بحزمٍ:

- افعل ما تؤمر وستفهم لاحقًا.. والآن خُذه للداخل وأنا سأمرُّ على أولادي بنفسي.

قالها ودخل من البوابة بسرعة والموكب خلفه وهم يزيحون (صندل) جانبًا حتى تقدَّم هذا الأخير إلى (إبراهيم) وجثا على ركبتيه يسأله:

- قال السلطان أنك ابن (غراب).

- لا بل هو جدي.

- أكنت تقيم بالإسكندرية؟

- نعم.

تذكر (صندل) الاسم وهو يقول:

- جدك كان متولي الإسكندرية؟

- نعم.. وأبي (عبد الرازق) وبعده أخي (ماجد).

زادت دهشة (صندل) لكنه غيَّر ملامحه ليصير مبتسمًا وهو يقول:

- لا تخف يا بني.

- لست خائفًا.

قالها (إبراهيم) مبتسمًا فسأله (صندل):

- ما يطمئنك هكذا؟

- أخي قال لي إن كل شيء سيكون على ما يرام.

الفصل الثاني

صلاة الممسوس



(1)

2002

صعد (سليم) سلم عمارته جريًا، وأستاذ (فتحي) ينزل ببطءٍ وروية، حتى إنه اصطدم بسليم الذي لم يشأ أن يبدأ عراكًا مع الرجل الذي لا يطيقه منذ موت عائلته، فأكمل صعوده إلى أن وصل لباب شقته، فتحه ودخل يلتقط أنفاسه المتسارعة والعرق يبلل ملابسه، سمع صوت (صالح) يقول بأذنه:

- لا أحد يتتبعنا فاهدأ.

ألقى بنفسه على الأريكة وهو يخاطب الهواء بأنفاس لاهثة:

- اشرح لي ما حدثَ.

تردَّد صوت (صالح) في الشقة بشكل طبيعي وهو يقول:

- عندما فتحت لي منفذًا رأيتك ودخلت منه، لكن دخلَ ورائي المئات من الجان من قبيلة (سرخ) يحملون سيوفًا، لم يمسسني أحدهم لكنني علمت أنهم سيؤذون أحدهم.

- (سرخ)!!! لم يمر هذا الاسم بذهني من قبل.

- ولن يمر، هي قبيلة تخدم رجال التصوف وغير مؤذية في طبعها، كان لهم مراقبون يقفون حول الشقة لم أشك فيهم واعتقدت أنك يتبعون رجلًا صوفيًّا قريبًا، عند فتح المنفذ اختفوا وحضر مكانهم المهاجمين.

يكشف يده مسح (سليم) العرق من على جبينه وعينيه تزوغ في اللامكان، حتى عاد صوت (صالم) يقول:

- استنتاجك خاطئ.

- اسمعه الأول واحكم، مَن جاء يبحث عنه والدي وشقيقي هو شخص يقتل السحرة بطول محافظات مصر، و(بودي) وصفَ قاتل عائلتي بأنه في نهاية المراهقة وبداية الشباب، وأنت رأيت معي هذا الشاب الذي داومَ لي زيارة (توفيق) ومكتبه، هؤلاء الجان يخدمون هذا الشاب وهو القاتل.

- لا.. مراقبين (سرخ) كانوا بالقرب من الشقة وقت دخول الشاب وخروجه ولم يتفاعلوا معه، وأنا استجويت قرينه وعلمت أنه لا يتعامل مع الجان، هذا الشاب نظيف تمامًا.

- ماذا كان اسمه؟

- (مالك سعيد غراب) طالب يدرس في كلية.

- وما أدراك أنه لا يزيِّف حياته مثلما فعلت أنا مع قريني؟

خيم الصمت على الشقة حتى قال (سليم):

- أتحمل بصمته ليمكنني البحث وراءه؟

- أحملها لكن لن تفيدك فليس هو قاتلنا اليوم.

- أمات (توفيق)؟

- بطريقة مختلفة عن البقية قليلًا.

أغمض (سليم) عينيه وهو يقول:

- من انتظر ليتم فتح منفذ للدخول لتوفيق، ومن قتل (توفيق) اليوم!!

- يمكن لك التواصل مع صاحب الغرفة النحاسية.

فتح (سليم) عينه بسرعة وهو يصرخ:

- لا.

- لا تنسَ أنه منَّا حتى وإن أنكرَ ذلك.

- أبي حذَّرَني من (عباد) سيد الغرفة النحاسية.

- لكن (عباد) هذا من الممكن أن يكون قد رصدَ كلَّ شيء منذ مقتل السحرة.

- سيمنعني من إكمال مهمـ...

قطع حديثه وهو يسمع دقات على باب الشقة، يعرف صاحبها جيدًا من درجة صوت الدقة، نهض ليفتح الباب، وجدَ (بودي) واقفًا بملابس الحضانة ينظر لشقته ثم ينظر له وهو يقول:

- أريدك في موضوع هام.

- سألحق بك بعد قليل.

- عمتو (هالة) في الشقة الآن، ولا أريد أن تسمعنا.

أشار له (سليم) ليدخل وأغلق الباب، اختار (بودي) مقعدًا يبعد عن الأريكة قليلًا وجلس عليه بعد أن خلع حقيبة ظهره الصغيرة ووضعها أرضًا، جلس (سليم) على الأريكة ينظر له بشك و(بودي) يقول:

- (سليم) أنقذني.

- وضح كلامك!!

- سمعتكم أمس وأنا أبدِّل ثيابي بغرفتي، كنتم تتحدثون عن كوابيسي، وعمتو (هالة) قالت إنها ستحضر رجلًا ليراني اليوم.

أراح (سليم) ظهره وهو يقول بحذرٍ:

- ما هي الكوابيس التي تراها وتخيفك بهذا الشكل؟

نظر (بودي) للأرض وقال بخجل:

- منذ وقت تذكرت ما كنت قد نسيته.

انتفض جسد (سليم) من الداخل لكنه حافظ على هدوئه من الخارج و(بودي) يكمل كلامه:

- أنتَ الوحيد الذي يفهمني، أرجوك امنع عمتو (هالة) مما ستفعله.

- ما الذي تتذكره؟

- كل شيء.

انفلتت أعصاب (سليم) وهو يصرخ فيه:

- أجب يا (عبد الرحمن) بالله عليك، ما الذي تتذكره؟؟؟!!!!!!!

منع الصبي نفسه من البكاء وهو يقول:

- عمو (سالم) صديقك... و... وشخص يشبهني بلا وجه كنت تخاطبه بأنه قريني في تلك الليلة.

شهق (سليم) دهشة و(بودي) يقول بسرعة كأنه شعر بالخطأ مما قاله:

- والله العظيم لن أخبر أحدًا بما رأيت لأنهم لن يصدقوني، لكن أنا خائف من الرجل الذي سيأتي الليلة أن يريني ما حدث ثانية.

دفن (سليم) رأسه في كفه ندمًا وهو يخاطب نفسه:

- ما الذي فعلته في هذا البائس؟

- هل ستساعدني؟

نظر له (سليم) وقال بلطف:

- هل تخبئ عليَّ شيئًا آخر.

- لا.

نطقها (بودي) لكنه عاد يقول بسرعة:

- نعم أخبي.

تبع كلماته بأن رفع يده للسقف مشيرًا بإصبعه فلم يفهمه (سليم) وهو يكمل إشاره بإصبعه في اتجاهات مختلفة في الشقة حتى سمع (سليم) صوت (صالم) يردِّد في أذنه:

- الصبي يشير لمواضع عمار المكان من الجان.

في نفس الوقت تقريبًا أشار بأصبعه ناحية (صالم).

- أتسمع أصواتًا؟

- بعض الأحيان أسمعهم يتحدثون ولا أفهمهم في الغالب.

تنفس (سليم) ليهدأ وهو يقول:

- أين تراهم في غير هذه المواضع؟

- أحيانًا في الشارع وأحيانًا في المدرسة، وفي أحيانٍ أخرى لا أرى شيئًا.

وقف (سليم) غاضبًا من نفسه يتحرك في الشقة ذهابًا وإيابًا كالقط المتحفز.

- آسف لو كنت أخطأت.

نطق (بودي) بتلك العبارة بحرج فنظر له (سليم) وقال حزينًا:

- أنت لم تخطئ، أنا الغبي الذي لا أتقن شيئًا.

قال (صالم) في أذنه:

- أغلق الرؤية للصبي.

- لا لا لا.. لا تفعل شيئًا ثانية، أنا لن أتكلم.

صرخ (بودي) بعبارته رافعًا يدَهُ أمامه متوسلًا فردَّ (سليم) بسرعة وهو يقترب منه:

- لا تخف لن أجبرك على شيئًا ما ثانية.

عاد (سليم) ليجلس وهو يقول بتأثر:

- لكنك ترى ما لن تفهمه، دعني أريحك من هذا العذاب.

- أرجوك لا.

- لنعقد اتفاقًا، سأتصرف مع الرجل الذي سيأتي اليوم ولن يقترب منك، وأنت بالمقابل تعطيني فرصة أخيرة لأمنع عنك ما تراه.

فكر الصبي للحظات قبل أن يقول:

- هل يمكن أن أزيد طلبًا على الاتفاق؟

- قل.

- والله والله لن أفشي أيَّ شيءٍ تقوله لي.

- لم أفهمك!!!!!!

- أريدك أن تجاوبني على أي سؤال أسأله.

ابتسم (سليم) بطرف شفتيه وهو يقول:

- أتريد سؤالي عما ترى؟ عن الجن؟

- نعم.. وأسئلة أخرى فيها بعد.

اكتملت ابتسامة (سليم) وهو يقف ثانيةً ويمد يدَهُ أمامه قائلًا:

- اتفقنا، لكن إن أخبرت أيَّ شخصٍ ستفقد الاتفاق، وسأعلم.

قفز (بودي) من مقعده ورفع يده يصافح (سليم) وهو يضحك ويقول:

- عمو (صالح) سيخبرك.. أعلم.. اتفقنا.

- والآن عد لكرسيك ولا تخش شيئًا.

- ماذا ستفعل؟

- سأغلق رؤيتك للجان.

- سأقرأ بعض الأشياء لأمنع عقلك من ترجمة الإشارات التي تأتي من عينيك وتتضمن أيَّ جني، هل فهمت؟

- لا.

ضحك (سليم) وهو يضع يده على رأس (بودي) ويجلسه على المقعد ثم يبدأ القراءة.

***

- تفضل يا شيخ (حمادة) نورت الدنيا.

قالتها (هالة) وهي تقف على باب الشقة تستقبل الشيخ (حمادة) الذي كان رجلًا في العقد الخامس من العمر بشارب منمق وشعر ناعم مصبوغ بالأسود وجسد نحيل وعيون بارزة في وجه امتلأ بالتجاعيد، أشارت له والفرحة تطل

من عينيها ناحية غرفة الصالون فاتجه لها وهو ينظر حوله بتفحص بعينيه كل ركن في طريقه.

دخل الصالون فوجد (أحمد) واقفًا يصافحه وبجانبه (بودي) و(سليم) الذي نظر بشك له وقد فهم نقطتين، الأولى أن (حمادة) هذا يمتلك هيبة تزرع التوجس في نفس من تقع عليه عيناه، والنقطة الثانية أن (صالح) أخبره بأنه استجوب قرينه والرجل مجرد نصاب لم ير جني في حياته.

بوجه صارم تفحص (حمادة) وجوه الحاضرين حتى التقت عيناه بعيني (سليم) فضيقها قليلًا وهو يجلس على أحد المقاعد بدون أن يدعوه أحد، دخلت (هالة) تحمل صينية كاسات زجاجية امتلأت بمشروب البيبسي الذي جهزته من قبل ووضعت الصينية على الطاولة وسط الغرفة وهي تجلس بسعادة على مقعد قريب من الشيخ الذي قال بجدية يمثلها جيدًا:

- كيف الأحوال يا ست (هالة)؟

- الحمد لله.

- وحال (أم مروة)، هل تخلصت من مشاكلها؟

نظرت (هالة) لأحمد وقالت بفخر:

- (أم مروة) جارتي قامت حماتها سامحها الله بعمل سحر سفلي لها لتوقع بينها وبين (أبو مروة)، والحمد لله الشيخ (حمادة) تخلص منه

نظر (حمادة) فجأة لسليم وبرق عينيه بحركة تمثيلية وهو يشير ناحيته ويقول:

- أنت.. يتلبسك مارد سفلي شديد لكن لا تظهر عليك أعراض، في وقت آخر سنعالجك.

فهم (سليم) مدلول ما قاله، هو يريد تحييده لأنه يشك به ولا يريد للشك أن يعدي الآخرين، وهذا ما كان يحضره (سليم) حتى ولو لم يتكلم (حمادة):

- شيخ (حمادة) أعاني من أعراضٍ لم أقصها على أحد منذ مقتل عائلتي، أرى أناسًا يتحركون في شقتي ليل نهار، وأصوات تحدثني ليل نهار، هل يمكن أن تكشف عليّ في البداية.

قال (سليم) تلك العبارة لتتوزع الدهشة على الجميع بما فيهم (حمادة) نفسه الذي انشرحت أساريره ولم يدارِ السعادة المرتسمة على وجهه وهو يقول بثقة:

- سأنتهي من حالة (عبد الرحمن) وأتفرغ لك.

قال (سليم) بخجل مصطنع:

- أتمنى أن تبدأ بي ولا يجالسنا أحدٌ.. هناك أشياء أخجل من طرحها أمام الجميع.

بنوع من الارتباك قال (أحمد):

- لا مشكلة، نغادر نحن الصالون.

تبـع قولـه بوقوفـه ممسـكًا بيـد (بـودي) و(هالـة) تقـول بعـدم اقتنـاع:

- لم نسمع رأيَ الشيخ بعد.

أخـذ (حمـادة) يحـرك شـفتيه متمتـمًا بكلـمات غـير مسـموعة وعينـاه تتسـعان قليـلًا، توقـف فجـأة وقـال باطمئنـان:

- غادروا أنتم واتركوني مع الشاب.

نفـذوا مـا أمرهـم بـه وأغلقـت (هالـة) بـاب الغرفـة وراءهـا، تبـادل الاثنـان النظـرات و(حمـادة) يمثـل التمتمـة مثبتًـا عينيـه الواسـعتين في عينـي (سـليم) المرتخيتـين والـذي قـال بعـد برهـة مـن الوقـت:

- بعـد أن ننهـي مـا سـيحدث في الغرفـة سـتخرج وتخبرهـم بـأني كنـت ممسوسًـا مـن الجـن لأنـني بكيـت كثـيرًا وحيـدًا، وأنك حللـت كل شيء، وسـتمثل مـا تفعلـه مـع (بـودي) وتقـول بـأن الصبـي لا يعـاني شـيئًا وأنـه ربـما يـرى بعـض الكوابيـس بسـبب اشـتياقه لأمـه.

اهتـزت ثقـة (حمـادة) قليـلًا، ولكنـه أكمـل التمتمـة بشـفتيه فنهـض (سـليم) وهـو يكمـل حديثـه:

- والآن سـترى مـا لم تـرَه عينـاك مـن قبـل، فالـزم الهـدوء ولا تفـزع كـي لا تضيـع هيبتـك التـي صنعتهـا.

اقـترب (سـليم) منـه حتـى صـار واقفًـا أمـام مقعـده وقـال بصـوت هامـس:

- أنت تمثل طبقة دونية من النصابين لذلك لكن أثق بذكائك وقدرة تحملك عندما ترى طيفًا من العالم الحقيقي الذي تدعي معرفتك به.

على أحد مقاعد الغرفة تشكل دخان يدور في حلقات دائرية كأنها الدوامة، حتى زادت كثافته وتشكل على هيئة رجلٍ نحيلٍ يجلس على المقعد، رجل عاري يغلب اللون الأحمر على لون جلده المتشقق، رجل بعينين مشقوقتين كالقطط وفم كفم الخنزير ويدين بأصابع طويلة.

ارتجف (حمادة) في مقعده وكاد يصرخ رعبًا لكن (سليم) كتم فمه بيده اليسرى وهو يشير بيده للجني الجالس على المقعد ويقول:

- رجل من الجن يعلم عنك وعن عائلتك، لا أحتاج إلى شرح ما سيفعله بك إن عصيت أوامري، هل تفهم؟

الغريب أن (حمادة) أغمض عينيه وهز رأسه بسرعة بالموافقة وهو يئن.

- سأبعد يدي عن فمك فلا تصرخ.

تبع كلماته بإبعاد يده و(حمادة) ما زال مُغمَض العينين يقول بتوسل:

- أرجوك اجعله يرحل.

لأول مرة يشعر (سليم) بالقوة تتسلل لقلبه وهو الذي

مـا انفـك يـرى إخفاقاتـه طـوال الفـترة السـابقة، شـعور لذيـذ وشـهوة مشـتعلة تمـلأ نفسـه وجسـده.

- سـيرحل.. لكـن لا تنـسَ مـا اتفقنـا عليـه، ووعـدي لـك بـأن لا أقربـك طالمـا لم تفـش مـا حـدث الآن لأي شـخص.

هـزَّ (حمـادة) رأسـه بالموافقـة وأنفاسـه تتسـارع و(سـليم) ينظـر لصالح ويبتسـم.

(2)

1382 م - القاهرة - مصر

فيما بعد عرف (إبراهيم) أين يقيم وماذا يحدث، مصدر معلوماته هو الطواشي (صندل)، علم أن للسلطان مماليك يشتريهم من تجار العبيد الذين يأتون بهم من قبائل متفرقة من بلاد (القبجاق) والتي بطبيعة الحال لم يفهم موقعها، قبائل بجانب بحر قزوين أو أحواض الأنهار المختلفة تختلف لغاتها لكن المماليك يقسمونهم إلى (الأتراك) و(الشراكسة) كعنصرين أساسين.

يأتون بهم أطفالًا بين السابعة والعاشرة ليقيموا في طباق القلعة، وهي منشآت بجانب بعضها تسمى الواحدة منها باسم مميز، كالمكان الذي يقيم فيه (إبراهيم) الآن وهي (طبقة الصندلية) وقد سميت باسم الطواشي الذي يديرها، طبعًا لا تلتزم كل طبقة باسم طواشيها، فبجانبهم طبقة (المقدم) وطبقة (المستجدة) وطبقة (الأربعين) إلخ إلخ.. فأسماؤها تأتي على هوى السلطان الحاكم في وقته ولا تخضع لنظام تسمية محدد.

- من أين أتيت يا أستاذي؟!!

ألقى (إبراهيم) بسؤاله على (صندل) في إحدى الليالي فابتسم له هذا الأخير مجيبًا:

- أعرف بما يعتمل بذهنك، أنا لست مملوكيًّا كمثل البقية، فأنا من بلاد الروم ومهنتي هي الخدمة، أتوا بي طفلًا وفعلوا بي ما لن تفهمه لأكون خادمًا مخلصًا، وتدرجت من طواشي يمسح غرف الطبقة إلى أن صرت مسؤولًا عنها.

شغلت بال (إبراهيم) معرفة ما فعلَ بصندل في طفولته لكنه نسي الأمر بعد قليل وهو يتعرف أكثر بما حوله، في البداية لاحظ أن الطبقة من الداخل تتكون من مبنى إداري به المطبخ، والحمَّامات، ومخازن الكسوة والغلال والسلاح، وقاعات تدريس وتدريب، وغرف نوم عشرات من الطواشية من خدام الطبقة، وبقية المباني ذات ثلاثة طوابق تمتلئ بالغرف المتراصة تتسع كل غرفة لنوم أربعة مماليك على الأرض.. في إحدى المرات حاول عد الغرف لأنه تعلَّم حساب الأرقام من أخيه لكنه وصل إلى عد 800 غرفة ثم اكتفى عندما مل.

كل طبقة كما علم يسكن بها جنس واحد من المماليك، كطبقته التي يسكن بها المماليك الآتين من قبائل الترك والذين يسكن أصغرهم في الطابق الأخير من المباني بينما الأكبر سنًا من تخطوا مراحل الدراسة يسكنون في الطوابق السفلى.

كل يوم يصحو (إبراهيم) بعد الشروق عند سماع بوق منغم متقطع، ثم يفتح الطواشية الصغار المسؤولين عن طابقه الغرف وهم يصرخون ((نوبة صحيان))، صراخهم أشدّ إزعاجًا من البوق المتقطع و(إبراهيم) ينهض ليقف مع رفاقه أمام الغرف والطواشيه تأخذهم قطعانًا للحمَّامات التي بنيت على شكل غرفٍ صغيرةٍ منفصلة يدخل كلُّ طفلٍ في غرفة يخلع رداءه الكتاني ذا القطعتين ويلقيه في سلة، ثم يغتسل ويرتدي واحدًا آخر يتسلمه قبل دخوله الحمَّام، أرديتهم كلها مقاس واحد لكنها زودت بحبال صغيرة يربطها المملوك ليناسب الرداء حجمه.

بعدها يجتمع مئات المماليك من كل الطوابق في ساحة الطبقة يؤدون صلاة الصبح خلف (صندل المنجكي) مع ما لاحظه (إبراهيم) من أنَّ مَن كانوا في مثل عمره لا يجيدون الصلاة ولا يفهمونها من الأساس بل يؤدي بعضهم الحركات مقلدًا من حوله والبعض الآخر يتلكأ.

بعد الصلاة يستلمون جراية الطعام في أطباق من المطبخ وهي إما طبق فول وقطعة خبز عليها قالب جبنة أو ما يشابهها، ثم يأتي الشيخ (عبد الغفار التوني) وهو رجلُ دينٍ من الصعيد ما زال يتحدث بلهجته الصعيدية في بعض الأوقات لكن كل الأوقات يحافظ على لغة عربية فصحى، يدرِّس لهم الحروف العربية والقراءة والكتابة وهم يجلسون

بساحة الطبقة الداخلية، ثم يأتي الشيخ (عزيز) ليحفظهم القرآن ويدرِّبهم على الصلاة وبعض أساسيات الدين، ثم الشيخ (فاروق) الذي يدربهم على الحساب والتعامل مع الأرقام ورسم الخطوط العربية.

كلهم معلمون مصريون وجميعهم لاحظوا (إبراهيم) وسألوه عن جنسيته، ومن علم منهم أنه مصري أخذ يستغفر الله ثم يسأل أحد طواشية الخدمة الذي يهمس له في أذنه بضع كلمات فيخرسون من بعدها لكنهم يعاملونه بنوع من الشفقة والحنان.

وطبعًا كان (إبراهيم) أكثر الجميع تفوقًا لأنه درس كل ما يعلمونه من قبل في الكتاب وعلى يد أخيه؛ لذلك كان من ضمن الجالسين في الصفوف الأولى في كل الدروس وتلك الصفوف للمتفوقين الذين سيتم فرزهم لاحقًا ليعملوا بالمناصب الإدارية في الدولة.

بعد كل تلك الدروس يأخذون راحةً مع جراية الغداء المشتملة على الأرز أو الخبز وطبق خضار يلقى فيه قطعة لحم مرتين أسبوعيًا، يتناولون كلَّ هذا في غرفهم ويسلمون الصحون الفارغة في المطبخ مستعدين للصلاة ثم يأتي دورَ الأمير المملوكي (جاركس المصارع) ليحاضرهم أطول محاضرة بطريقة غريبة لكنها أمتعت (إبراهيم)، يقول كل عبارة بلغتين من لغة قبائل الترك ثم يترجمها إلى العربية الفصحى ليفهم

الأطفال بلغاتهم ويتعلمون العربية، وما حدث مع (إبراهيم) كان العكس عندما التقط الكثير من اللغات الأخرى.

- انسَ أباك وأمك وإخوتك، أنت الآن في مصر أم الدنيا.

يرددها بمختلف اللغات فيظهر الحزن على بعض السامعين لكنه يكمل وهو يغير تعبيرات وجهه ليكسبهم الحماسة:

- أنت مملوك سيغار منك الجميع حين تنضج، ستحكم بقاع الأرض وتتنعم بما لم تحلم به.

كلمات تلهب مشاعر البعض ولا تؤثر في الآخرين.

- فلينظر كلٌّ منكم إلى من يجاوره.

ينظر الأطفال بعضهم إلى بعض ويضحكون فيقول (جركس) بملابسه العسكرية التي تكسبه الهيبة والوقار:

- أنت خشداش لزميلك، تجمع بينكم الخشداشية حتى الموت.

يضحك بعض الأطفال فيكمل (جركس):

- الخشداش ينجد خشداشه في المحن، يحمي ظهره، يحفظ سره، هو أقرب إليك من أخيك، خشداشك الذي تربى معك في طبقتك ولا علاقة أقوى من الخشداشية إلا الأستاذية.

تتعلق به العيون الحالمة فيسير بينهم ملوحًا بيديه ليزيد قوة شرحه:

- أنا أستاذ لماليكي التي أملكها، وكلُّ من ملك المماليك منّا يصير أستاذًا، لكنني لستُ أستاذكم.. أستاذكم الأكبر هو السلطان (برقوق)، وأنتم المماليك السلطانية، السلطان القادم سيخرج منكم، علاقتكم بأستاذكم أقوى من أي علاقة إنسانية، أستاذك أحب إليك من خشداشك، أحب إليك من زوجتك وولدك، تفديه بحياتك ومالك ودنياك.

تتعالى الأصوات ثانية بلغات مختلفة يفهمها (جاركس) ويعلم أن الأطفال يستهينون بالكلمات التي تمر بعضها على رؤوسهم مرور الكرام، يشبك يده خلف ظهره وهو يصرخ فيهم:

- قفوا متنبهين.

يطيع البعض ويتمايل البعض، يزيد صراخه حتى تهتز له الطبقة كلها:

- قلت قفوا متنبهين وأيديكم بجانبكم.

تشتد ظهور الأطفال وتنتصب تطيع الأمر فيكمل المسير بينهم وهو يقول:

- أنتم المماليك المصرية، من اليوم تتمايل حياتكم بين الثواب والعقاب، بين الألم والراحة، بين الموت والحياة، كمملوك إما أن تطيع معلميك فتحيا بشرفك وإما أن تعصي فتموت بعارك.

***

- (إبراهيم بن غراب).

هتف طواشي الخدمة الواقف بعيدًا بالاسم وسط درس الحساب للمماليك الصغار فوقف الصبي متنبهًا والشيخ (فاروق) يسأل بعصبية:

- من يطلب المملوك؟

- الطواشي (صندل) بنفسه.

اخترق (إبراهيم) صفوف الأطفال الجالسين حتى وصل لطواشي الخدمة الذي خطا بسرعة والصبي يتبعه بمشية آلية شبه عسكرية تعوّد عليها بعد قضاء أربعة أشهر داخل الطبقة، وصلوا إلى قاعات الإدارة والتي لم يدخلها من قبل ومنها إلى قاعة وقف (صندل) ببابها مبتسمًا، ربّت على رأس الصبي وقال:

- الجميع سعداء من تقدُّمك، حتى إن السلطان بنفسه سمحَ بما لم ولن يحدث داخل الطباق.

هدأ الصبي قليلًا لكنه انتظر ليعلم إن كان خيرًا أم شرًا.

- اليوم يا (إبراهيم) ستقابل أهلك، فكن رجلًا ولا تبكِ.

هز (إبراهيم) رأسه بحركة آلية، فاصطحبه (صندل) لداخل القاعة التي وجد بها (ماجد) جالسًا مهمومًا ينظر للأرض بانكسار وبجانبه الأمير (محمود) وفي أقصى القاعة أمه في ملابس زرقاء تغطي وجهها، عرفها من ملابسها ثم من لهفتها وهي تجري عليه كاشفة وجهها لتحتضنه وتقبّله في

كل جزء استطاعت الوصول له، نهض (محمود) وهو يقول:

- سنعود مرة أخرى.

غادر القاعة هو و(صندل) بينما (ماجد) يحدّق حزينًا بأخيه المتصلب وأمه تمسح على وجهه وشعره بيده تسأله عن أحواله وهو يجيب عليها بفتور، فكَّر (ماجد) أن أخاه الأصغر فقدَ شيئًا ما، ربما عاطفته، ربما آدميته، سحبَ (إبراهيم) من حضن أمه برفق يتأمله ويقول:

- كيف هي أحوالك؟

- بخير.

- سعيد أم حزين؟

- أنا سعيد.

أخرجت الأم كيسًا من القماش المخملي فضّته وأخرجت منه حلوى الحمصية والعسلية التي تعوَّد (إبراهيم) على طلبها عندما كان في كنفها، لكنه نظرَ للحلوى صامتًا بعيون زجاجية لا تحمل تعبيرًا.

- خُذْهَا يا حبيبي، لقد أحضرتها لك من (الإسكندرية) من عم (تقي) الذي يبيعها لك.. ألا تتذكره!!

قالتها الأم بحنان لكن الصبي حرَّك نظراته بينها وبين (ماجد) الذي قال محاولًا الابتسام:

- لا تخف.

- لم أعد خائفًا.

- سأعمل على إخراجك من هنا.

- لا ترهق نفسك.

- هل تكرهني؟

هزَّ (إبراهيم) رأسه نفيًا.

- أنا أكره نفسي، بسببي دخلت للطباق.

فكَّر (إبراهيم) للحظة ثم أجاب:

- لكني سعيد هنا، سأصير مملوكًا.

احمرَّ وجهُ (ماجد) وهو يجز على أسنانه ويقول:

- أنت لست مملوكًا لأحدٍ، أنت حُرٌّ.

صوت سعال مصطنع من (محمود) يتردَّد من خارج القاعة، أشار (ماجد) للصبي وأمه بالابتعاد قليلًا وهو يغادر القاعة ليقف بجانب (محمود):

- من بالداخل يا أمير (محمود) ليس شقيقي.

ابتسم (محمود) وقد فهم ما يركن إليه وقال:

- هو شقيقك بلحمه ودمه.

- أين عقله؟

- عقله داخل طبقة (الصندلية) يعاد تهيئته، وأنت سمعته بنفسك يقول إنه سعيد.

- أخي ليس مملوكًا ولا عبدًا.

ارتكن (محمود) لحائط قريب وقال:

- لن آخذ كلماتك على محمل الإهانة، أتعرف يا (ماجد) ما كان اسمي قبل أن يخطفني (عثمان الخواجة) تاجر الرقيق.

- أنا لا أعلم ولا أهتم

- وأنا لا أتذكر، لم أكن من المماليك السلطانية، باعني التاجر لأمير مملوكي رباني فيما يشبه الطباق وفيما بعد أصبحت من المماليك السيفية، نسيت من أنا، فصلوني عن حياتي السابقة، (إبراهيم) ما زال يتذكر مَن هو.. يستطيع أن يراكم.. في داخله يعلم بأصله وفصله حتى وإن فقد هيئته وعقله، ما زال يحمل هويته، (إبراهيم) القديم سيعود عاجلًا أو آجلًا.

ارتكن (ماجد) على الحائط بجواره وقال:

- لم سمحت لي بزيارته اليوم؟

- لأن رسالتك وصلتني.

كان (محمود) يقول عبارته وهو يبتسم ناظرًا للفراغ وأكمل:

- (ماجد) أنا لست غبيًا وأعلم أنك كذلك، أعرف أنك ذهبت إلى الشيخ (علم الدين اليمني) المقيم بالإسكندرية عندك لتستفتيه وسط مجلسه وبين طلابه عن حكم الدين

في أن يكـون المملـوك مصريًـا أو شـاميًا، وأفتـاك بأنـه لا يجـوز أخـذ المماليـك مـن أي بلـد يحكمهـا المسـلمين أو يتحـدث أهلهـا العربيـة.

حافظ (ماجد) على هدوئه وقال بسخرية:

- وما المضرة فيما فعلت؟؟!!!!

- كنـت تعـرف أن عيـوني سـتبلغني بالواقعـة، وإنـه لعمـري لفطانـة أتوقعهـا، ترسـل لي رسـالة مبطنـة مفاداهـا أنـك تسـتطيع تحريك العامـة ضـدي وضـد السـلطان لكنـك لـن تفعـل.. وهـا أنـا أتيـت بـك لتزوره وتطمئـن عليـه بنفسـك.

- وما القادم؟

اعتـدل (محمـود) وحـرَّك يـده عـلى عمامتـه يضبطهـا وهـو يقـول ببسـاطة:

- أمـير الطبقـة (صنـدل) يقـول بـأن (إبراهيـم) لا يحتـاج لفـترة إعـداد المماليـك الكتابيـة وأنـه سـينتقل قريبًـا للتدريـب الحـربي خـلال عـام، سـأدبر لـك زيـارات مـن وقـتٍ لآخـر.

- لم تجب على سؤالي بعد.

- طالمـا أنـك بعيـدٌ عـن السياسـة وأمورهـا فأعـدك برعايـة (إبراهيـم) بنفـسي، ربـما أقنـع السـلطان يومًـا مـا عندمـا يطمئـن لـك بـأن يخـرج الصبـي مـن الطبـاق ليبيـت بمنـزلي ويعـود في الصبـاح للتدريـب.

- تلك إجابة لا ترضيني.

التفت له (محمود) وحدق بعينيه قائلًا:

- اسمع يا (بن غراب)، ستأتي معي أنت وأم الصبي لمنزلي كي تنال واجب الضيافة ثلاثة ليالٍ، بعدها تعود للإسكندرية لعملك وأعود أنا لعملي وتسير الحياة كنهر النيل بلا فيضان ولا جفاف، لا تقاوم النهر فتغرق وتغرقني معك فأنا الضمان الوحيد لنجاة أخيك.

ألقى عبارته وترجّل مسرعًا و(ماجد) يرمقه قهرًا.

***

هذا الرجل يسير ورائي منذ ساعة، كذا فكّر (ماجد) وهو يتحرك وسط الحشود في أسواق (بركة الحبش) بالقاهرة يبحث عن باعة الكتب، كان قد نزل بدار (محمود) منذ يومين هو وزوجة أبيه التي أقامت في قاعات النساء بالدار، وأقام هو في قاعة المسافرين ينام الليل ويخرج طوال اليوم يسير هائمًا في المحروسة.

هاجته تلك الفكرة بأن هناك من يتبعه، نظر حوله أكثر من مرةٍ حتى عثر على رجل متوسط الطول عريض الأكتاف أبيض اللون، تبدو على ملابسه الوجاهة وعلى عينيه التيقظ، في الأربعين من عمره هو وإن كان وجهه الوسيم يعطيه عمرًا أقل من عمره الحقيقي.. الغريب في الأمر أنه لم يدارِ تتبعه لماجد، كأنه يقصد تنبيهه لذلك.

ثـم تذكَّـر (ماجـد) رؤيتـه هـذا الوجـه مـن قبـل.. لمحـه بـين النـاس في أحـد الأسـواق أمـس، إذًا فهـو يتبعـه منـذ مـدة، توقـف (ماجـد) عنـد أحـد باعـة الأقمشـة يمثـل البحـث في البضاعـة ويحـاول أن يلمـح الرجـل بطـرف عينيـه، المفاجـأة أن الرجـل توقـف بجانـب وهمـس قائـلًا:

- رجـالُ الأمـير (محمـود) يتبعونـك كظلـك، اذهـب إلى سـوق (الصقاريـن) بعـد صـلاة المغـرب، سـتراني هنـاك، اتبعنـي حتـى أبعـدك عنهـم.

- مَن أنت؟

- إن أردت الفلاح لأخيك فنفذ ما أقول بلا تردُّد.

اختفـى الرجـل وسـط الزحـام، فكـر (ماجـد) في الاحتـمالات بسرعـة، لا خسـائر محتملـة وإذا وضعنـا في الحسـبان أن هـذا الأخـير صغـير السـن ويمتلـك فضـولًا أكثـر مـن الحكمـة سـتكون النتيجـة هـي مـا يفعلـه الآن.

أكمـلَ سـيره وهـو يسـأل بعـض التجـار عـن سـوق (الصقاريـن) فدلـوه عـلى الاتجاهـات، وصـل إلى هنـاك قبيـل صـلاة المغـرب، انتظـر موعـد الصـلاة في أحـد الزوايـا حتـى أداهـا وخـرج يترجـل هائـمًا.

هـا هـو الرجـل يقـف بجانـب أحـد تجـار الغـلال ينظـر لـه بطـرف عينيـه ثـم يمـشي بطريقـة طبيعيـة وينحـرف إلى حـارة جانبيـة، تبعـه (ماجـد) محافظًـا عـلى المسـافة حتـى أكمـل بضعـة

انحرافات في حارات مختلفة إلى أو وصل لساحة حشدت بالبشر وألعاب الأطفال وبائعي الحلوى والصوفية والعياق ومستعرضي السحر.. إنه احتفالية مولد أحد الأولياء التي تعج بهم القاهرة.

دخل الرجل وسط الزحام وتبعه (ماجد) فذابا وسط الناس حتى دخل الرجل في منزل يطل على الساحة فتبعه (ماجد) ليجد نفسه يخرج من باب آخر لنفس المنزل، باب يطل على حارة شِبه هادئة بها بعض ورش النجارة، تبع الرجل إلى داخل إحدى الورش الخالية فأغلقَ الرجل باب الورشة من الداخل وهو يقول:

- لأقصر عليك المسافة، أنا (ناصر بن دوام).

قيم (ماجد) المكان بعينيه بسرعة، ورشة نجارة عادية لا شبهة فيها.

- بالتأكيد تعرفني فلا أحتاج لتعريفك بنفسي.

- أعرفك وأعرف جدك (غراب).

- يبدو أن الجميع يعرفه أكثر مني.

سحب (ناصر) مقعدين قصيرين مصنوعين من جريد النخل، مدَّ أحدهما لماجد وجلس على الآخر وهو يقول:

- لم أقابله لكني علمت الكثير عنه.

لم يتحدث (ماجد) وإنما رسم على وجهه الجدية وعيناه معلقتان بوجهِ (ناصر) الذي قال:

- لنقـل إني تابعـت مـا حـدث لشـقيقك (إبراهيـم) وأعـرض عليـك المسـاعدة في تهريبـه.

صمت تام من قبل (ماجد) حتى قال (ناصر):

- ألا تريد المساعدة؟

- مَن أنت؟

- (ناصر).

- أنت تفهم سؤالي.

- اسـمي (نـاصر بـن عبيـد بـن دوام)، لي تجـارة متواضعـة في السـكر، أبيعـه في حانـوت بحـارة (المشـهد) في المحروسـة، جئـت لمـصر مـع أهـلي منـذ صبـاي.

- إلى أين تعود أصولك؟

- إلى (صحار) أتعرفها؟

فكر (ماجد) قليلًا وكأنه يتذكر شيئًا ثم ردَّ:

- أنت من إمامة (عمان)؟

- نعم.

- إذًا ما صلتك بأخي؟

سحب (ناصر) شهيقًا ليطرد التوتر وقال:

- لنقـل إني أعلـم مثـلًا أنـك تقـوم بأفعـال السـحر والتواصـل مـع الجـان، وأنـك قتلـت الأمـير (بركـة) بمحبسـه، وأنـك ورثـت عِلـم ذلـك مـن أبيـك وجـدك حتـى نصـل إلى أجـدادك الفراعنـة،

ولنقل مثلًا أن جدك (غراب) استعان بشيء من الماضي السحيق ليوقف زحف ملك (القبارصة) على مصر.

انتصب (ماجد) فجأة ومد يده ليفتح باب الورشة لكن قبضة (ناصر) أوقفته وهو يقول:

- أنا معك لا ضدك.

أبعد (ماجد) يده غاضبًا وهو يقول:

- لن أنتظر لأسمع اتهامات تمسني وتمس عائلتي، اتهامات من عقل مريض.

- أفهم أنك حذر، لكن على حذرك ألا يمنعك من قبول المساعدة، أستطيع الوصول لإبراهيم وتهريبه ولن يمنعني أحد.

- اسمع يا هذا، قُل للأمير (محمود) أنني لست في البال الرائق لمزيد من ألعاب المماليك، أنا تقبلت قدري وانتهت القصة.

أنهى كلماته وفتح باب الورشة مغادرًا إياها وصوت (ناصر) يأتي من خلفه يقول:

- فكر في الأمر كما تريد، لكن الخطر يحيط بك كما يحيط بأخيك.

(3)

2002

- (سليم).. استيقظ.

أتت العبارة من (صالح) صارخة في أذن (سليم) الذي رفع رأسه من على الأريكة وسط الظلام يجفف عرقه الغزير الذي لم يفهم سببه فالطقس باردٌ، صالة استقبال شقته ساخنة والعرق ينفجر من جسده ووجهه بغزارة، أزاح البطانية عنه وهو ينهض، لم يكن قد استفاق بعد من النوم، كاد أن يسأل عن سبب إيقاظه لكنه فهم.

هذا النور الأحمر بجانب إحدى المقاعد ينير وسط الظلام كمصباح صغير، يتضخم، من هذه البقعة تأتي الحرارة الملتهبة.

- (صالح) ماذا يحدث؟

- (الجساس) خادم الغرفة النحاسية سيحضر.

لم تنته عبارة (صالح) إلا وجسد كائن قصير لا يتعدى المتر يتشكل وسط بقعة الضوء الأحمر، بقرون طويلة وأذن

كالحصان وعيون بارزة أخذ الكائن يتأمل (سليم) الذي تراجَع للوراء متحفزًا والكائن يقول بصوت كالصرير:

- افتح الباب.

نظر (سليم) للباب برعب ومدَّ يده يفتحه بسرعة، خلف الباب وقف رجلٌ يرتدي بدلة سوداء في الثلاثينيات من العمر أو الأربعينيات لم يميز (سليم) من خوفه، قال الرجل مبتسمًا:

- أنا (عباد) من يدير الغرفة النحاسية.

ثم أشار لطرف الغرفة عند الكائن قائلًا:

- وهذا (الجساس) خادم الغرفة كما أخبرك (سالم).. هل يمكنني الدخول؟

اختفى (الجساس) وانطفأ الضوء الأحمر، و(عباد) يزيح (سليم) وهو يدخل ويضغط على زر الإضاءة قائلًا:

- أعتذر عن الجو الحار، ستعود درجة الحرارة لطبيعتها بعد قليل.

اختار لنفسه مقعدًا وجلس عليه بلا استئذان و(سليم) يغلق الباب بعدما انتظمت أنفاسه قليلًا.

- أنا أعرفك يا سيد (عباد).

- أعتقد أن والدك حكى لك الكثير.. جيد، هذا سيقصر بيننا المسافة.

جلس (سليم) على الأريكة وهو يقول ببرود:

- ما الداعي لهذا الاستعراض قبل دخولك، أما كان من الأسهل أن تطرق الباب

وضع (عباد) قدمًا فوق الأخرى وقال:

- سمه استعراضًا للقوة، ليعلم كل شخص موقعه.

- أبي أخبرني أنك مغرور.

- بالمناسبة، تعازي الحارة لفقدانه، كان رجلًا ذا عقل راجح.

برهة من الصمت خيمت على المكان والاثنان ينظران لبعضهما البعض بلا كلام حتى قال (عباد):

- توقف عن مطاردة من يقتل السحرة.

- والسبب؟

- السبب أنك طفلًا.. غير مؤهَّل للدخول وسط الصراع الدائر، اترك هذه الأمور للكبار.

- اتفقنا.

قالها (سليم) ببساطة فتجمد (عباد) لثوان مصدومًا ثم انفجر ضاحكًا و(سليم) يسأل:

- هل هناك سبب لتلك القهقهة!!!!!!

- أنت تستهزئ بي أليس كذلك؟

- أتوقعت أن أرفض فتهددني ثم تتركني لأفكر؟؟ آسف لتفويت تلك المتعة عليك.

ظهرَ الانفعال على وجه (عباد) لأقل من ثانية ثم عادَ واختفى وهو يقول ببرودٍ:

- أنا لست عدوك يا فتى.

- أعرف، فأنت وغرفتك النحاسية تتبع لنا.

- لست تابعًا لأحدٍ.

قالها (عباد) صارخًا فردَّ (سليم) ببرودٍ أكثر ليستفزه:

- اسأل (الجساس) من أنشأ الغرفة النحاسية بمصر منذ زمنٍ بعيدٍ، ولا تنسَ أننا نمتلك غرفة مثلها في سَلطنة (عمان) بنيت قبل غرفتك.

- هناك أكثر من غرفة بنيت بمصر وأسطورة أنكم من علمتمونا بناءها تبعث على الضحك.

- لو لم نعلمكم بناءها فعلى الأقل علمنا أجدادك كيفية تشغيلها، من الغباء أن تأتي لتخويفي وأنت تعلم من ورائي.

- أنت طفلٌ وتهدد بما لا تملك، أنا المخطئ لمحاولة مناقشتك، كان يجب أن أرسل رسالة لمؤيد نفسه ليوقفك، عندما علمت بأنك تحكمت بقرينك وكل يوم تزوده بمعلومات عنك كي لا يستجوبه أحد لم أتكلم، لكن تقترب من صراعات السحرة وتراقبهم بتهور فهذا..

قاطعه فجأة:

- لماذا تتستر على قاتل عائلتي؟

نهض (عباد) من مقعده غاضبًا يقول:

- والِدُكَ حذرته بنفسي أن يبتعد، ولكنه حلم بالوصول لما لم يقدر أجدادك على الوصول له.

كان يقول عبارته وهو يتجه لباب الشقة وقبل أن يفتحه نظر لسليم وقال:

- سأنزل لمستوى تفاهتك وأسألك، من هؤلاء الأغبياء الذين يطلقون على أنفسهم من آلاف السنين (رجال أرض النحاس)، من أين أخذتم الأسم؟، من مجلة (ميكي) التي كانت تصدر في العصر الحجري!!

- يمكنك قول نفس الشيء عن (الغرفة النحاسية).

خرج (عباد) وهو يغلق الباب من خلفه مصدرًا سبة بصوت خافت.. بينما (سليم) قد تخلى عن وجه الواثق وقد شعر بالذعر وهو يقول:

- (صالح) هل أنت هنا؟

- هل أغضبت سيد الغرفة النحاسية أم أنني كنت أهذي؟

قالها الصوت في أذنه فردَّ بسرعة:

- (عباد) هذا لا يستطيع التنصت علينا طول الوقت أليس كذلك؟

- نعم، لكن الغرفة تظهر له أيَّ شذوذ في عالم الجن، وبالتأكيد مقتل (توفيق) عن طريق الجن أعلمه بوجودنا هناك.

- لكنه علمَ بموضوع قريني ولم يأبهْ لذلك، ما الذي حدثَ، ما الذي اقتربت منه ليقلق ويأتيني بنفسه

سكت (سليم) مفكرًا، مرَّت دقائق وعينيه تنظر في الفراغ حتى قال كأنه يحدِّث نفسه:

- الشاب الذي رصدته يذهب للساحر.

***

لم يمر أكثر من أسبوع على ما حدثَ مع (سليم) إلا وقد جلس (مؤيد) على طاولة مطعم ينتظر واضعًا رأسه على كفيه، كان قد أرتدى جاكيت جلدي اشتراه من مصر عند وصوله أمس، ولكنه يشعره بحكة دائمة بسبب ضيقه، دخلَ (عباد) من باب المطعم وهو يصطحب فتى صغير السن خجول وجهه خالي من التعبيرات، نهض (مؤيد) يصافح (عباد) الذي رحب به وهو يقول:

- اعذرني فقد اضطررت لاصطحاب ابني (طه) من المدرسة، ما رأيك نتناول طعام الغداء معًا؟

- بسم الله ما شاء الله، لم أعلم أن لك ابن، نتناول الغداء ونتناقش قليلًا.

جلس الجميع حول الطاولة عندما جاء النادل وطلب الجميع الطعام.

- وأنت يا (طه) أتنوي أن تكون ضابطًا أم طبيبًا أم مهندسًا، اعذرني فكل من في سنك يختار تلك المهن.

- أريد دراسة الهندسة.

ابتسم (مؤيد) مجاملة وهو يتحدَّث مع (عباد) في مواضيع مختلفة عن الحياة والسياسة وغلاء الأسعار في الدول العربية، باختصار كان حديثًا مُملًا يدور يوميًّا بالملايين في أنحاء العالم بين الأصدقاء.

تناولوا الطعام وانتهوا منه فطلب (عباد) من (طه) أن ينتقل لطاولة أخرى لأنه يريد أن يتحدث في أمور لن تهمه.. نفذ (طه) الأمر بسلاسة وابتعد كثيرًا كأنه لا يريد سماع ما سيدور.

- أخيرًا التقينا يا سيد (عباد).

- كنت أتمنى ظروفًا أفضل من أن أطلبك بطريقة خاصة لتأتي لمصر لنتقابل.

- لا مشكلة، وها قد أرسلت لي جساسك لأراه بعيني، كنت أعتقد أنه يختلف عن (جساس) غرفتنا في السلطنة.

- لا تعتبرها إهانة، أنت تعلم أني لا أملك خدمة من الجان مثلكم.

- لا عليك، (سليم) أرسل لي تفاصيل مقابلتك معه، ماذا أردت منه بالتحديد؟

- ما أردته هو نفس ما طلبته من والده رحمه الله، أن يبتعد عما يحدث بمصر، ولا تحاول أن تدافع عنه فأنا أعلم أنه جاء لمصر من تلقاء نفسه لا بتكليف منكم.

- تتحدث عن المرحوم (صابر) وكأنه نكرة، الحقيقة أنك لا تعلم مكانته الحقيقية والتي تفوقني، وموته ليس حادثة هينة.

- الأعمار بيد الله.

- إن مات ميتة طبيعية فلا مشكلة، أما إن قتل فستقلب جماعتنا عاليهما سافلها.

مسح (عباد) على شعره وهو ينظر لابنه الجالس وحيدًا على إحدى الطاولات يعبث بأكياس السكر الموضوعة أمامه وقال:

- (سليم) يتصرف بتهور ويجب عليك وقفه.

داعب (مؤيد) شاربه متصنعًا الهدوء قائلًا:

- الابن يبحث عن ثأر أبيه وأنا مثله، الفرق أنني أتحين اللحظة المناسبة.

- وما يضيرك في قتل سحرة بمصر؟

- جماعتي تكونت لتوقف السحرة

- في بلدك لا بلدي.

ضحك (مؤيد) قائلًا:

- ألا تؤمن بالوحدة العربية يا صديقي

- اكشف أوراقك يا سيد (مؤيد) وأعدك بكشف أوراقي.

- حسنًا.. (صابر) أتى لمصر ليصل للملك الجن الثامن.

- لا شيء بهذا الاسم، هي أسطورة وأنت تعلم ذلك علم اليقين.

- ليس المهم اسمه، الأهم هو أن هذا الشيء يتحرك في مصر، الغرفة النحاسية بالسلطنة التقطت تلك الحركة، وبالتأكيد غرفتك أخبرتك بذلك، وتزامن هذا مع حوادث قتل السحرة، كانت نية جماعتنا في الماضي قتل هذا الكائن.. أما الآن فقتل المتحكم فيه من أولوياتنا، وأنت تعلم من هو وتتستر عليه.. حان دورك في كشف الأوراق.

هرش (عباد) في شعره وهو ينظر لابنه يطمئن عليه ثم قال:

- أنا أعلم عن هذا الكائن، وأعلم من يحركه، وبالمناسبة هو لم يقتل السحرة به، لكنني لن أسمح لكم بالاقتراب منه.

- تحميه إذًا.

- أحمي ولدي

التمعت عين (مؤيد) وهو يقرب رأسه من (عباد) ويهمس:

- هل تلقيت تهديدًا؟

لم يجب (عباد) وظل ينظر لطه فقال (مؤيد):

- أجبني وأقسم لك بأننا سنحمي ظهرك.

- (صابر) عند مجيئه لمصر أخبرته بخوفي على ولدي لكنه أكمل طريقه.

- ألا يستحق أن نتعاون معًا لنوقف سلسلة القتل الغريبة هذه!!

- الكائن لا يقتل السحرة.. الذي يتحكم فيه هو من يقتلهم، الموضوع أعقد مما يتصوره عقلك، هذا الشاب ينتقم من السحرة عن طريق الإيقاع بينهم وبين جماعة منشقة من الصوفية تستخدم الجان.

- لكن الملك الثامن هو من قتل عائلة (صابر) أليس كذلك؟

ارتفع صوت (عباد) فجأة بسبب انفلات أعصابه:

- فالنتركه ينهي ثأره وهو وعدني بأنه سيبتعد.. كان بيدي أن أخبر المتحكم في الكائن أن عائلة (صابر) لم تمت كلها، وأن (سليم) يطارده لكنني خفت عليه، صدقني ولدكم يلعب بالنار التي ستحرق الجميع.

- أنت من تلعب بها معتقدًا أن الحياة ستصبح أفضل في المستقبل، دعنا..

قاطعه (عباد):

- انتهى حديثنا، أخبرني بقرارك الآن لأتحرك على أساسه.

نظر (مؤيد) لطه هو الآخر ثم التفتَ لعباد وقال:

- سأحاول كبت (سليم) الفترة القادمة، لكن هل تتواصل مع هذا الذي يتحكم بالملك الثامن؟

- هو مَن يتواصل معي، لا يقبل بأن يزوره (الجساس)، قوته أعلى منَّا جميعًا لكنه لا يطلب إلا، وأن يترك في حاله.

- ومقتل (صابر)؟

- كان خطأ منه يندم عليه، والكائن هو القاتل لا من يتحكم به.

- إذًا يبقى الوضع على ما هو عليه، (سليم) سيبتعد قليلًا مع وعد منك بعدم أذيته.

- أعدك.

نظر (مؤيد) لطه الذي بدأ الملل يظهر جليًا عليه وقال:

- رجل واحد يخيف الجميع ويجبرنا على الخضوع، ولا نملك إلا أملًا في أن يتركنا لحالنا.

***

- أستاذ (فتحي) يحبك يا (سليم).

قالها (أحمد) راسمًا ابتسامة صفراء على وجهه، كان يلعب دور حمامة السلام بين الجميع مع قليل من دور الأب والرجل الصالح، هذا اليوم بعد عودته من عمله طلب من (سليم) أن يأتي للشقة ليتناول الغداء، وطبعًا حضر كل شيء قبلها ليفاجأ هذا الأخير عند دخوله بأستاذ (فتحي) جالسًا بالبيجامة والشبشب واضعًا قدمًا على الأخرى وسيجارة تتدلى من فمه، وبجانبه (بودي) يجلس راسمًا كل تعبيرات

الملل الممكنة على وجهه و(فتحي) يسأله عن أحوال الدراسة والتعليم و(بودي) يجيب عليه بكلمات قليلة.

جلسة صلح مرتبة أو لنقل أنها جلسة لإجبار (سليم) على الصلح، فها هو يجلس على أريكة قريبة وبجانبه يجلس (أحمد) يقول بتحمس:

- أنا لا أعلم سبب الخلاف بينكم يا (سليم).

- قل له يا أستاذ (أحمد).

قالها (فتحي) مؤمنًا على كلماته و(أحمد) يكمل:

- أستاذ (فتحي) في مقام والدك.

- قل له يا أستاذ (أحمد).

- وإن حدثت بينكما مشاداة يوم وفاة العائلة..

- قل له يا أستاذ (أحمد).

نظر (أحمد) بطرف عينيه لفتحي الذي يشيح بنظره بعيدًا يمثل الضيق والكبرياء:

- أنا كنت سأكمل، أعطني فرصة يا أستاذ (فتحي).

- قل له يا أستاذ (أحمد).

كتم (بودي) ضحكته متطلعًا لسليم الجالس يفرك عينيه مللًا و(أحمد) يقول:

- كانت لحظة دخل فيها الشيطان بينكما، أنتم جيران وأحباب ووفق الله الجميع.

كلمات (أحمد) ذكرت (سليم) بالأفلام المصرية التي أحب مشاهدتها، وكأن (أحمد) جمع بعض العبارات النمطية وألصقها بجانب بعضها البعض لا تحمل أي تماسك منطقي.

- وما المطلوب؟

قالها (سليم) فعاجله (أحمد) بسرعة:

- أن تعتذر للأستاذ (فتحي) وتقبل رأسه.

- أعتذر أنني دفعته وسقط أرضًا؟؟

زفرَ (فتحي) دخان السيجارة من فمه بحرقة و(أحمد) يقول مهدئًا الأمور:

- لن نفتح التفاصيل، المهم أن تعتذر له لتعود المياه لمجاريها.

نهض (سليم) متثاقلًا، وانحنى وهو يغمز بعينيه لبودي ويقبِّل رأس (فتحي).

- أنا آسف يا أستاذ (فتحي)، حقك على رأسي.

هز (فتحي) رأسه بكبرياء وقال كأنه يعفو عنه:

- سامحتك.. وإن كانت الأصول أن تعتذر لي أمام كل سكان العمارة، أنا لست صغيرًا لتفعل ذلك.

نهض (أحمد) هو الآخر ليقبل رأس (فتحي) قائلًا:

- وأنا أعتذر لك لترض عن (سليم).

- العفو العفو يا أستاذ (أحمد)، لكن على (سليم) أن

يستمع للنصيحة ويعلم بأننا أهله ونحبه.

- حاضر.

قالها (سليم) بنفاد صبر فأكمل (فتحي) بطريقة أبوية مفتعلة وهو يسحب نفسًا من السيجارة:

- وعليك يا بني أن تنتبه لدروسك ومذاكرتك وأنا بنفسي سأتابعك بجانب الأستاذ (أحمد).

- حاضر.

تدخل (أحمد) لينهي الموضوع بطريقة بلياقة.

- أستاذ (فتحي).. بعد صفاء النفوس ما رأيك أن نتغدى معًا، سأعد الغداء الآن.

- لا لا لا.. بألف هناء وشفاء، زوجتي تنتظرني على الغداء والأيام القادمة كثيرة.

نهض وهو يطفئ السيجارة في مطفأة سجائر قريبة وغادر الشقة و(أحمد) يحمله السلامات، بينما (سليم) يقول وهو يعاود الجلوس:

- هذا الرجل ثقيل على قلبي.

- لا تقل هذا يا (سليم)، أستاذ (فتحي) في عمر والدك، لا تغضب منه فهو طيب القلب وما في قلبه يخرج على لسانه.

- إن خرج ما في قلبي على لساني لأصبحت قليل الذوق.

ابتسم (أحمد) بطرف شفتيه وهو يتجه للمطبخ قائلًا:

- لا فائـدة مـن إقناعـك.. عـلى كل لم يبـقَ إلا نصـف سـاعة على طعـام الغـداء، انتظـراني هنـا وشـاهدا التلفزيـون

قال (بودي) فجأة:

- العب معي بنك الحظ يا (سليم).

- بشرط أن أمسك البنك والنقود تكون في يدي أنا.

- موافق.

- وألا تتهمني بالنصب.

- موافق.

قالهـا (بـودي) وهـو يجـري ليحـضر لـوح اللعـب والكـروت ويضعهـا عـلى طاولـة الطعـام التـي جلـس عليهـا (سـليم)، مـرت دقيقـة مـن اللعـب قـال (بـودي) فجـأة بعدهـا مشـيرًا إلى خانـات اللعبـة التـي كتـب عليهـا أسـماء عواصـم البـلاد العربيـة:

- أين هي بلدك وسط تلك البلاد؟؟

- هذه ليست أسماء بلاد بل محافظات يا (بودي).

- أريد الاعتراف بشيء.

- ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

نظـر (بـودي) حولـه بريبـة ثـم قـال همسًـا جملـة لم يسـمعها (سـليم) الـذي اقـترب منـه وطالبـه بإعـادة مـا قـال.

- عدت أرى الأشياء المخيفة بالأمس.

ضحك (سليم) بسخرية وهو يقول:

- لم أعد أتفاجأ فحتى ذلك الأمر لم أستطع منحك إياه.

- لكني اليوم لم أرَ شيئًا.

أعاد (سليم) ظهره لمسند المقعد وقال بضجر:

- أتحب أن أحاول إغلاق الرؤية ثانية؟

- لا، لم أعد خائفًا، ولن أخبر أحدًا، لكنك وعدتني بأن تجيبني على أي سؤال أسأله.

- نعم.. لكن هنا مكان غير آمن، في شقتي سأجيبك على كل شيء.

- سؤال واحد أجبني عليه هنا.

- تفضل لكن اخفض صوتك.

- كيف تعرفت على عمو (سالم)؟

قالها (بودي) بصوته الخافت فابتسم (سليم) وهو يقول بهدوء:

- القصة طويلة، لكن على كل والدي وأخي عرفوني عليه.

- كيف تعرفت عليه؟ وكيف صادقته؟

- أنت قلت سؤالًا واحدًا.

عين (بودي) المتسائلة جعلت (سليم) يقول:

- حسنًا.. كنت أكبر منك بقليل، جلس والدي معي جلسات كثيرة يخبرني فيها عن عالم الجان، أثار شوقي وخيالي

وتمنيت أن أراهم، وفي يوم أحضرني وحدي لأقف أمام المرآة في غرفة نومه، قال لي «هناك صديق يريد أن يتعرف عليك فلا تخف منه فمظهره مختلف عنا»، وأمام المرآة أمسك بي والدي ورأيت صورتي في المرآة تتبدل، كان وجهي يتحول لوجه (صالح) بالتدريج.

صمت (سليم) مبتسمًا لنفسه وهو يتذكر:

- وماذا فعلت؟.. أكمل...

- لم أفعل شيئًا سوى الصراخ خائفًا ومحاولة الفرار.

- ولكن أبي لم يفعل معي ذلك، فلم رأيت عمو (صالح)!!!

فكر (سليم) لثوان وقال كأنه يخاطب نفسه:

- لا أعلم.. فتح رؤية شخص مسألة صعبة ومرهقة، ولا تحدث صدفة إلا نادرًا، وأنا أغلقتها لك أكثر من مرة.. كأن أحدهم يفتحها لك.

التفت إلى (بودي) يقول:

- بم تشعر عند فتح الرؤية؟

- تقصد عندما أراهم؟

- نعم.

أشار (بودي) لرأسه وقال:

- ألم قوي يأتيني هنا يستمر وقت ثم يختفي، أرى بعدها تلك الأشياء.

- تصف فتح الرؤية بشكلها الطبيعي الذي أعلمه.

جرس الباب أتى فجأة ليفزع (سليم) وكأنه أخطأ في شيء بينما أتى (أحمد) من المطبخ ليفتحه، خلف الباب كان (مؤيد) يبتسم بطريقته الودودة وهو يحمل حقيبة سفر.

***

الكثير من الهدايا أخرجها (مؤيد) من حقيبة السفر أعطاها لأحمد، أما الألعاب التي أحضرها معه لبودي فقد أطارت عقله من الفرحة، تناول الجميع الغداء في أجواء أسرية من الترحيب بالزيارة والأقسام الغليظة التي أطلقها (أحمد) لإجبار (مؤيد) على المبيت بشقته والتي رفضها بأدب لأنه مضطر للسفر الليلة وجاء للاطمئنان على (سليم).

بعد ساعة من شرب الشاي والقهوة اتجه (مؤيد) لشقة (سليم) مصطحبًا إياه.

- اتفقت مع (عباد) على كل شيء.

قالها (مؤيد) وهو يلقي بجسده على الأريكة و(سليم) يقول بغيظ:

- هذا المأفون جاء ليهددنا وتقول أنك اتفقت معه.

- تحدَّث بأدبٍ وإلا أديتك.

ابتلع (سليم) ريقه بصعوبة وقال:

- آسف يا عمي، لكنك لم ترَ كيف هددنا.

- لم يهدد جماعتنا، كل ما أراده أن تبتعد خوفًا عليك.

غزا البرود ملامح وجه (سليم) وهو يقول:

- إذًا فقد أتيت لتطلب مني فعل ما تمناه (عباد).

- لا.. أطلب أن تسير على إرشاداتي.

- وما هي؟

- لا تنكر أنك متهور، وربما فعلت أنا ما تفعله لو كنت في مثل عمرك، ستفعل ما أطلبه منك بلا مناقشة لأنه في مصلحتك وفيه راحة قلبك.

- وإن رفضت؟

- لن ترفض لأنك تعلم في قرارة نفسك أني أطلب ثأر أبيك ولن أتهاون فيه، لكنني في جلستنا هذه أمثل العقل وأنت تمثل المشاعر، فاستمع للعقل كي نصل لهدفنا.

- تفضل.

- نحن نواجه قوة لا قبل لنا بها وإن أردنا النصر فعلينا بفهم عدونا وجمع المعلومات عنه حتى لو اضطررنا للانتظار سنوات.

بعدم اقتناع قال (سليم) مغمغمًا:

- نعم نعم.

- ستوقف كل نشاطك في مراقبة السحرة مؤقتًا واتركهم يموتون إن لزم الأمر ذلك، واهتم بإخفاء نفسك مؤقتًا،

وسأرسل لك (يوسف) أحد رجالنا ليراقب هو ويجمع المعلومات.

- و(يوسف) طبعًا أفضل مني.

- لا تكن غبيًا كعهدي بك، أنا أقبل بالتضحية به لكن أنت لا، (يوسف) سيبغلك ويبلغني بكل ما يستطيع الوصول له كي نتجهز لقاتل عائلتك.

- هل سيقتله؟

- لا لن نقتل أحدًا قبل الوصول للملك الثامن فلا أضمن إن قتلت الذي يتحكم به أن لا يتحرر هذا الشيء ويقتل الجميع إن لم يكن له سيد.

- أنت وأبي وأخي تبحثون عن شيء لا أفهمه.

- القصة قديمة يا (سليم)، بدأت من مصر في عصر المماليك، ما وصلنا منها شحيح سمعناه شفاهة ممن سبقونا في الجماعة.

- لم يخبرني والدي بأصل قصة الملك الثامن.

- الحكاية بدأت برجل يسمى (إبراهيم بن غراب).

قفز اسم (غراب) في عقل (سليم) لثوانٍ يشعر بأنه سمعه في وقتٍ قريب، حتى تذكر مفزوعًا لكنه حافظ على هدوئه وهو يقول:

- اسم غريب، ما علاقته بما يحدث.

(4)

1385 م - القاهرة - مصر

بحارة (المشهد) بالقاهرة تحركت الجمال في طابور طويل ينادي حاديها بالناس أن يتعدوا عن الطريق، رجل يحمل مبخرة يدور على الدكاكين ينادي بأدعية يحفظها، باعة ينادون على تجارتهم، شربتلي يحمل دورق ضخم من العرقسوس يثبته على خصره.

اخترق (ماجد) الزحام متجهًا إلى حانوت (ناصر) الجالس على بابها يتأمل الرائح والغادي بلا اكتراث وبجانبه ابنته ذات العشرة أعوام تلعب بدميتها على مقعد صغير.

- كيف حال شاهبندر التجار اليوم؟

قالها (ماجد) وهو يواجه الحانوت فتأمله (ناصر) كأنه يتذكره.

- نورت المحروسة يا (أبو فضل).

ضحك (ماجد) وقال:

- وعلمت أني تزوجت وأنجبت، أراك تترصدني مثل سابق عهدك.

- أحببت الاطمئنان عليك، وأنت أيضًا أرسلت عيونك تتابعني.

- أحببت الاطمئنان إليك.

- وهل الاطمئنان إليَّ يكلِّف سنتين وأكثر، قلت لنفسي إنك لن تثق بي.

- ومازلت..

ثم نظر (ماجد) إلى الطفلة وقال:

- هذه (فاطمة) أليس كذلك؟

- نعم.. ابنتي الصغرى، وشقيقها الأكبر (علي) كما علمت أنت بالتأكيد.

- عظم الله أجرك في أمها، علمت أنها ماتت منذ شهور في آخر شوطة ضربت المحروسة.

- لكل أجلٍ كتاب، وددت لو أجلستك معي لكنَّ العيون تحيط بك دائمًا

- أعلم وإن لم أرَها، ما رأيُكَ في مقابلتي الليلة، نصلي العشاء في جامع الإمام الشافعي كي أتخلص من أي عين ترقبني.

- اتفقنا وإن كنت أتمنى أن يكون خيرًا.

- سترى بنفسك.

***

انتهى إمام المسجد من الصلاة و(ماجد) يسلم على مَن يجاوره وعيناه تدوران حوله يتفحص المصلين حتى وقعت على (ناصر) الذي كان ينظر له هو الآخر، نهض (ماجد) واقترب من (ناصر) وهو يقول بصوت خافت:

- اتبعني بمسافة.

غادر المسجد متجهًا لمغارات المقطم و(ناصر) يتبعه كي يتأكد من عدم ظهور عيون (محمود)، قل عدد الناس بالتدريج حتى أصبح (ماجد) يسير وسط الصحراء والمغارات في عتمة الظلام و(ناصر) يسرع من خطواته ليلحقه بعد أن بعدت المسافة بين الاثنين.

مرت نصف ساعة حتى اندهش (ناصر) من أفعال (ماجد) الذي توقف فجأة بجانب إحدى المغارات داخل الجبل وأشار لناصر قائلًا:

- اقترب، فنحن في الأمان.

حرَّك (ناصر) رأسه من حوله حتى توقفت عيناه على جزءٍ من الأرض أمام (ماجد)، دقق (ناصر) أكثر في ذلك الجزء بعينيه كأنه يرى شيئًا و(ماجد) ينظر هو الآخر لذلك الجزء ثم يرفع عينيه لناصر ويقول:

- هل ترى شيئًا غريبًا؟

ابتسم (ناصر) بثقة واقترب من (ماجد) حتى وصل للبقعة التي كان يحدِّق فيها منذ قليلٍ، فجأة تخلخلت الرمال

بتلك البقعة وخرج منها عشرة ثعابين متوسطة الطول سوداء اللون، توقف (ناصر) والثعابين تدور من حوله راسمة في الرمال دوائر غير منتظمة حتى انتصب بعضها متحفزًا، وظلَّ البعض في حالة الدوران المترقبة حول (ناصر) الذي حدَّق بها وهو يتنفس بصعوبة لكنه سيطر على انفعاله عندما نظر إلى (ماجد) هادئًا.

- لماذا نظرت لهذا الموضع قبل أن تقترب مني؟ هل كنت ترى شيئًا؟

لم يجب (ناصر) فأكمل (ماجد):

- أترى الجن يا (ناصر)؟

أحد الثعابين اقترب من حذائه، ومرَّ من فوقه و(ناصر) يقول بنبرة ساخرة:

- مثلما تراهم.

- بعد تلك السنوات أسألك ثانية مَن أنت؟

- أنا (ناصر بن دوام).

- بحثت وراءك وفاجأني أنك لا تثير الشك، لا تثير الشك لدرجة أثارت الشك بداخلي، تعرف أكثر مما يجب على مَن هو مثلك معرفته، حتى الجان أرسلتهم وراءك والنتيجة لا شيء.. سوى شيء واحد.

التف أحد الثعابين على قدم (ناصر) اليمنى و(ماجد) يقول:

– جسدُك مشوَّه مليء بالجروح وآثار الكي بالنار، قرينُك يقول إنك لست جنديًا ولا محاربًا، حتى قرينك لم يذكر أيَّ شيءٍ غريب يتعلق بماضيك، كأنك لقنته كل ما تريد.. لو أضفنا لذلك عدم خوفك من الثعابين سأصل لنتيجة غير مرضية، وهي أنك خطر عليّ، قُل لي ما الذي يمنعني من قتلك؟

– تقتلني بهؤلاء!!!!!

قالها (ناصر) وأشار للثعابين المتحفزة وأكمل:

– لكنهم جن تحوَّل لثعابين.

– جن يحمل صفات الثعبان ولدغته السامة.

– لن تستطيع قتلي بهم ولا بغيرهم.

– تحرَّك من مكانك وسترى بنفسك.

خطا (ناصر) خطوةً واحدةً للأمام فانقضَّت الثعابين مجتمعة بسرعة شديدة لتلدغ قدميه، لكنه أحنى ظهره والتقط أحدهم وقرَّب رأسه من كف يديه.. لدغ الثعبان كف اليد مُصدِرًا فحيحًا غاضبًا، (ماجد) رفع يده صارخًا ليوقف ما يحدث لكنه تسمَّر في مكانه وهو يرى (ناصر) يرفع كفه في الهواء ويقول:

– لدغات الثعابين لن تخترق جلدي.

أكمل خطواته وهو يدهس بقدمه أحد الثعابين و(ماجد) يقول صارخًا في الثعابين:

- عودوا لمكانكم.

انسحبت طاعة لأمره و(ناصر) يلقي بالثعبان الذي لدغه بكفه بعيدًا ويقترب أكثر من (ماجد) قائلًا:

- لا أرى داعي لتخويفي بتلك الطريقة كي تعرف من أنا، اسأل وأنا أخبرك.

- أخبرني بكل شيء.

- حسنًا.. أنا حاملٌ دمَ جدك (غراب) على كاهلي، وذنب سجن أخيك في طباق القلعة.

- الكثيرون يحملونه.

قالها وجلس مفترشًا الرمال فاحتذى (ناصر) حذوه وهو يغمغم :

- كنت في مثل عمرك تقريبًا عند هجوم (القبارصة) على (الإسكندرية)، انتقل الخبر للمحروسة سريعًا، كلفت من قبل الغرفة النحاسية بالتوجه للإسكندرية بأسرع وقتٍ، وأعلم أنك لا تعرف ما هي الغرفة النحاسية لذلك سأخـ...

قطع (ماجد) عبارته بهدوء وهو يحدق في ظلام الصحراء ويقول:

- غرفة صُنعَت من سبيكة من النحاس والكبريت والحديد وعناصر أخرى، غلِّفت بطلاسم لا يعرفها إلا صانعيها، داخل الغرفة مئات من الرموز معلَّقة على جدرانها

متصلة ببعضها البعض، تتحرك الرموز بانتظام معتمدة على عِلم الحيل الميكانيكية، رموز وتماثيل وصور لقبائل الجان والعفاريت في كل بقاع الأرض، إن تحركت إحداها فيعني أن شيئًا ما يحدث في عالم الجان أو البشر أو كلاهما، للغرفة سيد يحكمها ويقرأ رموزها ويتحكم بها، وخادمٍ من الجان يكتسب قدرات خاصة عند انضمامه للغرفة، يلقّب بالجساس، الغرفة لا يعرف مكانها البشر ولا يراها الجان، فإذا استدعى سيد الغرفة جنيًّا لها تصبح كمينًا قاتلًا.. هل أُكمل لك أم اكتفيت يا (ناصر)؟

لم ينطق (ناصر) وإن ظهرت بعض سمات الانبهار على وجهه برغم الظلمة، فأكمل (ماجد):

- سيد الغرفة النحاسية له مهمة واحدة وهي منع تداخل عالمنا بعالم الجان عن طريق مراقبة الجميع، للغرفة إرادة خاصة فعند موت سيدها تختار هي من يصلح من نسله أو أي شخص غريب يعرض نفسه عليها، أنت لست سيد الغرفة فمَنْ تكون لتكلف منها بالذهاب للإسكندرية؟

اتسعت ابتسامة (ناصر) وقال:

- معلوماتك ناقصة، للغرفة خادم من الجان وهو (الجساس) وخادم من البشر وهو أنا.

- وكيف لا تؤثر فيك لدغات الثعابين؟!!

- قدرة تمنع أيَّ شيءٍ من اختراق جلدي.. أنياب.. معادن.. حتى طلقات النفط لن تكسر عظامي.

- لا شيء محُصَّن للنهاية.

- لي نقاط ضعف لكن لا يعلمها غيري، من صنعوني ماتوا وقريني تحت سيطرتي فلا مدخل لقتلي بسهولة.

- السم يؤثر فيك، أم حصنت معدتك هي الأخرى؟

ضحك (ناصر) وقال:

- أتريد قتلي؟

- لا أعرف بعد.

قبض (ناصر) حفنة رمالٍ من على الأرض تأملها وقال:

- سيد الغرفة رأى شيئًا غريبًا يتحرك في الإسكندرية، (الجساس) لم يستطع رصده أو رؤيته، شيء ليس من عالمنا أو عالم الجان الذي نعرفه، كان هذا في اليوم الأول للحملة الصليبية، كل الدلائل في الغرفة أشارت أن هذا الشيء مهاجم ولم يأتِ مع القبارصة، لكن من سيهاجم؟ نزلت بالإسكندرية وقت هروب أهلها منها وانضممت لرجال المقاومة الذين نظمهم جدك وبعض الأعيان، حتى رأيت السيد (غراب) يتحكم في هذا الشيء.

- ماذا رأيت؟

- أنا أرى الجان طوال الوقت، عندما تراهم يهربون من الإسكندرية خائفين فأنت أمام حدثٍ ليسَ له مثيلٌ، في اليوم الثالث انطلق هذا الشيء يقتل بجنونٍ، رجال ونساء تحترق

أجسادهم بلا مصدر للنار، جنود (القيارصة) يتمزقون وتتناثر دماؤهم في الشوارع، رأيت (غراب) يحاول السيطرة عليه بلا جدوى.

- ما هيئة هذا الشيء؟

- شيء يأتيك في الكوابيس فقط، ليس له هيئة واحدة، هل هو بجسد إنسان؟ هل له ذيل حيوان يتحرك؟ أيمتلك رأسَ أسدٍ؟، لا أعلم كيف أصفه، كأنه تمثال عملاق من تماثيل الفراعنة في صعيد مِصْر، أو كأنه كل تماثيل الفراعنة المخيفة في جسدٍ واحدٍ، الخوف والرعب تملَّكا مني وقتها بلا قدرة على مواجهته.

صوت أنفاس (ناصر) المتسارعة وتهدُّج صوتُه وصلا إلى (ماجد) الذي قال:

- هل أتيت (الإسكندرية) لترصده أم لتواجهه.

زادَ انفعالُ (ناصر) وارتفع صوته قائلًا:

- أتطلُب مني أن أرى تلك المقتلة العظيمة أمامي ولا أتحرك؟

- وماذا فعلت؟

- قلت لك جبنت، أتريدني أن أصرخ بها، خفت ككل البشر، لم أواجهه، عدت أدراجي للمحروسة أجرُّ أذيال الخيبة والعار، قصصت على سيد الغرفة ما رأيت وكلفني ثانية بمهمة أقلَّ خطورة.. أن أتواصل مع الأمير (برقوق

اليلبغاوي) بدون أن يرى وجهي وأبلغه بما فعل (غراب)، كان السلطان وقتها مجرد أمير شاب له صلة بخاصكية السلطان المقربين من مجلسه، أوعز لهم بتحميل (غراب) مسؤولية خراب (الإسكندرية) ليتخلص منه ووافقه في ذلك الجميع وإن لم يعلموا بأنه خاف من بطشه وبطش ذلك الكائن.

- كيف تواصلت مع (برقوق)؟

- (برقوق) يؤمن بالروحانية والسحر ومخاطبة الأفلاك والرمال، هناك رمال مشعوذ يأخذ برأيه ومشورته منذ شبَّ على الدنيا، هذا المشعوذ صديقي أزوده ببعض الأشياء وينفذ هو طلباتي، هو من تولى إخباره.

- ما تحكيه من حوادث في (الإسكندرية) هو أسطورة نسيها العامة.

- نسيانُها واجب على الجميع، حتى أنا نسيتها بعدما ابتعدت عن الغرفة النحاسية.

- ابتعدت بكل تلك البساطة!!

- رجل يملك ما أملك لن يراجعه أحد في قراره.

نهض (ماجد) وهو ينفض الرمال العالقة عن ملابسه ويقول:

- لا أصدق أكثر ما قلت، قصتك غير مكتملة، مليئة بالثغرات.

- (برقوق) أمرَ بأخذ أخيك كرهينة خوفًا منك، والسبب المعلومات التي وصلته مني قديمًا.

قال (ناصر) كلماته وهو ينهض ويقف مواجهًا (ماجد) الذي قال ببرود:

- وما تكفيرك عما فعلت؟

- أنقذ أخاك واحمِ ظهره، لي معارف في إسطبلات الخيل السلطانية، يزودون طِبقة (الصندلية) بخيول التدريب، يمكنني أن أهرِّبه من الطباق وأوصله لأي مكان تطلبه.

ترجَّل (ماجد) بخطوات بطيئة و(ناصر) يسير بجانبه.

- تهريب أخي ليس خدمة تقدمها، قل لي، هل ما زال المشعوذ الرَّمَال صديقك على تواصل مع السلطان (برقوق)؟

- ما زال منجِّمه الخاص ويثق برأيه.

- سأضع ثقتي بك في حالة واحدة.. اطلب من المشعوذ أن يقنع السلطان بأن يبيت أخي خارج الطباق كل ليلة وفترة مسامحة كل بضعة أشهر.

- ما الذي سيقوله المشعوذ بالتحديد للسلطان؟

- أي شيء من أمور الاحتيال التي يجيدها، المهم أن تنفِّذ طلبي.

- سأفعل ما بوسعي.

- تذكر يا (ناصر) أنني حتى الآن لم أعرف غرضَك

مما تفعل، لا أصدق حكاية التكفير عن الذنب هذه لكن سأعرف يومًا ما.

- أما أنا فأعرف طلبك خروج (إبراهيم) كل ليلة من الطباق، تريد أن تدربه.

نظر (ماجد) له بطرف عينيه وأكمل المسير.

***

ساحة طبقة (الصندلية) تعج بالأمراء المعلمين والتلاميذ المراهقين، تتراوح أعمارهم بين الثالثة عشرة والخامسة عشرة إلا (إبراهيم) ذا العشرة أعوام والذي يناطح طوله بقية أقرانه.

كان الطواشي (صندل) قد نقله إلى الدرجة التدريبية الأعلى منذ عام متخطيًا الكثير من قواعد المماليك، تعلم فيها ضرب السيف، وضعوا له حائطًا من الطين المعجون وأمسكوه سيفًا خفيفًا ليضرب الحائط كل يوم مائة ضربة، زادت بعد أيام لتصبح ألف ضربة، تألم الصبي لكنه سكت، كان في سباقٍ دائم لإثبات جدَارته.

حتى إنه في تدريبات ركوب الخيل وقع عشرات المرات بلا مبالغة، وأُصيبَ بجروح لا حصر لها، لكنه صمم على تنفيذ التدريبات، فامتطاء حصان بلا سرج والتحكم فيه كان غريبًا على غير المماليك لكنه مطلوب في تدريباتهم.

ملاحظات أستاذته ومدربيه أنه ليس أفضل مَن أمسك بالسيف والقوس والنشاب، ليس أليق من اعتلى الفرس،

لكنه الأكثر إصرارًا من الجميع، وهي ملاحظة جديرة بالجمع بين شيئين في نفس سامعها، الشيء الأول هو الإعجاب والثاني الشفقة، وتظل الآراء حوله بين هذا وذاك، وخاصة مع معرفة أنه مصري ومع ذلك استطاع تعلم لسان قبائل الترك والشراكسة وبعض من لغة الكرد المنضمين للمماليك.

هل أحبه الجميع؟ القول واضح في تلك المسألة، نعم الجميع يحبه لكن يخشون شيئًا ما فيه.. لا نتكلم هنا عن هيبة أو هالة من القوة، بل خشية من حكايته الغريبة، السلطان أوصى بتربيته كمملوك ومن وقتٍ لآخر يسأل عن أحواله بحذر لا بحب، الأمير (محمود السودوني) الذي يعلو اسمه سريعًا في وظائف الدولة يوصي عليه الجميع ويزوره أسبوعيًا في سابقة هي الأخرى الأولى وربما الأخيرة بأن تفتح أبواب الطباق لأي زيارات خاصة.

شقيق (إبراهيم) هو الآخر يأتي كل بضعة أشهر ليطمئن عليه، كلها أشياء تصنع الغموض على الصبي ويصبح معها الاقتراب منه دربًا من الجنون حتى بالنسبة لأقرانه من المماليك، يعاملونه بحب لكنهم يصنعون سورًا بينهم وبينه، حتى هو فهم ذلك مع الوقت وقبل بالعيش وحيدًا بلا أصدقاء.

يقف الآن أمام الأمير (تمراز الناصري) معلم الرمح الذي يؤدي حركات هجومية والتلاميذ يتبعونه وهو يمر عليهم

واحدًا تلو الآخر ليتأكد من أوضاع أقدامهم، باب الطبقة يفتح ويدخل الأمير (محمود) على ظهر حصانه وبجانبه (ماجد) بملابسه المدنية يركب فرسًا يشد لجامه بنوع من الزهو وكأنه يكيد المماليك عندما يدخل معقل تدريبهم.

توقف الجميع وصافح الأمير (تمراز) (ماجد) بنوع من الفتور بينما هللت أساريره مع (محمود) الذي كان خشداشه قديمًا.

- ما أخبار مماليك السلطان وفخر الدنيا والدين؟

امتلأ التلاميذ بالزهو من كلمات (محمود) الذي يلقي عليهم نظرات الإعجاب المصطنعة ليحسن نفسيتهم، بينما (تمراز) يقول:

- طبقة (الصندلية) تخرج أفضل رماحين المملكة، أتحب أن تراهم في الاشتباكات؟

- في وقت آخر آتيك لأشاهد المقاتلين، أما الآن فأستأذنك في (إبراهيم بن غراب).

- هو طوع أمرك بعد إذن كبير الطواشية، كل ما أرجوه أن يعود بسرعة ليكمل التدريب.

- لن يعود قبل زمن، أوامر السلطان.

الكلمات تحمل معنى خفيًا أقلق التلاميذ وأرعب (تمراز)، ناهيك عن (إبراهيم) الذي ارتجف رمحه بيديه و(محمود) يشير له ليتبعه لمبنى الإدارة، ألقى (إبراهيم) برمحه وجرى

وراء (محمـود) و(ماجـد) اللـذان ترجـلا مـن عـلى فرسـيهما يقصـدان مبنـى الإدارة.

- مـن الليلـة يـا (محمـود) تبيـت عنـدي في منـزلي مـع مماليكي، ولـك مسـامحة شـهر تقضيـه مـع أخيـك في المحروسـة مـن اليـوم، والليـل تعـود لـداري.

قـال (محمـود) عبارتـه وهـو يسـير بخطـوات سريعـة و(ماجد) ينظـر لشـقيقه المرتبك ويبتسـم.

***

جلـس (إبراهيـم) عـلى طـرف الفـراش الصغـير في ذلـك الفنـدق الرخيـص في حـارة القصاصـين، وبجانبـه جلـس (ماجـد) مرتبـكًا متأمـلًا أخـاه، كان قـد خـرجَ بالأمـس مـن الطبـاق لأول مـرة منـذ سـنين ويشـعر بالقلـق مـن كل شيء.

نـام وسـط مماليـك (محمـود) في مبنـى صغـير ملحـق بحديقـة قـصره، وفي الصبـاح أتـى (ماجـد) ليأخـذه لذلـك الفنـدق، وهـا هـو جالـس بجانبـه صامتًـا.

- من اليوم سألفُّ بك المحروسة لتراها.

- حسنًا.

قالهـا (إبراهيـم) باقتضـاب، ربـت (ماجـد) عـلى كتفـه بحنـان وهـو يقـول:

- هل أنت سعيد بالتغير الجديد؟

- سعيد.

- لا يظهر عليك.. قل لي.. هل تعتبر نفسك مملوك؟

- لا، أنا مصري.

ضحك (ماجد) وهو ينظر أمامه ويقول ساخرًا:

- الحقيقة أننا كلنا مماليك عند من يعتلي عرش مصر، ولكننا مماليك أقل طبقة من المماليك السلطانية.

لم يفهم ما يرمي إليه (ماجد) فقال بشكل آلي:

- حسنًا.

تنهد (ماجد) وعاد للنظر لأخيه قائلًا:

- عهدت فيك الاحتفاظ بالأسرار وإنك لعمري لأفضل مني في ذلك.

هز (إبراهيم) رأسه بالإيجاب بلا أي تعبير على ملامحه.

- سأعلمك في السنين القادمة أشياء تعلمتها من والدك والذي تعلَّمها بدوره من جدك، أشياء كثيرة تخص عائلتنا وغير مسموح أن يعرفها أحد حتى خشداشك.

نظر (إبراهيم) له راسمًا تعبير الدهشة على وجهه لأول مرة فأكمل (ماجد) مبتسمًا:

- ألم يعلموك أن تقدس صلة الخشداشية داخل الطبقة؟

- نعم.

- أنت مصري، تذكر ذلك في أعمق جزء داخلك، مصري

أبًا عن جد، مصري حتى آلاف السنين حتى ولو دخل في نسلنا غير المصريين.

- حسنًا.

- وأول ما ستعرفه في تاريخ أجدادك هي حكاية قديمة قدم الزمن، من آلاف آلاف السنين بمصر عاش أجدادنا مزارعين وصناع وبنَّائين، حتى نزل عليهم وحش برؤوس متقلبة كرؤوس الحيوانات وجسد كأجساد البشر.

- مَن أين أتى؟

رفع (ماجد) إصبع يده يشير إلى السماء وقال:

- يقولون هبط من الأعلى.

- ملاك؟

- لا، شيئًا آخر، كائن لا وصف له، لقبوه بـ(سخم)، لا ذكر ولا أنثى، لا بشر ولا جن، لا ملاك ولا شيطان، عاث قتلًا وذبحًا وحرقًا في المصريين لأيام طوال، كاد أن يردم نهر النيل بالجثث وتروى المزارع بالدماء، قالوا عن هذه الأيام أنها النهاية.. الفناء.. عقاب الإله عليهم، حتى جاء كاهن وأتباعه يلقبون بأتباع (توت).

- (توت)! اسم أول الشهور القبطية.

- هو كذلك، الكاهن صنع كمينًا وخدرَ الكائن، ثم

حبسه وسيطر عليه، ومن وقتٍ ما حدثَ أصبح سرَّ الكائن في يد الكاهن وورثته من بَعده، توالت الأجيال حتى وصل السر إلينا من جدنا الكاهن.. نحن عائلة (غراب) من نتحكم فيه وفي محبسه وحريته.



(5)

2008

(بودي) في المدرسة الآن وحان الوقت للبحث في حاجياته، هكذا فكرت (هالة) عمته وهي تنظف الشقة كعادتها الأسبوعية، ارتدت أقلَّ ملابسها شأنًا وربطت ذلك المنديل على رأسها.. وضعت قدر الطبخ الممتلئ بالماء على الموقد ليغلي حتى تلقي فيه الدجاج لغداء اليوم، (أحمد) و(بودي) يحبون الدجاج المشوي لكنها ترى أن سلقها وتحميرها أفضل بالطبع لتأخذ منها المرق.. من هُما ليعرفا مصلحتهما!! هي امرأة وتعرف خير من جميع الرجال الأفضل.

لم تكن متسلطة في رأيها بل ترى أن الرجال كالأطفال يطلبون ما ليس في مصلحتهم؛ لذا وجب إجبارهم بالقوة أحيانًا وإلا فلت عيارهم.

وكأن جرعة التسلُّط على حياة زوجها وأولادها لا تكفيها فتقوم بالتدخل في حياة أخيها وابنه أسبوعيًا كنوع من الرياضة الجانبية لإشباع هوايتها.

أمسكت بقطعة القماش الثقيلة المخصصة لتنفيض الأثاث من الأتربة ودخلت لغرفة (بودي) تجري عينيها عليها وتفكر كم دخلتها مئات المرات وتحفظ كل ركن فيها، أين سيخبئ ذلك الطفل ذو الاثنى عشر عامًا أسراره؟ خزانة الملابس أو الدولاب تحفظ كل ركن داخله، الفراش أهلكته بحثًا ولم تجد شيئًا.. كتب المذاكرة حيلة قديمة بالتأكيد بحثت داخلها كثيرًا.

لماذا تبحث الآن بكل همة ونشاط؟ سؤال وجيه لا إجابة نهائية له، هي أم، وعمة، ومن واجبها -كما تعتقد هي- أن تكشف كل شيء، هل يحتفظ زوجها بحسابات بنكية سرية؟ هل تتحدث ابنتها في الهاتف ليلًا؟ هل يدخل ابنها للمواقع الإباحية برغم عدم وجود الإنترنت بالمنزل؟، هل يخبئ (بودي) مجلات إباحية أو رسائل حب لفتاة أو مذكرات خاصة تافهة -من وجهة نظرها- يتحدث فيها عن حبه الأول؟

ربما جاء دافعها من طبعها الشخصي الذي يعشق السيطرة على كل ما يحيط بها، واليوم يجب أن يكون مفصليًا في كشف سرِّ (بودي).. جلست على طرف الفراش تفكر بصوتٍ عالٍ فلا أحدَ في الشقة على كل حال.

- لو كنت مكان (بودي) أي سأخبئ أشيائي الخاصة.. (بودي) خجول، ذكي، يتحدث أقلَّ مما ينبغي كأي فتى تافه

في بداية المراهقة، يحب قراءة سلاسل كتب الجيب والقصص المصورة، لو كنت مكانه أين سأخبئ أسراري.

لا أفكار.. رأت تلك الطريقة في مسلسل تلفزيوني قديم حين فكر البطل بصوتٍ عالٍ محدثًا نفسه وفجأة سقط الإلهام عليه، ولكن الطريقة لم تنجح على ما يبدو، غادرت الغرفة وخرجت لصالة الاستقبال تلتفت حولها بخبث وهي تفكر فيما يفعله (بودي) في يومه.

يعود من المدرسة، يجلس قليلًا مع (سليم) في شقته أو يشاهد التلفزيون أو يفتح الكمبيوتر يلعب لعبة سباق سيارات، ثم يأتي (أحمد) والده ويتناولا الغداء ويدخل (بودي) لغرفة الصالون ليذاكر حتى ينام.. لحظة، لقد أتى الالهام أو على الأقل أتت فكرة جيدة.

(بودي) لا يمتلك أيَّ ذكاء دراسي خاص فهو طالب متوسط أو أقل في بعض الأحيان لدرجة يمكن أن تنعته في أوقات ما بالغباء مقارنة بأولادها هي، لماذا يقضي الساعات في غرفة الصالون في المذاكرة إذًا؟ دخلتها وهي تقول لنفسها أنه برغم غبائه الدراسي إلا أنه يمتلك ذكاء من نوع خاص، ذكاء مَن يبطن أكثر مما يظهر وهو ذكاء غير مفيد في تقييمها لكنه يمكنه من إخفاء تفاصيل ما يفكر فيه.

غرفة الصالون نظفتها هي الأخرى كثيرًا ولا مكان لمداراة أي شيء، قطع الأثاث لن تسمح بإخفاء أي شيء،

حوائط الغرفة عبارة عن مكتبة خشبية تمتلئ بالكراكيب كما تراها والتي تصنف كديكور يصمم (أحمد) على الاحتفاظ بها، مزهريات بورود بلاستيكية.. تابلوهات صغيرة الحجم.. تماثيل من خان الخليلي.. الكثير من الكتب غير المتناسقة الوجود يرصها (أحمد) كنوع من الديكور ليدلل على ثقافته.

كانت الكتب في آخر رف في الأعلى ولأنها قصيرة نسبيًّا فقد فشلت في الوصول لتلك الكتب حتى مع وجود مقعد خشبي تقف عليه؛ لذلك فهي تكتفي بتنفيض الأتربة من عليها بالقماشة لأنها لن تخرج الكتب كتابًا كتابًا.

رفعت عينيها تنظر لرف الكتب وفكرت هل يستطيع (بودي) الوصول لتلك المنطقة، فهو قصير مثلها، هل يستخدم مقعدين فوق بعضهما البعض ليصعد؟؟ استبعدت تلك الفرضية لكن الفضول يقتلها لبحث تلك المسألة.

أحضرت مقعدًا خشبيًا ومقشة بيد خشبية طويلة، صعدت على المقعد وعيناها تجريان على الكتب لتتأكد من عدم وجود كتب دينية أو مصحف كي لا تحمل ذنوب، أسماء الكتب وأحجامها متباينة بشكل يوحي بأن (أحمد) يصنفها كديكور هي الأخرى.. (صحيح البخاري الجزء الثاني) (تفسير الأحلام للنابلسي) (موسوعة تربية الكتاكيت الجزء الأول) (حوار مع صديقي الملحد) (علاج البواسير والبروستاتا بالأعشاب) (تعلم الكارتية في 7 أيام)، فكرت أن

عليها إقناع (أحمد) ببيع تلك الكتب لباعة الروبابيكيا مع الكتب والروايات التي يقرأها (بودي).. مدت طرف المقشة تحاول إسقاط تلك الكتب على الأرض.

بصعوبة نجحت في إسقاط بعض الكتب والأتربة تثار في شكل غيمة أعلى رأسها فهي لم تنظف الرف الأعلى أبدًا بدقة.. هتفت بانتصار وهي ترى دفترًا ورقيًا يقع مع الكتب أرضًا، أكملت إسقاط بقية الكتب لتفهم أخيرًا أين المخبأ.. الرف من الداخل يمتلئ بكتب صغيرة الحجم وأوراق متناثرة حشرتها الكتب الضخمة الخاصة بأحمد فأخفتها، أسقطت بعض تلك الكتب بالمقشة ثم نزلت أرضًا تكاد تموت فرحًا بكنزها وهي تمني نفسها بالعثور على كتاب (ليلة الزفاف) الذي عثرت عليه عند ابنها أو ما يكافئه.. تخيلت شكل الفضيحة التي ستصنعها لبودي كي يتربى كما يجب وهي تسحب دفتر الأوراق وتضعه على طاولة الصالون برفق كأنها تعامل قطعة مجوهرات تخصها، سحبت الكتب الصغيرة من على الأرض وقرأت اسم أول كتاب لتصعق، (المرشد في رؤية الأرواح العلوية والسفلية).

ألقت الكتاب أرضًا وهي تصرخ:

- بسم الله الرحمن الرحيم.. لله الأمر من قبل ومن بَعد، لله الأمر من قبل ومن بَعد.

كتب سحر!!! فكرت هل أخطأت في القاء الكتاب أرضًا؟؟ ربما تلبسها الجان، رفعت الكتاب ثانية بيد مرتعشة

وهي تقرأ آيات القرآن التي تحفظها للصلاة، فتحت الكتاب من منتصفه.. وهي تقرأ في سرها ما وجدته في صفحة عشوائية، ((أحضِر بيضة واصنع بها ثقب بابرة، أفرغ ما بها واكتب عليها بالحبر الروحاني أول أربعاء من الشهر العربي اسم المتسلط عليه بحروف متفرقة، أحرِقها بالنار في الساعة المرصودة التي أخرجتها من اسمه حتى تتهبب البيضة وأنت...))

قطعت قراءة في الكتاب وهي تغلقه رعبًا وتعيد قراءة آيات القرآن على غير هدى.

- (بودي) ملبوس.. نعم بالتأكيد ملبوس.

قالتها ووضعت بقية كتب السحر الصغيرة بحرص على الطاولة وتناولت دفتر الأوراق متمنية أن تجد به بعض جوابات غرامية أو يوميات وإن تعاملت بقلق بسبب ما رأته.. فتحت الدفتر، قلبت الأوراق برعب مما وقعت عليه عيناها، بخط (بودي) غير الدقيق كتبت تعاويذ بشكل منظم وأشياء من قبيل ((خدام الأيام السبعة)) ((حساب الجمل الكبير)) وتحت كل عبارة شرح مستفيض بحسابات وأرقام معقدة وعشرات الأسماء الغريبة التي لم تجرؤ حتى على لفظها في عقلها.

(بودي) يدرس السحر، هكذا فكرت وهي تغلق الدفتر وتفكر بالإتصال بأحمد في عمله ليلحق تلك المصيبة.

***

جميع الطلبة تخرج من تلك المدرسة الخاصة بالمعادي في تلك اللحظة، لا تتعب نفسك بتخيل اسم المدرسة فهي تحمل اسمًا تقليديًا كالزهور والطلائع والبشاير والصفوة ويرفق بآخر الاسم لفظة (دولية)، وكلنا نعرف أن هذا النوع من المدارس لا يقرب للعالمية بشيء ولا حتى المحلية، ربما كان هناك رجل متواضع بأفكار متواضعة يختار تلك الأسماء للمدارس الخاصة قديمًا، مصاريف الدراسة تتحملها الكثير من الأسر المتوسطة والعاملين بدول الخليج المندرجين بالطبع تحت الفئة السابقة.. لذلك لا تغتر بكونها مدرسة خاصة في ذلك الوقت.

طلاب الإعدادي بملابسهم قليلة الهندام يخرجون جريًا فرحين بالخلاص من اليوم الدراسي الكئيب، وكل الأيام الدراسية كئيبة على معظم الطلبة، لكنها أكثر كآبة وملًلا ورعبًا على نفس طالب واحد فقط.. (بودي) الذي يخرج وحيدًا كل يوم يسير إلى منزله ناظرًا إلى الأرض بخجل كأنه ارتكب جريمة مخلة بالشرف.

لا تلومه فهو يشعر أنه مخطئ دائمًا ولم يعرف سبب خطئه حتى الآن، خجول من كل شيء حتى إنه ليشعر بأن الجميع يتحدثون عنه بسخرية بينهم، وضع قائمة في ذهنه للأشياء التي تشعره بالخجل من شكله، لون بشرته الأسمر، قصر طوله، شعره الأكرت، عيناه الجاحظتان، أسنانه غير المرتبة

والتي تداخلت مع بعضها البعض، ملابسه التي لا تليق على جسده بسبب نحوله، والقائمة تطول في خياله إلى ما لا نهاية.

على الرغم من حقيقة أن كثير من البنات في المدرسة يرونه وسيمًا وإن لم يصرحن له بذلك طبعًا لأنه يتجنب الحديث مع زملائه طول الوقت، وحتى لو سمع منهم ذلك لن يصدق فقد حدَّد صورةً داخلية عن نفسه لن يقبل عقله بغيرها، لذلك تراه جالسًا في الفصل الدراسي منكمشًا على نفسه يشعر بالعيون تحيطه في كل وقت، حتى الآن وهو يسير خارج باب المدرسة مبتعدًا عن الحشود.

وحيدًا يخطو منكس الرأس يحمل حقيبته المدرسية على ظهره يتطلع من وقتٍ لآخر إلى وجوه الطلبة المتحدين في جماعات كأسراب الطيور.. سرب واحد يهمه، ثلاث صديقات بينهن (سمر)، شيء متوقع طبعًا أن يعشقها بصمت حسب طفولي بلا سبب، (سمر) ليست الأجمل ولا الأكثر جاذبية، حتى لو سأل نفسه عن سبب إعجابه لما وجد ردًا.

في نفس فصله الدراسي هي منذ الابتدائية، ولم يتحدث معها إلا مرة أو اثنتين وندم على ذلك الحديث إن اعتبرناه حديثًا من الأساس، ندم لأنه لم يقل شيئًا تقريبًا، والحقيقة أنها لم تهتم به أو تبادله النظرات برغم ثقته أنها تعرف بإعجابه.

فمَنْ هذا الذي يتبعك سنوات كل يوم خروج من

المدرسة ولا يهيم بك عشقًا!، لكنها لم تشغل بالها به لأن لا خوف منه ولا عليه، وها هو اليوم يتبعهما كعادته ناظرًا لظهرها من وقت لآخر حتى ينتهي ذلك الشارع الطويل وتختفي في شارع جانبي مع صديقاتها ويسلك هو شارعًا آخر لبيته.

وصل العمارة وصعد درجات السلم بسرعة حتى وصل لشقته، الجن المتحركون حوله يسيرون برتابة ويختفون كطبيعتهم التي تعوَّد عليها، ميَّز شكل جني لا يعرف يتحرك بسرعة خروجًا من حائط شقة (سليم) لكنه تأكد من هيئته أنه جني من طبقة قليلة ممن يسكنون المنازل، لم يتخلص من خوفه تمامًا من أشكال الجان وخاصة في الشارع لأنه يرى أعدادًا هائلة تختفي وتظهر، بعضها يقترب منه فيجفل لأنه معتمد على ألا يُظهِر لهم أنه يراهم.

أخرج مفتاح شقته وفتح الباب ليجد والده جالسًا على الأريكة المقابلة للباب وبجانبه عمته (هالة) تمثِّل الحزن، دخلَ الشقة وقبل أن يغلق بابها وقعت عيناه على كتب السحر التي اشتراها منذ عام من مصروفه ملقاة بإهمال على طاولة الطعام، تسمَّر عند الباب المفتوح يحاول التفكير فيما سيقول.. لكن والده كان أسرع عندما قفز من الأريكة غاضبًا وهو يمسك بملابسه ويسحبه للداخل و(هالة) تصيح بلوعة:

- لا تضربه يا (أحمد).

أشار والده ناحية الكتب وصرخ:

- هل كفرت بدينك يا (عبد الرحمن)؟؟؟؟!!!!!

- يا بابا..

لم يكمل (بودي) العبارة بسبب صفعة من والده هزت تركيزه والدموع تخرج من عينيه قبل حتى أن يدرك ذلك.

- أتقرأ في كتب الكفر؟؟؟؟!!!!

- لم...

طبعًا لم يكمل العبارة لأن الصفعة الثانية والثالثة أتوا في ثانية واحدة، (هالة) تحاول بحركة تمثيلية منع (أحمد) لكنه أبعدها وهو يقول:

- اتركيني أربي ولدي.

- ستقتله.

الغريبة أن كلماتها كانت تعطيه حافزًا ما كأنها ترشده بأن عليه زيادة سرعة الصفعات، صرخت (هالة) وولولت والضربات تأتي لبودي في كل مكان وعلى كافة الأشكال من صفعات ولكمات على الجسد وضربات احترافية بالقدم، وسط دموعه نظر لسقف الشقة فرأى الجن يتحركون كالسحالي غير مبالين بما يحدث، اطمأن قلبه قليلًا أنه لا يضرب أمامهم فهو لا يحتاج شهودًا على الإهانة.

تـرك نفسـه لوالـده يضربـه وهـو يفكـر في أن هـذه المـرة أقـوى مـن المـرات السـابقة لكنـه سـيتحمل حتـى تنتهـي العلقـة الساخنة، نسي (بـودي) أن بـاب الشـقة مـا زال مفتوحًـا والجيران بـدأت تظهـر عـلى استحياء تتسـاءل عـن سـبب نـواح (هالـة).

- أيعجبك الآن الفضيحة التي سببتها!

قالهـا (أحمـد) وهـو يجـر (بـودي) الـذي ارتخـى جسـده مـن الألم والخجـل مـن مشـهد ضربـه أمـام الجميـع حتـى دخـل الشـقة (فتحـي) جارهـم يسـأل بطريقتـه المتعاليـة عـما يحـدث.

- الحقنا يا أستاذ (فتحي).

قالتها (هالة) بلوعة باكية فردَّ هو بسرعة:

- ما الذي فعله (بودي)؟

- مصيبة.

قالها (أحمد) فردَّ (فتحي) بسرعة وبحماسة:

- لـو كانـت مشـكلة دراسـية فهـو يسـتحق أكثر مـن ذلـك، قـم بتربيتـه يـا أسـتاذ (أحمـد)

- يـا ليتهـا مشـكلة في الدراسـة.. درجاتـه سـيئة وسـكت، المدرسـون يشـتكون مـن غبائـه وسـكت، لكـن يقـرأ في تلـك الكتـب فلـن أعتقـه اليـوم.

نظـر (فتحـي) للكتـب التـي أشـار لهـا (أحمـد) في نفـس لحظـة خـروج (سـليم) مـن شـقته مهـرولًا ليضـع جسـدَه أمـام ضربـات

(أحمد).. أما (فتحي) فقد تغيرت نظرته المتعالية وتحولت لدهشة ثم لذهولٍ وهو ينظر ناحية (بودي) الباكي.

- توقف يا أستاذ (أحمد).

قالها (فتحي) بنبرة عالية حازمة وهو يغلق باب الشقة في وجوه الجيران الفضوليين وقد تسمر كلٌّ في مكانه حتى (سليم) الذي لم يصدِّق أن (فتحي) لأول مرة ينصح شخصًا ما بعدم ضرب ابنه أو ابنته.

- ألم ترَ بنفسك يا أستاذ (فتحي)!

قالها (أحمد) وهو يحكم قبضته على ملابس الصبي و(سليم) يحاول الفصل بينهما، بينما (فتحي) يتقدم بخطوات واثقة ويقول آمرًا:

- (سليم) خذ (بودي) لشقتك حتى يهدأ.

تخلَّى الأب عن ملابس (بودي) مذهولًا من (فتحي) الذي قال:

- لا يجب القسوة عليه بهذا الشكل.

قالها وهو يضع يده على كتف (أحمد) ويسحبه برفق ناحية غرفة الصالون.

***

وضع (سليم) زجاجة كولا أمام (بودي) على الطاولة وهذا الأخير يحاول إمساك دموعه.. (سليم) في بداية العشرينيات من عمره الآن وقد تخرَّج من كلية التجارة منذ عام ويحضر نفسه لينتهي من ورق شركة محاسبة قرَّرَ أن يمتلكها في أسرع وقتٍ، لم تتغير هيئته كثيرًا سوى طوله الزائد وعضلاته التي برزت من الذهاب المنتظم لصالة الألعاب الرياضية واهتمامه بشعره وهيئته وطريقه تحدُّثه.. حسنًا لقد تغير فلن ننكر، لكنه أصبح أكثر حكمة ورزانة وإن لم تتغير أفكاره لكنه استطاع تخبئتها.

الشيء الوحيد الذي لم يتغير في حياته هي علاقته ببودي و(أحمد) عائلته التي اختارها وحافظ على صلته معها، كما استمرت جلساته شبه اليومية مع (بودي) وإن لم يعد يتناول الطعام في شقة (أحمد) يوميًّا بعدما تعلم الطبخ.

– لكن ألم تلاحظ أستاذ (فتحي) وما فعله اليوم؟

قالها (سليم) ساخرًا فنظر له (بودي) بصمتٍ.

– لقد دافع عنك يا فتى.. والأهم من ذلك أنه ارتدى قميصًا وسروالًا.. لم نرَه سوى بالبيجاما طوال حياتنا.

ابتسم (بودي) وهو يمسح دموعه و(سليم) يسأله:

– تلاعبني مصارعة على جهاز (بلاي ستيشن)؟؟

هزَّ (بودي) رأسه نفيًا فقال (سليم) يمثل الجدية:

– سيحزن (صالح) أنه لم يكن هنا عندما جاء أستاذ (فتحي) بدون البيجاما.. أتعتقد أنه وُلِدَ بها؟؟

لم يتكلم (بودي). فنظر (سليم) لساعة يده وهو يقول:

- عندي ميعاد بعد قليل، لكن سألغيه لأجلك.

- اذهب لموعدك، فأنا أفضل حالًا الآن.

- أخيرًا نطقت.

قالها (سليم) وهو يلوِّح بيده ضاحكًا، ثم قال:

- أتحب أن نتناقش فيما حدثَ؟

هزَّ (بودي) كتفيه بمعنى أنه لا فارق.

- لمحت كتب سحر على طاولة الطعام، هل تخصك؟

- نعم.

- لماذا لم تخبرني بوجودها من قبل؟

- لا أعرف.

- أتريد تعلُّم السحر؟

- لا.

شبك (سليم) ذراعيه وقال:

- تريد أن تفهم ما يحدث لك؟

هزَّ الصبي رأسه بالإيجاب.

- لكنـي أجيبـك عـن أي سـؤالٍ يخطـر ببالـك عـن الجـان، تلـك الكتـب لـن توصلـك لـشيء.. هـل أردت التواصـل مـع الجـان؟

- أريد أن أصبح مثلك.

- مثلي؟

- نعم.. تفهم كل شيء وتعرف كل شيء.

قال (سليم) من وسط ضحكاته:

- لكنني لا أعلم الكثير، وأنت بنفسك تعرف أنني طوال السنين السابقة لم أصل لهدفي.

لم يجب (بودي) فقال (سليم):

- لماذا لم تطلب مني أن أعلمك ما أعلم؟

- لن توافق.

- صحيح لأنني أتمنى أن تحظى بطفولة سعيدة بعيدًا عما أفعل.

- أنت تختار لي بغض النظر عما أريده.

الدهشة المختلطة بالاعجاب ظهرت على قسمات وجه (سليم) وهو يقول:

- كبرت يا (بودي) واستطعت المجادلة.

- أرجوك كفاك سخرية مني.

- لا أسخر لكن تعلم ما أعلم ليس بالمسألة السهلة.

- أنا تعلمت الكثير عن الجن.

- تعلمت ماذا؟

- الأقسام والعهود والطلاسم.. لم أحفظها بل كتبتها في دفتر يوميات.

- هل تحتفظ بهذا الدفتر في مكان أمين؟

- كان مع الكتب التي اكتشفها أبي.

ضحكَ (سليم) ثانية فثار (بودي) قائلًا:

- لا تضحك عليَّ.

- آسف آسف.. لكن أول قاعدة تتعلمها معي ألا تحتفظ بشيء على الورق، كل ما تحفظه يظل في رأسك.

قفز السرور في وجه الصبي وهو يقول:

- قررت أن تعلمني؟

- نعم.

- أستضمني معكم في جماعة (أرض النحاس)؟

- لا تتذاكَ، أنت تعرف بأنها إرث عائلي، لكن سأعلمك ما تحتاجه حتى تقول إنك اكتفيت، ولو خالفت تعليماتي في أي يوم سأتوقف.

- اتفقنا.

نهض (سليم) واتجه لغرفة نومه وهو يقول:

- سأبدِّل ملابسي سريعًا لألحق بميعادي.

- هل ستراقب (مالك غراب) الليلة؟

أتاه صوت (سليم) من غرفة النوم يقول:

- نعم، لكن لن أقترب منه.

- هل وجدت دليلًا بعد على تورطه في الحادثة؟

- لا.

مرت دقائق وخرج (سليم) يقول:

- الآن سألقن قريني ثم أصالحك على والدك، لن آخذ الكثير.

أحضر منديلًا قماشيًّا وجلس على مقعد بينما (بودي) يقول:

- أنا أحفظ ما ستقول، هل أخبرك؟

ابتسم (سليم) وهو يقول:

- لا وقتَ للهزل، سأنتهي في دقائق.

وضع المنديل على وجهه ليغطيه وهو يسترخي في المقعد ويتمتم بتعويذة، بينما (بودي) يلتقط زجاجة الكولا ويشربها بهدوءٍ وهو يشاهد (سليم) الذي انتهى من التمتمة وتصلَّب جسده وانتفض مرتين ثم ارتخى.. ارتفع المنديل القماشي للأعلى كأن رأس (سليم) قد تضاعَف حجمها، ومن تحت المنديل قال (سليم):

- اسمي (سليم عبد الغفار جاد الرب)، مصري، أعيش بمنطقة المهندسين، والدي يعيش مع والدتي في محافظة البحيرة بقرية صغيرة، ليس لي إخوة، لا صلة لي بعالم الجان أو العفاريت، جبان، قليل الذكاء، أحلم بالمال والغنى.

أعـاد (سـليم) التمتمـة ثانيـة فعـادَ حجـم رأسـه لطبيعتـه وانتفـض جسـده لمـرة أخـيرة وسـكن وهـو يزيـح المنديـل عـن وجهـه ويتنفـس بصعوبـة، (بـودي) عـلى الجانـب الآخـر أكمـل شرب الكـولا وهـو يقـول:

– هل تم استجواب قرينك من قبل؟

– بضع مرات.

– وهل (مالك) هذا من استجوبك؟

– لا.. هـو الآن متـزوج ولـه طفلـة ويعيـش حيـاة طبيعيـة لا جـن فيهـا.

– وما الذي يجعلك متيقنًا من أنه مثيرٌ للشكّ؟

– شـقته يـا (بـودي).. لقـد طلسـمَ شـقته كـي لا يدخلهـا الجـن، كأنـه يخشـى عـلى نفسـه وأسرتـه، بالإضافـة لـشيء آخـر.

– ما هو؟

– اسـمه في الأوراق الرسـمية لا يحتـوي عـلى اسـم (غـراب) ومـع ذلـك هـو مشـهور بـه كاسـم عائلتـه.

– اسم مضحك.. لكن ما مشكلته؟

– فيما بعد سأخبرك.

***

تقدم (فتحي) بسيارته العتيقة في الطريق المؤدي لقرية (شاترمة) بأسوان، ولكن قبل أن يصل للقرية توقف بسيارته على جانب الطريق المحاط بالأراضي الزراعية من الجانبين، خرجَ من سيارته يتأكد من أنه وصل للنقطة الصحيحة، أغلق السيارة جيدًا وسط زراعات القصب مسترشدًا بالقمر المكتمل تلك الليلة، بعد عشر دقائق سيرًا على الأقدام وسط مساحة فارغة من المزروعات يقبع بها منزل من الطوب الأحمر يتكون من طابقين، أمامه يجلس شاب أسمر اللون على دكة خشبية، يرتدي جلبابًا أزرق ويضع قدمه من تحته ممسكًا بسيجارة يدخنها بنهم وهو ينظر للقمر.

انتبه الشاب لفتحي وهو يتفرس في ملامحه قبل أن يقترب منه :

- (فتحي)!!!! أتيت في غير موعدك!!!، خيرًا؟

- أريد الحاج (حسين) في أمرٍ عاجلٍ.

- لكنه نائم، هيًّا لتبيت الليلة في المنزل وفي الصبا....

قاطعه (فتحي) وهو يجلس بجانبه على الدكة:

- لا وقت عندي، يجب عليّ السفر بعد قليلٍ للعودة للقاهرة.

- أتتحمل نتيجة استيقاظه في هذا الوقت؟

- أتحمل.. وأعدّ لي كوب شاي في طريق عودتك.

نهض الشاب متثاقلًا وهو يلقي بالسيجارة أرضًا.. مرت ربع ساعة قبل أن يأتي الشاب بكوب الشاي لفتحي الذي التقطه وهو يشعل سيجارة صامتًا.

- ادخل يا بني.

جاء الصوت العجوز صائحًا من الداخل فجرى (فتحي) بعد أن وضع كوب الشاي جانبًا وألقى بالسيجارة، دخل المنزل المتواضع الذي يجلس داخله الحاج (حسين) على مقعد قديم اهترأ قماشه، (حسين) كان عجوزًا امتلأ وجهه بالتجاعيد التي تعطيه عمرًا أكبر من عمره الحقيقي، برغم أنه في الستين إلا أن الشمس تكفلت بإظهاره في الثمانين، لكنَّ الحيوية ما زالت تدبُّ في أوصاله وتتجلى في حركته السريعة وانتصاب ظهره.. حليق الوجه خفيف الشعر أشيبه، يرتدي طاقيةً من القماش على رأسه وجلبابَ منزل تم كيه بعناية.

كان (حسين) ينفض آثار النوم عن رأسه وهو ينظر لفتحي الذي تقدَّم منه والتقط يده يقبلها ويقول:

- سامحني لكن الأمر غريب وأحتاج مشورتك.

- لا عليك يا ولدي، اجلس وهات ما عندك.

جلس (فتحي) متأدبًا على مقعد قريب وقال:

- أول أمس اكتشفت أن (عبد الرحمن) يقرأ في كتب السحر.

سعل (حسين) ثم قال بهدوء:

- هل أوصلها له (سليم)؟

- لا لا.. كتب سحر غير مُهِمَّة منتشرة في القاهرة عند بعض باعة الكتب، (سليم) لا يعلمه شيء بل يجيبه من وقتٍ لآخر عن أسئلته، لكن أتعتقد يا حاج أن الطفل قد أصبح جاهزًا؟

- أنت قلتها بنفسك.. طفل، لن يتحمل ما نريده.

- لكني وجدت دفترًا يكتب فيه ما جمعه من كتب السحر.

- ألعاب صبيان لا خوفَ منها، يكفيه الآن أن يتعوَّد على هيئة الجان وأن ينزع الخوف من قلبه تدريجيًّا.

- لكنه ما زال خائفًا، نفسيته مدمرة مما يشاهده ولا يفصح به لأحد.

- ألم تقل إنه يحكي كل شيء لسليم؟ إذًا فقد وجدَ متنفسًا.

- أخشى عليه من الجنون.

- أنت متعاطف معه لا أكثر ولا أقل، هيَّا عُدْ للقاهرة وزُرْنِي المرة القادمة وأنت تحمل أخبار (مؤيد) ورجله (يوسف) في مصر.

نهض (فتحي) ليغادر لكنه توقَّف واستدار لحسين قائلًا:

- علمت خبرًا عن الغرفة النحاسية.. لقد دمرت.

- لا تشغل بالك، صراع الغرفة النحاسية لا يخصّنا في شيء،

ستختار الغرفة سيدًا جديدًا لها وهذا يعطينا الوقت قبل أن يكشف ما يعيقنا، اذهب أنت ولا تنسَ أن تخفف من فتح الرؤية لعبد الرحمن، أعطه فترة راحة طويلة بين كل مرة تفتح له الرؤية وتغلقها.



(6)

1391 م - القاهرة - مصر

عـاد السـلطان (برقـوق) للحكـم ثانيـة، تسـأل وهـل تركـه؟ كلُّهـا أمـور وملاعيـب مماليـك فـلا تشـغل بالـك، باختصـار في 1389 قـام (يلبغـا النـاصري)_ تشـعر بأنهـم جميعًـا يسـمون يلبغـا_ بانقـلاب عسـكري عـلى السـلطان (برقـوق)، حشـد جيشًـا مـن مماليـك الشـام ودخـل في معـارك عـدة حتـى هـزم (برقـوق) وسـجنه في (سـوريا) وولى مكانـه السـلطان (صـلاح الديـن حاجـي) لمـدة عـامٍ واحـد.

انقلــب بعدهــا المماليــك عــلى (يلبغــا النــاصري) بعــد أن دعمـوه، حـرروا (برقـوق) مـن محبسـه وأمـدُّوه بجيـش دخـل بـه مـصر وعـاد لكـرسي العـرش، التفاصيـل كثـيرة لكـن كـما تـرى كلهـا أمـور مماليـك تعـوَّدوا عليهـا.

المهـم أن الأمـير (محمـود السـودوني) تحـوَّل إلى الأمـير (محمـود الأسـتادار)، تـولى كل شـؤون المـال في الدولـة المملوكيـة بعـد عـودة (برقـوق)، ارتفعـت درجاتـه أكثـر لأسـباب عديـدة أهمهـا أن (يلبغـا النـاصري) كان يكرهـه وألقـاه في السـجن فـترة، وكان

هذا كفيلًا بإعطائه شهادة تقدير عند (برقوق) الذي رفعه إداريًا وأطلقَ يده في شؤون الدولة.

وعاد طباق القلعة للعمل ثانية لتدريب المماليك السلطانية، ومن بينهم (إبراهيم بن غراب) والذي أطلق (محمود) عليه لقب (سعد الدين) لبشاشة وجهه، طوال الخمس سنوات السابقة وهو يبيت في داره كل ليلة، ومع الوقت أحبَّه (محمود) واعتبره ابنًا، فقد حذَّره رويدًا رويدًا لدرجة أنه ولاه هذا العام شؤونه المالية الخاصة برغم سنه الذي لم يتعد السادسة عشر، لم يبخل (محمود) عليه بالتربية وحسن المعاملة والإرشاد والتعليم، حتى إنه ألحقه بمجلس (إبن خلدون) الذي يلقي فيه دروسًا عن العمران البشري والذي سيسمى فيما بعد باسم (علم الاجتماع)، و(إبراهيم) حاز على إعجاب (ابن خلدون) وصداقته.

- لي عندك حاجة يا شيخي؟

قالها (إبراهيم) في مجلس (ابن خلدون) الذي نظر له وسأله:

- الحاجة في درس اليوم أم أمور الدنيا؟

- في أمرٍ خاص.

- بعد المجلس إذًا.

كان مجلسًا في دار (ابن خلدون) يُعقَد كل خميس ليلًا، يحضره عددٌ محدودٌ من الطلاب انتقاهم الرجل بعناية،

يجلس (إبراهيم) بجانب صديقه (أحمد) الذي يكبره بأعوامٍ كثيرة لكن جمعت بينهم صفات الوحدة وحُب القراءة والذكاء، تعرف على (أحمد) في هذا المجلس وأحبه (إبراهيم) لأنه عامله كمصري لا مملوكي مثلما يعامله الجميع.

انتهى المجلس وانصرف الطلاب إلا (إبراهيم) و(أحمد) اللذين نهضا يقفان جانبًا في انتظار أن يسمح لهما الشيخ بالكلام، جمع (ابن خلدون) أوراقه وطوى كتبه التي كان يقرأ منها وقال بصوته الرخيم المميز:

- (إبراهيم) يحتاجني، فما حاجتك يا (أحمد)؟

قال (أحمد) بفرحة:

- (إبراهيم) سيتزوج الخميس القادم يا شيخي.

ضحك (ابن خلدون) وهو يقول:

- هو سيتزوج، ما سرُّ سعادتك أنت؟

- سعيد لأنه سيتزوج.

كان (ابن خلدون) لطول إقامته في مصر فهمَ دعابات المصريين وما يطلقون عليه (خفة الدم)، وعلمَ أن (أحمد) يمتلك روح دعابة طاغية لكنه يدربه على أن يتخلى عنها.. تكلم (إبراهيم) بجدية وأدب يقول:

- أدعوك لعقد قراني إن آذنت لي.

- سأحاول زيارتك إن أنهيت مجلسي سريعًا، وطبعًا (أحمد

المقريزي) لن يحضر مجلسي، سيكون معك أليس كذلك؟

قالها (ابن خلدون) بابتسامة خفيفة فهز (أحمد) رأسه بحماس وهو يقول:

- وقبل عقد القرآن سأحضر تأميره.

أخذت الدهشة (إبن خلدون) وهو يردِّد:

- تأميره!!!

- نعم يا شيخي، الأمير (محمود الأستادار) طلبَ من السلطان إقامة مراسم تأمير لي قبل عقد قراني.

سرح (ابن خلدون) بخياله للحظات ثم نظر لأحمد المقريزي وقال بلهجة أمرة:

- اخرج أنت الآن، أحتاج لإبراهيم على انفراد.

أطاع (أحمد) الأمر بلا مناقشة.

- اجلس يا (إبراهيم)

- سمعًا وطاعة.

- تقول إنك ستتأمّر.

- نعم.

- بمراسم تأمير المماليك؟

- بإذن الله سأخرج من الطباق في نفس يوم التأمير.

- أنت أول حُر يتأمّر كالمماليك، زاد شأنك وعلت مكانتك يا (إبراهيم).

- بركتك ودعائك يا شيخي.

- اسمع يا بني، أنت الآن في فُرصةٍ لم ولن تسنح لأحد بعدك، أول مصري يصعد بين الحكام ويناطحهم الإمارة، فكُنْ طَموحًا عاقلًا واصنع ما لم يصنع غيرك تعلو سيرتك وتزهر في عقول وقلوب العامة مهما مضى من السنين.

- أتعرف فيما أفكر يا شيخي؟

- أعرف.. ستجدني في ظهرك دائمًا.

- وإن فشلت في مسعاي لا قدَّر الله.

- سيتناساك العامة ولن يبقى من سيرتك سوى عاش (إبراهيم بن غراب) وأكل الطعام وماتَ.

***

اقترب الغروب وحانت ساعة احتفال التأمير، القلعة كلها تتناقل خبر ما يحدثُ بالدهشة والحيرة والشكوك، من هذا الذي بلغ السادسة عشرة من عمره ويتأمر في احتفال لا يحظى به معظم المماليك حتى ممن تولوا أعلى المناصب، يكفي المملوك أن يكتب له السلطان منشور بتأميره فيتدرج في مناصب الإمارة من أمير خمسة إلى أمير عشرة إلى أربعين إلى أمير مائة إلى أمير ألف وربما بعد كل هذا لن يحصل على احتفال تأمير حتى موته.

ناهيك عن أن تلك العادة تقريبًا اختفت منذ تولي السلطان (برقوق) والأمير (محمود) الذي لم يتأمَّر هو الآخر

طلـب منـه إعادتـه لأجـل (إبراهيـم)، الألسـنة تتناقـل أن (محمود) يسـيطر عـلى السُّـلطان لدرجـة تنصيـب مـصري كأمـير مملوكـي.

الطبـول تـدق في جنبـاتِ القلعـة، و(إبراهيـم) يدخـل قاعـة العـرش مرتديًـا حلـة المماليـك السـلطانية، يتقـدَّم حتـى يقـف بالقـرب مـن السـلطان، ينحنـي عـلى ركبـة واحـدة ويقبـل الأرض بـين يـدي السـلطان الـذي أعجـب بتلـك اللفتـة، يخلـع السـلطان عمامـة (إبراهيـم) ويضـع عـلى رأسـه (الشربـوش) الـذي يشـبه التـاج لكنـه مثلـث الشـكل ومطـرز، ينهـض (إبراهيـم) بـكل احـترام ويأخـذ يـد السـلطان يقبِّلهـا فيربـت (برقـوق) عـلى ظهـره بحنـان.

يقـف (محمـود) مزهـوًا كأنـه هـو مـن يتأمَّـر، وبجانبـه يقـف أمـير أخـور وأمـير جانـدار وأمـير السـلحدارية، أعـلى رؤوس الدولـة تشـاهد المراهـق الخبيـث الـذي أصبـح أمـيرًا محبوبًـا لـدى السـلطان، ينضـم إليهـم (إبراهيـم) فيخرجـون جميعًـا عـدا السـلطان ويركبـون الخيـل ليغـادرو القلعـة في موكـب هائـل مـن الجنـود.

يقطـع الموكـب شـوارع القاهـرة المزينـة الممتلئـة بفـرق العـزف والغنـاء والعامـة يلوحـون للأمـراء الذيـن يرشـون الدراهـم يمينًـا ويسـارًا بوجـوه مبتسـمة وقلـوب تشـتعل فيهـا نـارُ الحقـد.. الموكـب يصـل إلى المدرسـة الصالحيـة عنـد (بـين القصريـن)، ينـزل الأمـراء أمـام قـبر الملـك (الصالـح نجـم الديـن أيـوب).

بقية الأمراء وكبار رجال الدولة ينتظرون عند باب القبر ووسطهم يقف (ماجد) يبتسم بسعادة، يترجل (إبراهيم) ليدخل القبر مع حاجب الحجاب ويرفع يده اليمنى قائلًا كما حفظ ((أقسم بالله سبحانه وتعالى وبالقرآن الكريم وسيدنا محمد النبي الأُمّي أن أظَلّ طوال حياتي مخلصًا للسلطان، متفانيًا في خدمته ومحبته ونصحه، وأتعهد أن أكون وليًا لمن والاه وعدوًا لمن عاداه)).

ثم يصيح حاجب الحجاب بأن يقرأ الجميع الفاتحة للملك (الصالح نجم الدين أيوب) من جمع المماليك تحت لوائه وكان لهم الأب والسند.

انتهى التأمير بمباركة الجميع لإبراهيم الذي طافَ على جميع رجال الدولة محييًا حتى وصل لأخيه (ماجد) الذي تلقفه بين ذراعه بفرحة غامرة، ثم جاء دور مصافحة (ناصر بن دوام) الذي باركَ لَهُ وهو يشد على ذراعه و(إبراهيم) يقول بفرحة:

- بعد قليل نذهب لعقد القران يا حماي.

نعم فماجد اختار عروسًا تناسب (إبراهيم)، (فاطمة) ابنة (ناصر) حتى يضمن ولاءه.

(7)

2011

طـلاب الصـف الثـاني الثانـوي يخرجـون مـن المدرسـة، الشـوارب بـدأت في الظهـور والأصـوات اخشـنَّت والشـهوات تغـيرت، عرفـت الطفلـة أنهـا فتـاة وعلـمَ الفتيـان بـأن هناك أشياء أجمل في الحيـاة من لعـب الكرة وألعـاب الفيديو جيـم، الفتيات والفتيـان كلٌّ منهـم لاحـظ الآخـر بصـورة مختلفـة، انفصلـت عوالمهـم وأصبـح كلُّ عـالمٍ غامضًـا حالمًـا عنـد الآخريـن.

تطـورت الهواتـف المحمولـة وأصبـح مـن الممكـن لطالـب ثانـوي أن يشـغِّل عليهـا أغنيـة كاملـة بصـوت عـالٍ يكفـي ليصـل لحبيبتـه، فتشـغل هـي الأخـرى أغنيـة تـردُّ بهـا عـلى أغنيتـه، ويظل هـذا الإزعـاج اللـزج يحيـط (بـودي) الـذي ظـل عـلى حالـه.

يشـعر أن الجميـع يسـتمتع بعمـره إلا هـو، تتزايـد التسـاؤلات داخلـه عـن شـعور زميلـه في المدرسـة الـذي يخـرج بصحبـة زميلتهـم يسـيرون جنبًـا إلى جنـب منعزلـين عـن صخـب الشـارع حالمـين بعـالم خيـالي يجمعهـم في جزيـرة بعيـدة أو أي مـن هـذه الأشـياء التـي يحلمـون بهـا.

ظلت عادة تتبع (سمر) كما هي وخاصة أنها تشاركه مع بعض الزملاء في درس اللغة الفرنسية الخاص، سنحت له بعض الفرص لإلقاء نظرات عليها من قرب، الغريب أنه أحبَّها أكثر وأُعجَب بملامحها أكثر، لم تكن الأجمل كما قلنا سابقًا لكن ملامحها صارت هي الأجمل بالنسبة له.

والمشكلة أنها تتجاهله عمدًا كأنه هواء يعبر أمامها، منذ سنوات لم يكن يملك الجرأة ليعبِّر لها عن إعجابه، وما زال يفتقد للشجاعة، لكنه امتلك شيئًا آخر، أو بالتحديد العديد من الأشياء التي علمها له (سليم).. طاردته فكرة أن يستعمل ما تعلمه ليجذب انتباهها.

الفكرة لم تخطر على باله فجأة، بل تدرجت في السيطرة عليه حتى تملكت منه اليوم، ها هو يقترب من منزله ويصعد السلم، يدخل الشقة، لن يعود والده قبل ساعتين؛ فرصة كافية ليفعل ما فكر فيه.

سيمارس الرومانسية التي أرادها لكن بطريقته، (سمر) ستنبهر به وبرومانسيته، دخل الحمَّام ليتحمم سريعًا، أحضر طبقًا من المطبخ ممتلئًا بالماء، فتح أحد أقلام الحبر وكسر الأنبوب لتقع قطرات الحبر داخل الماء، أحضر دبوسًا عقمه بالنار ونغز به إصبع الإبهام، تساقطت بضع قطرات من الدماء داخل الماء مختلطة بالحبر.

جلس بغرفته واضعًا الطبق أمامه وهو يُخرِج هاتفه

المحمـول ويفتحـه عـلى صـورة لسـمر قطعهـا مـن صـورة أكـبر مـع زميلاتهـا في رحلـة مدرسـية.. حصـل عـلى الصـورة مـن الملـف الشـخصي لأحـد زملائهـم المشـتركين، وضـع الهاتـف المحمـول بجانبـه وقـال:

- عرشٍ عرشٍ فرشٍ فرشٍ نموءٍ نموءٍ...

كررهـا 1100 مـرة وهـو يعـد عـلى عقـل أصابـع يـده بطريقـة حسـابية علَّمهـا لـه (سـليم)، عندمـا وصـل للرقـم المطلـوب دار الحبر والدمـاء في وسـط المـاء كأن شـخصًا مـا يقلبهـم بملعقـة خفية، ابتسـم لنجاحـه، وقـال وهـو ينظـر للصـورة عـلى الهاتـف المحمـول:

- يـا مـن حـضرت بفتحـي تشـكل في هيئتـي وصـورتي واذهـب إلى (سـمر) مَـن أنظـر لهيئتهـا الآن، ادخـل موضـع نومهـا بعـد منتصـف الليـل وأيقظهـا.. أخبرهـا أني أحبهـا.

كـرر مـا قالـه ثـلاث مـرات حتـى توقفـت الدمـاء والحـبر عـن الـدوران، تخللتـه السـعادة وهـو يتخيـل وجههـا الليلـة، سـتهيم بـه حبًـا بـكل تلـك الرومانسـية المبتكـرة.

***

وضـع (يوسـف) ثلاثـة ملفـات أمـام (سـليم) عـلى الطاولـة في تلـك الكافيتيريـا، تناولهـم هـذا الأخـير وقرأهـم عـلى عجـل، كانـت ملفـات ثلاثـة رجـال تـتراوح أعمارهـم بـين نهايـة العشرينيـات والثلاثينيـات، يعمـل كلٌّ منهـم في مـكان مختلـف، اثنـان منهـم لـه أسرة وأطفـال وثالثهـا مطلـق.

- أعلم عن هؤلاء بالطبع وراقبتهم من فترة.

قالها (سليم) وهو يلقي بالملفات ليوسف، الحقيقة أن مقابلات هذا الأخير لسليم قليلة جدًّا، فمنذ أتى (يوسف) من سلطنة (عمان) عندما أرسله (مؤيد) كان يعمل وحيدًا، لم يبلغ (سليم) بالكثير من المعلومات وكان جليًا أن ولاءه لمؤيد الذي يعلم كل شيء أما (سليم) فعلم بالقليل مما توصل إليه (يوسف) في السنوات السابقة.

(يوسف) كان رجلًا يغيظ (سليم)، لأنه في الأغلب أعلى منه في علوم السحر، وله مواجهات حقيقية استخدم فيها ما يعلمه عكس (سليم) الذي يحفظ أكثر مما يطبق.

الاثنان يجمعان معلوماتهما بطريقة مختلفة، (مالك غراب) يراقبه الاثنان على فترات متباعدة ويثقان أنه لا شيء عليه يدينه، وكان الحل البديل هو مراقبة أصدقائه إن استطاعا.

لم يتبادلا الكثير من المعلومات كما قلنا، لكن ثلاثة أصدقاء لمالك ابتعدوا عنه فجأة عام 2006، الوقت الذي انتهت فيه مذبحة السحرة الطويلة التي قضت على العشرات منهم، ومارَسَ كلٌّ واحدٍ فيهم حياته بطريقة طبيعية ولم يتقابلوا بعدها، الغريب أن الثلاثة كانوا من طريقٍ واحدٍ غير معترف به من بقية طرق التصوف، فهل لهذا معنى!!

- أعلم بأنك تعلم معلومات عنهم، أنا أطلعك على الملفات لأنني سأبدأ التحرك عليهم.

- أي تحرك!!!

- الغرفة النحاسية في سَلطنة عمان تجهزت للسيطرة على الملك الثامن، سأتحرك من مصر للوصول لمكانه وأنت ستكون مساعدي للسيطرة عليه.

هز (سليم) رأسه غير مصدق وهو يقول:

- سيطرة على مَن؟ لو كنا اكتشفنا مكانَ هذا الشيء لدمرناه، وما علاقة هؤلاء الثلاثة بالملك الثامن، هل ظهرَ دليل أنهم من يتحكمون به وليس (مالك غراب)؟

- نحن لا نعلم حتى الآن إن كان (مالك) هو الهدف أو هو مَن قتل عائلتك.

- لقبه الذي يتبناه في العمل والحياة هو (غراب) ليس صدفة أن يكون حفيد (إبراهيم بن غراب) ويتحكم فيما تحكم به جده.

- جميل ولكن كيف سنعرف؟

لم يجد (سليم) إجابة فأشاح بوجهه بعيدًا لكن صوت (يوسف) أتاه قائلًا:

- سنلعب على نقط الضعف التي امتلكها أصدقاء (مالك)، الأسرة، الزوجة والولد، (جمال) صديقه هو هدفي الأول، وهو من سيطلعني على أسرار (مالك).

- ولو تدخل (مالك)؟

- هذا هو المطلوب، أن يحاول (مالك) إخراج الملك الثامن من مكمنه ليدافع عن أصدقائه، عندها سنأسره

- ولو لم يتكلم (جمال)؟؟

لم يظهر أي تعبير على وجه (يوسف) فاعتدل (سليم) بمقعده وقال:

- ستقتل رجلًا بريئًا؟

- عن أي براءة تتكلم؟

- لا تفعل ودعنا نجد وسيلة أخرى.

بكل غطرسة لوح (يوسف) في وجهه وهو يقول:

- اسمع يا (سليم) أنا طلبت مساعدتك لا رأيك، لقد حددت كل شيء وسأتحرك، وأنتظر منك ردًا خلال أيام.

***

دخل الطلاب إلى المركز التعليمي الذي يتلقون فيه دروس اللغة الفرنسية الخاصة، مسيو (فوزي) يقف في الغرفة والطلاب يدخلون واحدًا وراءَ الآخر بما فيهم (بودي) الذي كان يبحث بعينيه عن (سمر) ولم يجدها.

والغريب أنها غابت عن المدرسة اليوم، جلس الطلاب على المقاعد ومسيو (فوزي) يقول بصوته الأخنف قليلًا:

- أين (سمر)؟ أتقف بالخارج وستدخل أم ماذا؟

إحدى صديقاتها قالت:

- عندها ظرف مرضي.

- ماذا حدث؟

- شقيقتها أخبرتنا بأنها مرضت بالأمس، ظلت تصرخ خائفةً حتى أغشي عليها ونُقلَت للطوارئ، هي اليوم في المستشفى في حالٍ أفضل، زرتها أنا وبعض الزملاء.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، بعد الحصة الدراسية سأخذ رقم هاتف أبيها منك لأطمئن عليها.. والآن لنبدأ درس اليوم.

امتقع وجه (بودي) بينما مسيو (فوزي) يتحدث عن تصريف الأفعال بحماسة.

***

انتهى (بودي) من رواية قصته لسليم الجالس أمامه بشقته، حرك هذا الأخير طرف لسانه على شفتيه وهو يحدق في (بودي) القلِق، خيم الصمت على المكان و(سليم) يهز قدمه اليمنى في موضعها بعصبية ولا يتوقف عن تسليط نظراته على (بودي).

- (سليم) قُل شيئًا لا تتر خوفي.

- كم الساعة في يدك؟

نظر (بودي) لساعة يده بقلق فهو يعرف أن (سليم) سينفجر في أي لحظة.

- الساعة الثامنة.

- جيد.. ابقَ بمكانك حتى أعود.

قفـز مـن مقعـده بخفـة ليخـرج مـن بـاب الشـقة ويـضرب جـرس بـاب شـقة (بـودي)، فتـح لـه (أحمـد) وأدخلـه.. الألم أعلـن في معـدة الفتـى خوفًـا وقلقًـا لكنَّـه تحمَّـل وهـو يمني نفسـه بـأن (سـليم) لـن يقنـع أبـاه بـأن يضربـه مثـلًا، وبالتأكيد لـن يخبره عـن تعلُّـم السـحر.. ارتفعـت شـدة الألم و(بـودي) يمسـك معدته بيـده في نفـس لحظـة عـودة (سـليم) الـذي قـال وهـو يسـحب مفاتيحـه المعلقـة بجانـب البـاب:

- هيًّا لتذهب معي لمكان، استأذنت أبوك بأنك ستتأخر.

- ماذا قلت له؟

- هيًّا ولا تناقش.

نـزلا السـلم خارجـين مـن العـمارة و(سـليم) بنفـس الوجـه البـارد المتحفـز وهـو يفتـح بـاب سـيارته المركونـة ويدير محركهـا ثـم يشـير لبـودي بالركـوب بجانبـه، أطاعـه وانطلقـت السـيارة تنهـب الطريـق نهبًـا و(بـودي) يطـرح بعقلـه كل الاحتـمالات ولكنـه لم يصـل لـشيء، توقفـت السـيارة بجانـب كشـك سـجائر وخـرج (سـليم) ثـم عـاد ليكمـل قيـادة، المصيبـة أنـه لا يعـرف الطـرق جيـدًا خـارج منطقـة (المعـادي)، فهُـما الآن بالقـرب مـن جبـل المقطـم الـذي يعرفـه طبعًـا لكـن لم يقربـه مـن قبـل، أكملـت السـيارة طريقهـا حتـى توقفـت بجانـب منطقـة مقابـر، الظـلام

والوحشة وصوت الرياح صنعوا هيبة لم يرَ الفتى مثلها من قبل.

خرج (سليم) من السيارة وأشار له ليتبعه ففعل، (سليم) يتحرك وسط أحواش المقابر المظلمة التي علقت عليها من الخارج لافتاتٌ من الرخام محفور بها أسماء عائلات، لكل عائلة سور يحيط بفتحة القبر وباب من الحديد مغلق بسلسلة من الحديد عليها قفل.

لدقائق سار الاثنان حتى وقف (سليم) أمام حوش قبرٍ بلا لافتة ويظهر عليه حداثة الإنشاء، أخرج سلسلة مفاتيحه وقام بفتح القفل وهو يقول بفتور:

- هذا القبر الجديد اشتريته منذ عامين، أليس غريبًا أن أتمنى دفني غريبًا في بلد غريب عني؟

دخل وسط الظلام لا شيءَ يضيء في المكان سوى ضوء باهت من القمر صبغ المكان بلون رمادي، أخرج (سليم) هاتفه المحمول وأضاء الكشاف وهو يقول ببرودٍ:

- لن ترى جنًّا هنا، فهم يحترمون الأموات.

الحوش عبارة عن أرض رملية زرعت في أجزاء منها أشجار قصيرة لم تنمُ بعد، ووسط تلك الأرض فتحة القبر المربعة وبجانبها حجر على نفس مقاسها أبعد قليلًا، على ضوء الكشاف نزل (سليم) سلم القبر الحجري و(بودي) يتبعه بصمت حتى وصلا إلى أرض القبر الداخلية، رائحة

التراب والعطن تسري في أنف الفتى لكنه ظل يمني نفسه بأن هنا لتعلُّم شيء جديد.

التفت له (سليم) وأغلق ضوء كشاف الهاتف المحمول فسبح القبر في الظلام إلا درجات السلم الحجرية التي وقع عليها ضوء القمر.

- تخاف أنت من كل شيء يا (بودي)، العفاريت التي تراها منذ صغرك ومع ذلك تخشاها، الفتاة التي تحبها من قبل حتى أن تفهم معنى الحب خفت الاقتراب منها، وبدل من المواجهة جئت لي لتعليمك السحر كي تتواصل مع مخاوفك، وحتى هذه الخطوة لم تقدم عليها بل استخدمت ما تعلمته لتحصل على قلب فتاة لا تريدك.. ألا ترى معي المشكلة؟ المشكلة هي أنت.

شعر فجأة (بودي) بدفعة في صدره من يد (سليم) القوية ألقته أرضًا، هو لا يراه لكنه يعلم مصدر صوته الذي قال بنفس البرود:

- ألم تفكر للحظة في خوف تلك الفتاة البريئة؟

تحسَّس (بودي) الأرض وعاد للنهوض وهو يرى خيالًا توقع أنه (سليم) يقترب منه قائلًا:

- ما بك؟ أتخاف أن ترد عليَّ.

تبع قوله بدفعة أخرى من يده أوقعت (بودي) ثانية فقال صارخًا:

- لن تستفزني.

- أتعتقد أنني أستفزك لأثير ملكاتك مثلًا؟، أنت تكثر من مشاهدة الأفلام.

تبع قوله وهو يصفع (بودي) على وجهه فصرخ هذا الأخير حقدًا وهو يمسك الظلام بيده في وضع الجلوس حتى عثر على قدم (سليم) فأمسك سرواله يستند عليه لينهض، لكنه شعر بيد (سليم) تحيط بعنقه وترفعه وهذا الأخير يقول:

- أين هي القوة التي شعرت بها وأنت ترسل هاتفًا لفتاتك؟ أنا لا أعلمك درسًا جديدًا، أنا أكرهك وأكره نفسي.

تجرأ (بودي) وضربه في وجهه مرتين لكن (سليم) ظلَّ قابضًا على رقبته وهو يقول بنبرات تعلو تدريجيًّا:

- أين القوة التي تسري في عروقك وتوهمك بأنك ملكت الدنيا وتسلطنت عليها؟، ما بقي لك في حياتك؟، أتقتل فتاتك في المرة القادمة؟ أتقتل الناس غيلة بعد أن أكمل تعليمك؟ أين هو طريقك؟ أين هدفك السامي؟ أين قاعدتك الأخلاقية؟

لم يفهم (بودي) كلمة مما سمع، وبرغم ألم رقبته إلا أنه اندهش من (سليم) الذي يوجِّه له حديثًا لا يقصده به، لم ينتظر كثيرًا لأنه شعر بسليم يلقيه أرضًا في الظلام وهو يقول:

- أنت تعلمت بما فيه الكفاية، حان الوقت لتجرب.. استدعِ جنيًا وتواصل معه ليقبل بأن يكون خادمك.

رأى (بودي) (سليم) يصعد درجات السلم وهو يقول صارخًا:

- لو فكرت في الصعود قبل أن تنفذ أمري تنتهي علاقتي بك، أما إن جبنت وعرفت قدرك الدنيء فاصعد على الدرج ونادِ عليّ، سأفتح لك الحجر.

خرج (سليم) من القبر والقمر يلقي عليه ظلالًا وهو يخرج من جيبه علبة ثقاب يلقيها في القبر ويقول:

- إن أطعتني فتحت لك عالمًا لن تصدق وجوده، وإن أصابك الخوف تركتك في عالمك السخيف لتصير واحدًا آخر من ملايين الأغبياء.

أزاح (سليم) الحجر ليغطي على فتحة القبر ويغلقها، و(بودي) ينهض شاعرًا بالغضب والكره يشحن جسده والظلام الدامس يحيط به تمامًا.

المخاوف كما لم يفهمها أو يعرفها، القبر أثار في نفسه رعبَ الدفن والحساب، لقطات سريعة ملأت رأسه عن عدم انتظامه بالصلاة، هل سيدخل جهنم؟ حتى لو انتظم فهل سيدخلها وهو يتعلم عن السحر ويطبقه؟

ما الذي جاء به لهنا في الأساس؟ خوفُه من الجان؟ أم اشتياقه للسيطرة التي افتقدها.. قال لنفسه إنه لن يخاف،

فهو يرى الجان دائمًا وتعوَّدِ عليهم، لكن السائل الساخن الذي سال على قدمه وأغرق سرواله أشعره بالعجز.. لقد تبول على نفسه كالأطفال.. لو كان أبوه معه لضربه، يرى الجان ويعرف السحر ويخاف من صفعات أبيه، والآن أصبح يخاف من صفعات (سليم) هو الآخر.

سار في الظلام باتجاه السلم في الموضع الذي سمع فيه صوت وقوع علبة الثقاب، نزل على ركبتيه وهو يتحسس الرمل ويخبر نفسه بأنه لا يخاف، كم مرَّ عليه وهو يبحث عن العلبة؟ لا يعرف كأنها الساعات والأيام لا الدقائق.

مثانته خانته مرة أخرى وشعر بدفقات من السائل الساخن يتغرق ملابسه ثانية، شعر بشيءٍ جديدٍ يطغى على خوفه.. شعور العجز، القهر، الوهن.. جلس على الأرض ويكى ولا يعرف لمَ زاره خيالُ أمِّه!! لكنه لم يطمئن لذلك الخيال بل عاد له الخوف وهو يتخيلها جثة متحللة في قبرها.

فكر أنه لو سنحت له الفرصة ليكون بفراشه الآن ينام بعمق وليذهب (سليم) و(سمر) ووالده وكل الناس لجهنم.

حرك يده على الرمال بغيظٍ فاصطدمت يده بعلبة الثقاب، أمسكها بفرحة من عاد له الأمل مرة أخرى ونسي كل أفكاره وهو يخرج عودًا ويشعله.. أحرقت لهب النار عينيه فأغمضها وبدأت الأفكار الجيدة في التسلل لعقله، يمكنه الآن صعود درجات السلم ومناداة (سليم)، لكنه يكرهه ويتمنى

ألا يفعل ذلك، ولكنه لن يجلس هنا ليقرأ قسمًا أو تعويذة ليستدعي جنيًا، خوفه منعه من مجرد التفكير بالأمر.

انطفأ عودُ الثقاب بفعل أنفاسه وعادت عيناه تغرقان بالدموع ومثانته تُطلِق دفعات تغرقه أكثر وأكثر وقد ترك لها الحرية فيما تفعل.

***

في صمت حوش القبر جلس (سليم) مفترشًا الأرض صامتًا ينظر أمامه بلا صوت سوى (صالح) الذي يقول في أذنه من فترة لأخرى:

- أخرج الفتى.

لكنه لم يسمع شيئًا ولم يفكر حتى، عقله خاوٍ وكأنه يغطُّ في سباتٍ عميقٍ، مرت ساعة ونصف وهو على هذا الحال حتى سمع صوت صرخة عنيفة آلمت أذنه، لم يكن القبر مصدرها، بل هو صوت (صالح) يكمل صراخ.

نهض (سليم) ينظر حوله فوجد ضوءًا أحمر يظهر من العدم بجانبه ويختفي ثانيةً وهو يشم رائحة كريهة، سمع وَقْعَ خطوات أقدام تقترب من الحوش، صاحبها يسير بثقة في الشارع الرئيسي الذي يشق المقابر، جرى على البوابة فوجدَ صاحب الأقدام يقترب أكثر ويخرج من ظلال الظلام لتتجلى ملامحه التي أرعبت (سليم) وشلت حركته، أنه (فتحي) يلصق وجهه بالبوابة الحديدية وهو يقول بجدية وبطريقة حديث تخالف طريقته المعهودة:

- لقد تماديت يا بني، ما الذي تفعله بالفتى؟

تراجع (سليم) خطوة للوراء و(فتحي) يكمل:

- لم أكـن لأقـترب منـك و(صـالم) في خدمتـك، وجـب عـليَّ قتلـه.

انعقـد لسـان (سـليم) وهـو يهـز رأسـه غـير مصـدق و(فتحي) يقول:

- (صـالم) لم يكـن خادمـك، بـل هـو عـين (مؤيـد) عليـك ينقـل لـه أخبـارك وأخبـار (مالـك) الـذي تراقبـه.

- أنت.. أنت.. كيف عرفت؟؟

- تصـوَّرتُ أنـك أكثـر حكمـة لكنـك أخرجـت همومـك وضعفـك عـلى (عبـد الرحمـن) فأثقلتـه بأزيـد ممـا يمكنـه تحملـه.

- أنت تعرف كل شيء!!!!!

- أخـرج الفتـى مـن القـبر ولا تخـبره بحقيقتـي، وعنـد عودتك ستتحدث.

غـادر (فتحـي) المـكان و(سـليم) متسـمرًا بمكانـه لا يفهـم مـا يحـدث، بعـد دقيقـة نظـرَ للقـبر وجـرى عليـه يزيـح الحجـر ويفتـح كشّـاف هاتفـه المحمـول وهـو ينـزل درجـات السـلم للأسـفل.

حـرك الكشـاف بحثًـا عـن (بـودي) فوجـده جالسًـا عـلى

الأرض مستندًا ظهره لأحد الحوائط ينظر له بهدوء.. وقتها شعر (سليم) أن وجه الفتى تقدم في العمر عشر سنين أخرى.

- أنا آسف يا (بودي).

ردَّ عليه الفتى بهدوء:

- أحتاج سروالًا جديدًا من ملابسك قبل أن أدخل لوالدي.

الفصل الثالث

صلاة المماليك

(1)

1397 م - القاهرة - مصر

في دار (عـلاء الديـن ابـن الطبـلاوي) والي القاهـرة جلـس (إبراهيـم بـن غـراب) متأدبًـا في قاعـة المسـافرين، حـين دخـل عليـه (ابـن الطبـلاوي) وحولـه خادمـان يحمـلان أكـواب الـشراب وقطـع مـن الحلـوى عـلى صـوانٍ كبـيرة وضعاهـا أمـام (إبراهيـم) الـذي نهـض بسرعـة وهـو يتنـاول طـرف ثـوب (ابـن الطبـلاوي) ويقبلـه احترامًـا والأخـير يقـول بسرعـة:

- العفو العفو يا أمير (سعد الدين).

جلس (إبراهيم) بجانب (ابن الطبلاوي) وهو يقول:

- لي عنـدك حاجـة إن أتممتهـا لي نفعـت بهـا ديـار المسـلمين، وأفرحـت السـلطان والمماليـك والعـوام.

- قُل يا (بن غراب) وكلي آذان مصغية.

- أريد مقابلة السلطان (برقوق).

ناولـه (الطبـلاوي) كـوب الـشراب فأمسـكه (بـن غـراب) بـدون أن يقرِّبـه مـن شـفتيه و(ابـن الطبـلاوي) يقـول مندهشًـا:

- السلطان يحبك ويعطيك قدرك فإذا طلبت لقاءه أذنك قبل مني.

- لو دخلت القلعة بصفتي الأمير (سعد الدين إبراهيم بن غراب) لانتشر الخبر، حاجب الحجاب سيبلغ أستاذي (محمود الأستادار) بالأمر.

- وما الضير في ذلك؟

قالها في خبثٍ فردَّ (إبراهيم) متلطفًا:

- حضرة الوالي أنت تعلم مكائد المماليك وتدابيرهم، وأنا لا أطلب إلا مصلحتك ومصلحة البلاد.

رشف (ابن الطبلاوي) من كوب الشراب وقال:

- اسمع يا أمير، أنت مصري مثلي وإن كنت أنا أعلم بمكائد المماليك فأنت أدرى مني بفهلوة المصريين، دعنا من اللف والدوران ولتعرض عليَّ الأمر مباشرة.

- لك ما طلبت، يا سيادة الوالي أنت تمر بضائقة مالية في إدارة الولاية وتسدد من مالك الخاص بعض نفقات الدولة، وهذا العام لو ظهر عجزٌ جديدٌ لن تقدر على تسديده، هل أخطأت؟

- لا والله لقد أصبت ولم تُضِف جديدًا عما يعرفه الجميع.

- أعرض عليك حلًّا تنهي به مشاكل الأموال وتعلي من قدرك عند السلطان.

- هات به فرج الله عليك.

- اليوم تطلب مقابلة السلطان وتأخذني مع طواشيك المحنكين الذين يغطون أفواههم بطرف عمائمهم، أرتدي مثلهم وأرافقك معهم، تدخل لديوان العرش وتعرض على السلطان مقابلتي بعد أن تحكي له طلبي هذا.

- لن أفعل أيًّا مما تقول قبل أن تكشف ما برأسك.

- سأدخل للسلطان وأشكو له من الأمير (محمود الأستادار)، كم كنز من أموال السلطنة في خزائنه التي أعرفها وحدي، وكلها أموال ملك للسلطان ولبيت المال، فإن أراد ساعدتُه في الكشف عنها، وتقسم الأموال بين بيت المال والسلطان وولاية القاهرة.

وضع (ابن الطبلاوي) الكوب على الصينية وعيناه معلقتان بإبراهيم يحاول قراءة ما في نفسه حتى قال:

- وإن غدر بي الأمير (محمود)؟

- أنت في حماية السلطان، والأهم أن تمثِّل أمام السلطان أنك لا تعلم سبب طلب لقائه فإن رفض عوقبت أنا وخرجت أنت سالمًا، وإن قبل أظهر له معرفتك بالأمر ومساعدتي من البداية، هل توافق؟

لم يتحدث (ابن الطبلاوي) وإن جرى ريقه متخيلًا كمَّ المال الذي سيسد به عجز خزانة الولاية، إلا أن (إبراهيم) قال فجأة:

- ولأننا سنعيد الحقَّ المسلوبَ فلنا فيه نسبةٌ نأخذها سرًّا، فكما تعرف نحن نحمل نخاطر بالكثير هنا.

- لا تتحدث معي في التفاصيل قبل أن تنجح في إقناع السلطان، ولا تنسَ أني سأنكر أيَّ معرفة بما تنوي إن تعقدت الأمور.

- لك ذلك يا والينا.

***

فرس (إبراهيم) يشق سكون ليل حارات المحروسة، كان قد عاد من عند السلطان ونفَّذ ما أراد بعدما طلبَ من السلطان أن يمهله يومًا واحدًا لكشف مخابئ مال (محمود)، عاد لمنزله الكائن في (بِركة الحبش) ليسلم على زوجته وطفله وها هو ينطلق بأسرع ما يمكن لمنزل أستاذه.

توقف عند باب القصر الذي يطلق عليه منزلًا تواضعًا والحراس يلقون عليه السلام والتحية، فبعضهم تربى معه عندما كان يبيت قديمًا في مسكن مماليك (محمود).

- أوقظ الأمير بسرعة يا (اينال) وأبلغه بأني أطلبه في الحال.

- الأمر ليس بيدي يا أمير (سعد الدين) ألا يمكن...

قاطعه (إبراهيم) وهو يترجل من على فرسه:

- اذهب لطواشية قاعة الاستقبال، وأخبِرهم أن الموت والحياة في إيقاظ الأمير.

فتح أحد الحراس البوابة ودخل معه يهرول للداخل ليفاجأ بالأمير (محمود) بجلباب النوم يجلس في حديقة القصر وحيدًا.

- (إبراهيم)!!! ما وراءك؟

انصرف الحارس و(إبراهيم) يجري خائفًا ناحية (محمود) وهو يقول:

- عليك الهروب يا أستاذي، السلطان سيطبق عليك الحسبة.

ابتلع (محمود) ريقه وربَّت على ظهر (إبراهيم) مهدئًا وهو يسأله متماسكًا:

- اهدأ وقل لي من أين عرفت؟

حاول (إبراهيم) التقاط أنفاسه وهو يقول:

- منذ ساعة طلبني (إبن الطبلاوي) في منزلي فذهبت له، عرض عليّ أن أكشف له عن مالك، وأن أشهد أمام السلطان بأنك تنهب خيرات (الأستدارية) ليطبق عليك الحسبة، طاوعته في كلامه وعلمت أنه سيتحرك صباح الغد لقصر السلطان ويأخذني معه.

- خير ما فعلت.

- لم يكن خيرًا، فبعد خروجي من بيته سمعت أصوات حرسه يتحركون حركة غير عادية، فكمنت له عند حارة قريبة، وشاهدته يخرج مع حراسه في طريقهم للقلعة، (ابن الطبلاوي) لم يصدق مهادنتي له وتحرك الآن لمقابلة السلطان.

لأول مرة يرى (إبراهيم) أستاذه يرتعد خوفًا وقد فقد القدرة على النطق، فلحقه مكملًا كلامه بخوفٍ:

- اهرب يا أستاذي واتجه للشام وأنا سأبقى بمصر لأشهد ضد (ابن الطبلاوي) حتى تنتهي الغمة وتعود.

- أولادي في (الإسكندرية) يا (إبراهيم).

- سأرسل من داري بعد قليل بريد حمام زاجل لأخي (ماجد) ليبلغ أولادك بالتجهز لتقابلهم أنت في ميناء (الإسكندرية) سيجهز (ماجد) طريقة نقلكم إلى الشام بحرًا.

خطا (محمود) بسرعة لداخل قصره و(إبراهيم) يتبعه، فجأة توقف (محمود) وقال:

- جهز أنت الآخر حريمك ومالك ولتذهب معي.

- لو تبعتك لثبتت التهمة عليك، وربما طاردنا السلطان بنفسه على رأس تجريدة حربية، سأبقى حتى ينتهي التحقيق.

- لا.. لو بقيت لأودعوك (خزانة الشمائل).

- أنا فداك يا أستاذي، وإن كنت أتمنى دخول الشمائل.

- ماذا؟!!!

- لو سجنت بها لعذبوني حتى أقر بما أعرف من مالك وخزائنك، فلو أقررت لهم بموضع أو اثنان يهدأ بال السلطان ويعرف أنك لا تمتلك أكثر مما تعلن، ويجازي (إبن الطبلاوي) على صنيعته

فكر (محمود) قليلًا ثم قال:

- (إبراهيم)، أنا سأتحرك الساعة أما أنت فعندك فرصة إلى الصباح، سأعطيك قائمة بأماكن المخازن والخزائن، خذ ما

تريد من مماليكي وقم بتغيير أماكنها واترك أربعة مخازن بها ما يقدر بأربعين ألف دينار فضة وثلاثة آلاف من الذهب وألفي جوال قمح وشعير، هذا المبلغ يكفي السلطان لو عثرَ عليه، وإن قبض عليَّ فقُم بنقل أموالي إلى الشام وأمِّن خروجهم.

- لك ما تأمر يا أستاذي.

- أولادي يا (إبراهيم)، لا تنسَ، إن قبض عليَّ صاروا أمانة في عنقك.

- روحي فداء لك ولأولادك.

***

طلع الصبح على (إبراهيم) وهو يجلس في حديقة منزله المتواضعة يتأمل قُرصَ الشمس يصعد على استحياء في السماء، سمع صوت أقدام تأتي من خلفه فلمح حماه (ناصر) يسير حاملًا طفل (إبراهيم) ذا الأربع سنوات يلاعبه ويداعبه، وقف بجانبه وقال:

- هل أتممت مقصدك؟

ظلت عين (إبراهيم) معلّقة بقرص الشمس وهو يقول:

- سأرسل رسالة بعد قليل لابن الطبلاوي أخبره فيها بأن (محمود) قد هربَ وهو في طريقه للإسكندرية، سيقبض عليه السلحدارية بأنفسهم غدًا على الأكثر.

- لم استعنت بابن الطبلاوي في صناعة مكيدتك؟

- لأنه مصري مثلي لا أكثر.

- أتثق بي يا بني؟

- عقلي عارٍ أمامك يا عمي، أنت تعلم فيما أفكر أكثر مما يعلم أخي.

جلس (ناصر) بالقرب منه وهو يترك الصغير ليجري في الحديقة وقال:

- (ماجد) لم يودع ثقته بي حتى الآن.

- يخاف مما تحت جلدك.

نظر (ناصر) لجسده وابتسم و(إبراهيم) يقول هائمًا:

- أتعرف لمَ زوجني بابنتك (فاطمة)؟

- ليضمن ولائي وألا أغدر بك.

التفت (إبراهيم) له وقال:

- ليشهد الله أنني أحببتها وأحببتك وظهري منتصب بوجودك، لكن لي تساؤل طالما شغل بالي.

- قل.

- لماذا خنت الغرفة النحاسية؟

تأزم (ناصر) فقال (إبراهيم) بسرعة:

- أعتذر إن خانتني الكلمات، لكني رأيت ما تفعله من أعاجيب ولا أفهم كيف تقبل أن تعيش حياتك تاجرًا وتترك ما يتمنى غيرك تملكه.

- ربما لأنني اخترت لأول مرة في حياتي.. أجدادي في إمامة

(عمان) كلُّهم كانوا مثلي، تسلبنا من الذكور هم الوحيدون الذين يتحملون أن تشق جلودهم ليضعوا حجابًا من تحتها، أجبرت في صغري على ذلك لأني وُلِدتُ من نسل (دوام)، أجبرت على مواجهات لم أخترْهَا، أن أقتل مَن لا ذنب له، ربما الاختيار الوحيد الذي فعلته في حياتي أن أبتعد، ويتوقف حجاب الجلد عندي.

- ليتني كنت مثلك.

- أنت مثلي أجبروك في صغرك، ولهذا أحببتك.

عاد (إبراهيم) لينظر لقرص الشمس ويقول:

- لا إجبار بعد اليوم يا عمي.

***

قبض على الأمير (محمود) وابنه الأكبر وأُودِعَا في خزانة الشمائل كما توقع الجميع، أيام مرت عذب فيها الأمير ليدل على مخازنه وأمواله، ولكن بلا جدوى، طبق خازن بيت المال نظام الحسبة المملوكي على (محمود) وأبنائه، حصر جميع ممتلكاتهم لتسليمها للسلطان حتى ذهب (إبراهيم) للسلطان بشكل رسمي يطلب العفو عن (محمود) لكن السلطان رفض.

على الجانب الآخر اجتمع السلطان مع (ابن الطبلاوي) و(إبراهيم) بشكل سري ليدله (إبراهيم) على الكثير من ممتلكات (محمود) التي لن تسجل في بيت المال، مائة وأربعون قنطارًا من الذهب وألف ألف دينار عدًا ونقدًا،

أو بلغة اليوم مليون دينار، وألف ألف درهم من الفضة، وأعداد لا تحصى من الغلال والبضائع والأعسال والتحف الخ إلخ إلخ.

استلمها السلطان وأعطى جزءاً منها للوالي ليسد عجزه المالي وإن كان السلطان يعلم بأنه ضعف ما أخذه احتفظ به (إبراهيم) لنفسه هو و(ابن الطبلاوي)، لكنه رضي بذلك بل ورقى (إبراهيم) ليتولى (نظارة الخاص) تحت يد (ابن الطبلاوي).

لكن كل ذلك لم يشفِ غليل (إبراهيم) الذي زار بشكل سري خزانة الشمائل بالقلعة ليلًا، وقد أغدق على الحرس الدراهم الفضية حتى يدخلوه إلى عنبر (محمود) داخل السجن.

أوصله الحارس حتى باب الزنزانة وفتحها له ليدخلها بخطوات صامتة، على الأرض نام (محمود) بملابسه الداخلية والدماء متجمدة على وجهه الذي فقدَ معظم ملامحه من تكسر عظامه وانتفاخ فمه من التعذيب.

- استيقظ يا أمير.

فتح (محمود) عينه الوحيدة السليمة ليرى صاحب الصوت، انتابته موجةٌ من الفرحة وهو يحاول النهوض و(إبراهيم) يساعده أن يرتكن للحائط و(محمود) يقول بصعوبة بالغة من آلام جسده:

- الحمد لله الحمد لله، كنت واثقًا أنك لن تتركني هنا لأموت.

- لا تقلق يا أمير، فتدبيري كلل بالنجاح.

- الحمد لله.. هل أخفيت الأموال جيدًا؟

- أموالك ومخازنك بين يدِ السُّلطان و(إبن الطبلاوي) ويدي، وطبقت الحسبة عليك منذ يومين وأخذنا كل شيء، والآن حريمك ونساؤك يتسولن في الحارات والأزقة.

اتسعت عينه الوحيدة المفتوحة فزعًا، حاول النهوض لكنه فشل.

- أتعرف يا أمير أن عائلتي تسخِّر الجان لخدمتها، وخدام جدي من الجان أخبروني باللقاء الذي جمعكما قبل إعدامه، أتتذكر ما قاله لك؟

صرخ (محمود) وهو يحاول النهوض ويفشل ثانية و(إبراهيم) يقول:

- صلاة المماليك الخيانة، وصيامهم الكذب، وزكاتهم القتل، وقِبلتهم التي يحجون إليها هي عرش مصر

زادت صرخات القهر من (محمود) وتحولت لنحيب و(إبراهيم) يغادر الزنزانة وهو يعطي للحارس قطعة من الذهب ويقول:

- غدًا يعلن خبر وفاة الأمير (محمود) من التعذيب.

(2)

2011

طـرق (سـليم) بـاب شـقة (فتحـي) بعنـفٍ ففتـح لـه هـذا الأخـير وأشـار لـه ليدخـل لغرفـة الصالـون، بعـد قليـل لحـق بـه وجلـس يقـول:

- زوجتـي نائمـة لكـن أخفـض صوتك عـلى سـبيل الاحتياط، هـل أعـددت الفتـى لأبيه؟

- أدخلتــه منــذ قليــل ولم يشــك أحــد في أي شيء، دوري لأســألك.

- تفضل.

- من زحام الأسئلة في عقلي لا أعرف كيف أنتقي أحدهم.

- ليـس عنـدي وقـت لحديـث غـير عمـلي، قـل مـا جئـت لتقولـه.

سحب (سليم) شهيقًا ليكتسب ثقة وقال:

- مَن أعطاك الحق لتقتل (صالح)؟

- أجبتك في المقابر منذ قليل.

- كيف أصدقك أنه تجسس عليّ؟، مَن أنت على أي حال؟

- لك كل الحق في معرفة الحقيقة فأنت لست مثلهم على كل حال.

- مثل مَن؟

- جماعتك الذي يطلقون على أنفسهم رجال أرض النحاس، ألا أن (عمان) اشتهرت قديمًا باستخراج النحاس تسمون أنفسكم بهذا الاسم، أهو نوع من الاستسهال؟

لم يفهم (سليم) الدعابة ناهيك عن عدم تصديقه أن يتكلم (فتحي) بتلك البساطة بدون رسم العنجهية التعالي الذي يجيدهم.

- أستاذ (فتحي) كيف تعلم كل هذا؟

- سأبدأ لك من البداية التي تخصك.. والدك (صابر) رحمه الله أتى لمصر لا ليتتبع مقتل السحرة، بل لمواجهة الكائن الذي يتحكم فيه (مالك غراب)، ما امتلكه من مخطوطات وخلال بحث طويل أوصله لشيخي ومعلمي (حسين جاد) ليتفق معي على مساعدتي في إعداد (عبد الرحمن).

- مَن؟؟

- كما سمعت، أنا أقيم هنا منذ مولد (عبد الرحمن) لأكون قريبًا منه وأدرّبه على ما سيواجهه، (صابر) أحضركم وأقام هو الآخر بجانبه حتى يشب ويكبر ويكون عونًا له.

هزَّ (سليم) يده بحركة غير مفهومة وهو يفتح عينيه ويغلقهما قائلًا:

- أتتحدث عن (بوردي)؟

- هو بعينه.

- والذي كان سيكون عونًا لبوردي.

- اخرس أنت ودهشتك، واسمع لتفهم.

- جماعتك تواجهت مع هذا الكائن في زمن المماليك البرجية، عن طريق السيطرة على سيد الغرفة النحاسية وإعطائه هدية قيمة يستعملها فيما يبغي.

- حاول تبسيط كلماتك لأفهم.

بنفاد صبرٍ قال:

- سيد الغرفة له خادم من الجان (الجساس)، جماعتك أعطتهم خادمًا من البشر، اسمه (ناصر بن دوام)، كان من المقدَّر لناصر أن يعيش في بلدكم (عمان) ليكون خادمًا لغرفتها النحاسية، لكن جماعتك أرسلوه ليخدم الغرفة المصرية، كل هذا ليسيطروا على هذا الكائن ويخضعوه لهم، لكن (ناصر) انقلب على جماعته وعلى الغرفة النحاسية واختفى بمصر.

- وما فائدة (ناصر) هذا؟

- المعادن لا تخترق جسده وبضعة أشياء أخرى.

- كيف لا تخترق جسده؟

أشار (فتحي) لجسد (سليم) وقال:

- زرعت في جسده أحجبة طلسمت بأقلام روحانية لا يعرف سرَّها إلا (ناصر) وأجداده، وهو الوحيد وذريته الذين يمتلكون جينًا خاصًا يمكنهم من تحمل وجود تلك الأحجبة داخلهم.. في عصر المماليك فشلت جماعتك في السيطرة على الكائن، حتى ظهرت تحركاته ثانية في الغرفة النحاسية ببلدك، وعاد حلم السيطرة عليه للظهور، (مؤيد) يحلم بالوصول له، ووالدك حلم بقتله.

- لم تجبني عن علاقتك بهذا.

- أنا وشيخي توارثنا سر عمل حجاب الجلد من (ناصر بن دوام) نفسه وراقبنا نسله حتى جاء الوقت الذي ظهر الكائن وأتى والدك وبدأنا التعاون.

- كل هذه الجماعات التي تتعامل مع الجن في مصر!!!، أليس هناك شخص طبيعي بيننا؟

- ماذا تقصد؟؟

- لا شيء.. إذًا فأنت تقول إن أستاذ (أحمد) الموظف المحترم يمكن أن يتحول لرجل مضاد للرصاص.

- يجب أن يرى الجن من صغره ليعتاد ما سيفعله، ولو استطعت إقناعه برؤية الجان من الآن تفضل نيابة عني.

- أنت من فتحت الرؤية لبودي؟

- والـدك هـو أول مَـن فعلهـا قبـل موتـه بقليـل لذلـك اسـتطاع الطفـل رؤيـة الكائـن كـما حكـى لـك، وأنـا مـن أكملـت مـن بعـده.

- لكني حاولت أن أمحو ذكرى ما رأى من خلال قرينه.

- هـذه إحـدى صفـات نسـل (نـاصر بـن دوام) قرنائهـم مميزيـن وإن تعلـم (عبـد الرحمـن) مـا أنـوي عليـه سـتفهم سرَّ تميُّـز قرنائهـم.

استرخى (سليم) في مقعده وهو يقول:

- معنـى هـذا أن (بـودي) أجـداده مـن سـلطنة (عـمان) مثـلي، بـل ومـن رجـال أرض النحـاس.

- اسرح بخيالك كما تريد لكن عليك بفعل أهم شيء الآن.

- أشياء كثيرة يجب عملها.

- أولهـا أن توجـد لأحمـد سـببًا كـي يرحـل بعيـدًا بصـورة مؤقتـة، أتسـتطيع إيجـاد عقـد عمـل لـه في بلـدك في أسرع وقـت؟

- (مؤيد) يستطيع.

- ابتعد عن (مؤيد).

- أبتعـد عنـه وألقـي نفسـي تحـت أقـدام رجـل يحكـي لي قصـة مسـلية عـن معـادن لا تخـترق الجسـد وطفـل سـيصير سـوبر مـان في المسـتقبل، وفـوق كل هـذا رجـل قتـل (صـالح)؟

ضحك (فتحي) ساخرًا وقال:

- اختر جانبي أو جانب (مؤيد) كما يحلو لك، لكن لا تنسَ أن (مؤيد) يخفي عليك أكثر مما يبطن، وسترى بنفسك الأيام القادمة عندما تتلطخ يدك بالدماء.

- قلت لي ما الفارق بينك وبين (مؤيد)؟

اقترب (فتحي) برأسه وقال:

- هو يحلم بالسيطرة على الكائن، وأنا أنوي قتله.

***

استيقظ (جمال) من نومه مفزوعًا ينظر لزوجته النائمة بجواره على الفراش، هناك صوت سمعه ويكاد يقسم على ذلك، سعل من آثار السجائر التي يحرقها قبل نومه وأطلق سبةً على التدخين ثم نهض وهو يتناول علبة السجائر من على الكومود ويخرج إلى صالة الاستقبال.

جلس على مقعد مريح وقرب مطفأة السجائر منه وهو يشعل سيجارة ويسعل مجددًا، تأمل صورة زفافه المعلقة على الحائط أمامه ثم نظر لكرشه ووزنه بحسرة.

- كنت وسيمًا مفتول العضلات ناعم الشعر.. ماذا حدث؟

قالها لنفسه وضحكَ وهو يسعل، اشتم رائحة في الجو فقرب دخان السيجارة من أنفه واشتمه، لم يجد فيه ما يريب، سحب نفسًا آخر لكنه اشتمَّ نَفْسَ الرائحة، بخور كما اعتقد، خليط من العطور، عقله يعالج المعلومات التي تلقاها من أنفه، يحللها، يعرضها على ذكرياته، أين اشتم

هـذه الرائحـة؟؟

أتـت الذكريـات لجـمال مـن مـكان سـحيق، التواصـل مـع الجـان!! نظـر حولَـهُ بسرعـةٍ فوجـدَ رجـلًا يجلـس عـلى أحـد مقاعـد طاولـة الطعـام البعيـدة الغارقـة في الظـلام، فكَّـر هـل يـرى رجـلًا فعـلًا أم أنـه تأثـير الظـلام والاسـتيقاظ مـن النـوم؟

تحـرَّك هـذا الرجـل ونهـض مـن مقعـده يتمشـى ناحيتـه، وقـع (جمـال) أرضًـا عندمـا حـاول القفـز مـن مكانـه لكنـه نهـض والرجـل الغريـب يقـترب منـه، جسـده وملابسـه تطابـق وصـف شـاب طويـل الجسـد، أمـا وجهـه فأقـرب لوجـه القـرد لـو أضفـت لـه قـرون قصـيرة وعيـون سـوداء تمامـا وأذن حصـان.

- بسم الله الرحمن الرحيم، بسم الله.

صرخ بهـا (جمـال) وهـو يرفـع يديـه أمـام وجهـه للحظـة، أنزلهـا ثانيـة متمالـكًا أعصابـه يتفـرس في هـذا الوجـه المخيـف ويقـول:

- أنـت لسـت جنيًّـا، بـل تمـارس نوعًـا مـن سـحر التلاعـب لتخفـي وجهـك.

تكلم الرجل فخرج صوته رنانًا يقول:

- أجب عن أسئلتي وربما أتركك.

تحفز (جمال) وفردَ ظهره وهو يقول:

- أنت لا تملك شيئًا يخيفني، مارست ما تمارسه في صباي.

- والآن تمتلك عائلة تخشى فقدانها، أليس كذلك؟

لم يتكلم (جمال) لكنه نظر للأرض قائلًا:

- كنت أتمنى ألا تتحدث عن عائلتي.

تبع عبارته بقفزة لا تناسب جسده الممتلئ ليهبط أمام الرجل ويشتبك معه.

***

- كما قلت منذ أسبوعين يا أستاذ (أحمد).. اعقلها وتوكل.

قالها أستاذ (فتحي) بطريقته المتغطرسة حتى وهو ينصحك، بينما (أحمد) جالسًا مرتبكًا بملابس الخروج وبجانبه حقيبة سفر ضخمة يقف بجانبها (بودي) صامتًا.

منذ ما يقرب من ثلاثة أسابيع أتى (سليم) بعقد عمل بمرتب ضخم في شركة عالمية في سلطنة (عمان)، عرض الأمر على (أحمد) فرفض ووافق ورفض ووافق، ظلَّ في حالة التخبط أسبوع كامل، والمشكلة أنه يخشى على (بودي) من الإقامة وحيدًا في مصر، صحيح أن (هالة) عمته سترعاه من وقتٍ لآخر، و(سليم) يقيم بجانبه، لكنه ما زال طفلًا، وفكرة نقل دراسته لبلد آخر شبه مستحيلة.

حتى ظهر أستاذ (فتحي) بشاربه المنمق وحكمته التي طالما لم يستطع (أحمد) مقاومتها، جلس معه ساعة واحدة طمأنه فيها على كل شيء، مِن ضمن ما قال أنه حان الوقت ليتعلم (بودي) معنى المسؤولية وتلك فرصة لن تعوض، وأيضًا حان الوقت لإدخار بضعة نقود لتأمين حياة (بودي)،

كما أنه حان الوقت لأن يعيش (بودي) معه هو وزوجته وخاصة أنهما لم يُنجِبا أطفالًا، وكما تعرف فقد حانَ الوقت ليتحول (فتحي) لأستاذ (فتحي) الخارق الذي يعرفُ كل شيء في وجهة نظر (أحمد)، تقريبًا ترددت عبارة (حان الوقت) ألف مرة وسط الساعة التي اقتنع فيها هذا الأخير بأهمية السفر.

الأوراق انتهت بسهولة وتمَّ حجزُ التذاكر والآن موعد السفر، الكثيرُ من الأحضان لأستاذ (فتحي) والتوصيات، ثم ظهور (سليم) يتعجل (أحمد) ليلحقا موعد الذهاب للمطار.

حمل (بودي) حقيبة السفر وهبط بها مع والده، أما (فتحي) فأمسك بذراع (سليم) خارج الشقة وقال في أذنه.

- (مؤيد) في مصر منذ أيام، هل كنت تعرف.

- لا.

- إذًا تعرف بمقتل عائلة (جمال الجوهري) في شقتهم حرقًا.

رنَّ الاسم بعقل (سليم) وتذكَّره، (يوسف) قال بأنه سيدأ بجمال صديق (مالك) القديم، سقطت مفاتيحه على الأرض من الارتباك و(فتحي) يقول:

- هل اخترت جانبًا بعد أم ما زلت على حالك؟

(3)

1398 م - القاهرة - مصر

لا حديث سوى عن (علاء الدين بن الطبلاوي) والي (القاهرة)، الناس في المحروسة يتعجبون مما أصابه، بعد أن كان من أقرب ندماء السلطان نزلت عليه لعنة غريبة، الأمير (إبراهيم بن غراب) ذهبَ إلى (يلبغا المجنون) الذي أصبح (أستادارًا) ليفضي إليه بسرٍّ خطير.

(ابن الطبلاوي) سارق، نعم فقد سرق من دار الأمير (محمود الأستادار) رحمه الله الكثير العام السابق، وخزنه في منازل ومخازن سرية يمتلكها، والأدهى أنه يطمع في إزاحة (يلبغا) عن منصبه والإتيان بالأمير (جركس المصارع).

ودارت العجلة ولف يابن الطبلاوي راكبًا حمارًا ومسلسلًا بالحديد، جرسه العامة ولفظه الخاصة، وحجز لنفسه موضعًا بخزانة الشمائل، عذبوه حتى اعترف بكل موضع خبأ فيه مالًا أو بضاعة أو غلة، ويقولون إنه انتحر بمحبسه وإن لم يصدق العامة ذلك.

وارتفع شأن (إبراهيم) بين المماليك، وأصبح من أمراء الألوف تضرب عند منزله الطبول في الدخول والخروج، وله من المماليك ما يفوق المائة، لكن مع كلِّ هذا حافظَ (إبراهيم) على حضور دروس (إبن خلدون)، بل وتوسط له عند السلطان ليدخل في سلك المناصب الإدارية.

- مات (ابن الطبلاوي) يا (إبراهيم).

يقولها (ابن خلدون) بصوت خافت وهو يجلس بالقرب منه في داره، فيردّ (إبراهيم):

- رحمه الله يا شيخنا وتغاضى عن ذنبه.

- يقولون إنك أزحته لتصبح والي (القاهرة).

- ولاية (القاهرة) منصب بعيد عن يدي.

- كرسي السلطان قريب منك إن أجدت السياسة.

- سياسة المماليك تختلف عما تدرسنا يا شيخي.

- السياسة واحدة، أما تطبيقها بعدد أنفس البشر.

- أعدائي يتربصون بي.

- تحالف معهم حتى يضعفوا، ثم ناطحهم أمرهم.

- سياسة المماليك القتل.

- لا سياسة مع الدم، إن لطخت يدك به تقترب نهايتك.

يقول بعض العامة إن (ابن خلدون) معلم (إبراهيم) الأول الذي وسع مداركه وحسن فطنته، والبعض يقول إن

معلمه الأصلي هو الأمير (محمود الأستادار) وقد غدرَ به ليبين له أنه تعلم الدرس جيدًا.. أما صديقه السابق (أحمد المقريزي) الذي فضَّل الابتعاد عنه فيقول في مجالسه الخاصة أن معلم (إبراهيم) هو الطباق، وفيه عرف بالقاعدة الذهبية للسياسة في عصر المماليك.. ((الحكم لمن غلب)).

لكن الوحيد الذي لم يرضَ بما حدثَ هو (ناصر) الذي جلس مع (إبراهيم) يومًا وسأله بحزنٍ:

- ناطحت أميرك (محمود) وهزمته، وستناطح (يلبغا المجنون) وتبيده، لكن لم ناطحت (ابن الطبلاوي)؟

حدق (إبراهيم) في عينيه طويلا حتى قال:

- أتقصد أني قتلته لأنه كان سيد الغرفة النحاسية في الخفاء؟ أم تعتقد أني لم أعرف بذلك يا عمي؟

امتقع وجه (ناصر) و(إبراهيم) يكمل:

- قلت إنك ابتعدت عن الغرفة وندمت على أيامها التي ولَّت.

- لكن الرجل لم يكن ينوي أذيتك.

- لكنه كان سيفعل بعد سنين، سواء كان (إبن الطبلاوي) والي (القاهرة) أو سيد الغرفة النحاسية.

- وما القادم يا (بن غراب)؟

- أفضل من السابق

- أنت تعاقب من قتلوا جدك ومَن لم يقتلوه.

- لو كنت مكاني لفعلت المثل.

- لكني أحمل دماء جدك على عاتقي، متى سيأتي دوري؟

- أنت من أهلي، ولا خيانة من الأهل حتى لو رأيتها بأم عيني.

***

1399 م - القاهرة - مصر

القلعة تهتز تحت أقدام أمراء المماليك من (مصر) و(الشام) أتوا بآلاف العساكر لحسم خلاف يظهر في الأفق، السلطان (برقوق) على فراش الموت والطامعون في كرسي العرش يختبئون بين الأمراء، أو لنقل أنهم معظم الأمراء.

هل سيقبل المماليك بتوريث عرش السلطنة كما حدث مع عائلة (قلاوون) في عصر المماليك الترك؟ مبدأ المماليك الأصلي معروف، لا توريث إلا باستثناءات، يجب أن يأتي السلطان على ظهر فرسه، يتلقى تدريبه في الطباق، يحارب وسط صفوف الجيش، تتحول جروحه في المعارك إلى أوسمة على جسده تؤهله لاعتلاء العرش.

واليوم سيحسم الجدل أو تحدث مقتلة عظيمة بين الأمراء المتحفزين، وإن كان في مكان آخر داخل أروقة القلعة يجلس (فرج بن برقوق) ذو الثلاثة عشر عامًا مع (إبراهيم بن غراب) وأمير جاندار وحاجب الحجاب.

- أوصى لـك السـلطان بالعـرش مـن بعـده ونحـن نشـهد عـلى ذلك.

قالها حاجب الحجاب فاعتلت القسوة وجه (فرج) وقال:

- إذًا لنعلنها على المماليك الغاضبين ليخرسوا.

تنحنح الأمير (إبراهيم) وقال بأدب:

- مـولاي السـلطان (فـرج)، لـو أعلناهـا لـن تجـد مناصريـن لـك وسـط الأمـراء، الحـل بـما فيـه مـن تقليـل الشـأن إلا أنـه الأعـلى أمانًـا.

- لن أتنازل عن العرش لأي أميرٍ.

- معـاذ الله، بـل سنفكر بعقـول الأمـراء، لـو أحسـوا بقوتـك مـن البدايـة لأنهَـوا عـلى حياتـك، أمـا ضعفـك الظاهري فيـزرع في نفـس كل أمـير أن السـلطنة مـا زالـت متاحـة أمامـه.

- أوجز القول يا (ين غراب).

- سـأخرج مـن عنـدك وأطلـب اجتـماع أمـراء الألـوف والطبلخانـة والجانداريـة وكل مَـن لهـم كلمـة في الدولـة، وأعرض عليهـم فكـرة أن تحكـم أنـت اسـمًا فقـط ونتفـق عـلى أميريـن منهم يديـرون الدولـة بحجـة صغـر سـنك.

- أكبّل نفسي بيدي؟

- لا، نعطـي لأنفسـنا الفرصـة لنعـرف العـدو مـن الصديـق، مَـن حـاول التسـلط عليـك وقتهـا مـن الأمـراء نضعـه في خانـة

العـداوة، ومَـن وقـف بصفـك يصبـح خـير صـديـق.. يـا مـولاي نحـن نلقـي بحجـر في مغـارة لتخـرج الثعابـين والعقـارب منهـا فنتقـي شرهـا.

وكان مـا أقـرَّه (إبراهيـم)، نجحـت الخطـة ومـات السـلطان (برقـوق) الـذي شـك بعـض العامـة في أنـه قتـل، وتسـلطن (فـرج) ظاهريًـا، ويـدأ عـصر جديـد مـن اصطيـاد أمـراء المماليـك مـن قبـل (بـن غـراب) الـذي أمسـك مقاليـد الدولـة بـين يديـه.

(4)

2011

- عندي لك اعتذار وقصة وطلب.

قال (سليم) عبارته وهو يجلس على طاولة الطعام بشقة (بودي) الذي استمع له ببرود وقليل من الدهشة لحضور (فتحي) هذه الجلسة.

- تفضل، أستمع لك.

- اعتذر عما فعلته معك في المقبرة، لم أكن أعنِّفك بل أعنف نفسي، تمنيت أن يلقي بي أحدهم في قبري ويغلقه عليَّ.

وسط برود وجه (بودي) ظهرت الدهشة وهو ينظر بطرف عينه لفتحي.

- أستاذ (فتحي) يعرف كل شيء، في الواقع عنده قصة تخصك، إن فضلت أن تسمعها.

روى (فتحي) نفس التفاصيل التي قالها لسليم من قرابة شهر، و(بودي) يحافظ على وجهه البارد إلا من بعض لحظات لم يفهم شيئًا فأوضحه له (فتحي).

- إذًا أنا مُهِمٌّ بشكلٍ ما.

- نعم.

- وأهميتي أني أستطيع فعل شيء ما وأقتل وحشًا على حسب ما فهمت.

- لنقل نعم.

كان جليًا أن (بودي) لم يعد هو الذي دخل القبر، تتراقص في عينيه نظرات تتأرجح بين برودة المشاعر والكره، لم يكن تمثيلًا أو محاولة ليكسب نفسه هالة، بل كانت طبيعته الجديدة.

- وما المطلوب مني؟

سأل (بودي) فكاد أن يرد (فتحي) لكن (سليم) قال:

- أعلم علم اليقين أنك لم تعد تثق بي كما كنت، وعلى كل الأحوال أنا فقدتُ ثقتي بنفسي وعقلي منذ ذلك اليوم، لكن سأطلب منك أن تتعرض لحجاب الجلد لتحمي نفسك قبل أي شيء إن حدثت مواجهة قريبة.

- مواجهة مع مَن؟

- مع أي شخص، مع (مالك) أو (مؤيد) أو حتى معي أنا.

تدخل (فتحي) في الحوار قائلًا:

- ما سيحدث سيكون مؤلمًا لك ولا أعلم كل عواقبه.

- وما يجبرني عليه؟

- لن يجبرك أي شخص، لو كنت في موضعك يا بني لرفضت بلا نقاش.

قالها (فتحي) بخيبة أمل لكن (بودي) قال:

- (سليم).. هل تيقنت من أن (مالك) هذا هو من قتل عمو (صابر) وأمك و(فاطمة) و(هاشم)؟

- أنا متيقن منذ سنين ولم أعترف لنفسي حتى الآن بالحقيقة.

- أي حقيقة؟

- أنني خائف من مواجهته.

- متى يمكنني بدء حجاب الجلد هذا؟

كاد (فتحي) أن يصرخ من الحماسة قائلًا:

- من الغد لو أردت.. سأخبر أباك أنك في نزهة طويلة لزيارة الإسكندرية معي أنا وزوجتي لأغطي على سفرك.

- سفري؟

- نعم سوف نجري العملية في مكان بعيد عن هنا.

***

لم ينم (بودي) ولا (سليم) على فراشيهما تلك الليلة في منزل الحاج (حسين) بالقرب من قرية (شاترمة)، وصلا بالأمس مع (فتحي) واستقبلهما الحاج بنفسه، لم يتحدث أيُّ شخصٍ عن حجاب الجلد أو الجان أو خلافه، كان حديثًا

شِبه وِديٍّ حاول فيه (حسين) أن يلطف الأجواء على قدر المستطاع، وبعد العشاء أوصلهما لغرفتهما في الطابق الثاني.

صوت طرقات على باب الغرفة أعقبه صوت (فتحي) يدعوهما للنزول.

في الأسفل كانت هناك حركة نشطة من رجال يدخلون صناديق لإحدى الغرف وبعض الشباب يتحدثون مع (حسين) وهو يوجههم لإحضار بعض الأشياء فيطيعون أوامره بلمح البصر.

ظهر (فتحي) وهو يعطي قرصًا دوائيًّا لبودي وكوبًا من الماء.

– ابتلع هذا الكبسول، سيريحك نفسيًّا.. لا تقلق فهو مهدِّئ من وصف طبيب سأعرفك به.

تناول (بودي) قرص الدواء وجلس منتظرًا حتى خفت الحركة في المكان، ومن تلك الغرفة التي دخلتها الصناديق خرج رجل الخمسين يرتدي مريلة طبية خاصة بإجراء العمليات جعلت قلب (بودي) يقع بقدمه.

– أنت (عبد الرحمن) أليس كذلك؟

قالها الطبيب وهو يمد يده ليصافح (بودي) و(سليم) القلق، أشار (فتحي) له قائلًا:

– دكتور (فادي جورجي)، استشاري جراحة عامة، معنا منذ البداية، تفهمون قصدي طبعًا.

- معكم!!، أتقصد أنه يفهم ما يجرى؟

قالها (سليم) بحذرٍ فضحك (فادي) وهو يقول:

- أنا و(فتحي) تربينا على يد الحاج (حسين)، وورثت عن أبي سِرَّ ما يحدث، لا تشغل بالك فأنا أفهم مقصدك.

انتهى من عبارته وأشار للغرفة وهو يتقدمهم قائلًا:

- هيَّا لأريكم ما سيحدث.

دخل (سليم) الغرفة يسبق (بودي) كأنه يحميه مما سيواجهه وعيناه تدوران فيها، كانت كغرف الأطباء في المستشفيات الحكومية المصرية، بها بعض الأجهزة التي لم يتعرف على معظمها سوى جهاز التنفس الذي يراه في الأفلام وثلاجة بها بعض أكياس الدم، في منتصف الغرفة نصب سرير طبي وبجانبه أجهزة أخرى لم يتبينها.

- هذه الغرفة غير صالحة، (بودي) سيعود معي للقاهرة الآن.

قال (سليم) عبارته وهو يجذب (بودي) لكن (فتحي) مدَّ ذراعه يمنعه وهو يقول:

- أنت خائف وهذا طبيعي، لكن لا تنقل خوفك للفتى، دكتور (فادي) قام بكل ما يجب عمله لتتم العملية بأمان.

تقدم (فادي) ناحية (سليم) وقال بنبرة هادئة:

- أستاذ (سليم) لا تقلق على أي (عبد الرحمن)، الغرفة ليست متطورة لكنها مزودة بما نحتاجه وأكثر

ثم أشار للثلاجة وهو يقول:

- أترى.. حتى أكياس الدم المناسبة له موجودة بأكثر من حاجته.

- من أين لكم بفصيلة دمه؟

- (فتحي) يجمع عنه كلَّ المعلومات من يوم ولادته في المستشفى وحتى الآن، لا تقلق

ثم نظر لبودي وقال:

- أتحب أن أناديك (بودي) أم (عبد الرحمن)؟

- أيَ شيء

- حسنًا سأناديك (بودي)، أشعر بخوفك من العملية لكن كل ما سيحدث أن طبيب التخدير سيدخل بعد قليل ويعطيك حقنة بسيطة ستنام وتصحو لتجد بعض الألم في أطرافك وظهرك حتى تلتئم الجروح، وفي هذه الأيام سنمدك بالمورفين اللازم الذي سيذهب الكثير من الألم.. هل تفهمني؟

هز الفتى رأسه بالإيجاب، فقال (فادي):

- الآن اذهب مع (فتحي) لتغير ملابسك وترتدي ما سيعطيك إياه.

خرج الفتى مع (فتحي) و(سليم) يقول:

- سأحضر العملية معكم.

- للأسف لا يمكنك، أحتاج للتركيز وأنت لن تتحمل.

- سأحضر معكم.

- العملية ليست بالخطورة التي تتخيلها، أنا متواجد فقط للإشراف الطبي على الخطوات وتقديم المساعدة، لكن (فتحي) والحاج (حسين) هما الأساس.

- كلامي نهائي، سأحضر معكم وإلا لا عملية.

زفرَ (فادي) الهواء من فمه وهو ينظر يمينًا ويسارًا كأنه يستنجد بشخص غير موجود.

- اذهب لفتحي وهو سيحضرك للدخول معنا، ولكن إن أثرت أي مشاكل أثناء العملية فسأخرجك فورًا.

***

وقف (سليم) يرتدي ملابس أطباء الجراحة بعد أن ارتدى القفازات وغطى شعره وقدميه وفمه بالكمامة، وعلى الطاولة تمدَّد (بودي) بملابس العمليات وحوله وقف الجميع، (فادي) ومعه ممرِّض آخر، طبيب التخدير الذي حقنه في وريده ثم وضع قناع على وجهه ليغيب بعدها (بودي) عن الوعي.

كاد (سليم) أن يقع هو الآخر مغشيًا عليه بعدما رأى طبيبَ التخدير يثبت أنبوبًا متصلًا بجهاز داخل فم (بودي)، وبجانب كل هؤلاء وقف (حسين) و(فتحي) مرتدين نفس الملابس بنفس نظام التعقيم وبجانبهما على منضدة صغيرة صندوق مفتوح امتلأ بأوراق غلفت بأكياس بلاستيكية.

أشار (حسين) لفادي بعمل أول شق في جسد الفتى في جانبي ذراعه، فقام الممرض بحلاقة الشعر على المناطق المحددة ثم رسم (فادي) خطًا صغيرًا وهو يتناقش مع (حسين) و(فتحي) في المقاس المضبوط، بعد ذلك تناول (فادي) المشرط الجراحي ونفَّذ الشق بيد ثابتة و(فتحي) يخرج أول كيس ويفضه ثم يطوي الورقة التي كانت بداخله حتى أصبحت في حجم نصف علبة الثقاب، ثم لفَّها بخيط دقيق ورشها بمادة لزجة وناولها لفادي.

هنا اهتز (سليم) وهو يرى (فادي) يضع الورقة بداخل جسد (بودي)، ولم يتحمل أكثر من ذلك وغادر المكان.

***

خرج الجميع من الغرفة بعد ساعتين ليجدوا (سليم) جالسًا باستسلام على أحد المقاعد.

– لقد استفاق من التخدير اطمئن

قالها (حسين) مبتسمًا وهو يخلع القفاز الجراحي، بينما أشار (فتحي) له ليدخل الغرفة، جرى (سليم) للداخل ليجد (بودي) ممدَّدًا شبه عاري وجسده يمتلئ باللاصقات الطبية الكبيرة في ذراعيه وبطنه وقدميه وعلى جانبي رقبته.

وبجانبه علق جهاز يمده بالمورفين من خلال محقن يتصل بذراعه الأيسر.. كان (بودي) مغمض العينين لكنه يتمتم بكلمات غير مفهومة.

- كيف تشعر يا (بودي)؟

بلسان ثقيل من أثر التخدير قال:

- أنا واع ولن أخرف.. أنا واع ولن أخرف.

ضحك (سليم) مطمئنًا فسمع صوت (بودي) يقول بنفس ثقل اللسان:

- لا تخبروا أبي.. لا تخبروا أبي.

ضحك (فتحي) وهو يضغط بإصبعه على موضع خالي من اللاصقات الطبية بجسد (بودي) ويسأله:

- هل تشعر بشيء؟

- نعم أشعر.

أمسك (فتحي) مشرطًا جراحيًا وقال لسليم:

- انظر.

وضع المشرط الجراحي على نفس الموضع الذي ضغطه بإصبعه، لكن هذه المرة حرك المشرط كأنه يقطع جلده، أمسك (سليم) يد (فتحي) لكنه انتبه، المشرط لم يؤثر في هذه المنطقة.

سماع الخبر يختلف عن رؤيته، اختلطت الدهشة بالفزع في عين (سليم) وهو يرى ما لم يكن ليتوقع أن يراه في حياته.. جذبه (فتحي) ناحية دولاب مغلق وفتحه ليخرج منه صندوقًا نحاسيًا مليئًا بالزخارف، فتحه وقربه من (سليم). كان مليئًا بأدوات جراحية، محاقن بأحجام مختلفة ومشارط

جراحية وإبر وخيوط طبية، لكن الغريب في كل هذا أن هذه الأدوات صنعت من الذهب الخالص كما أخبره (فتحي):

- المعادن لن تخترق جسده إلا معدن الذهب، سترافقه تلك المعدات الطبية طوال حياته القادمة.

أغلق الصندوق وأعاده للدولاب وهو يسحب (سليم) للخارج قائلًا:

- بعد قليل سنتقله لغرفة أعددت خصيصًا له الأيام القادمة، دكتور (فادي) أوصى بأن يتحرك من الليلة، وسيستعيد حركته الكاملة خلال أسبوع، ولا تقلق لن تحدث أماكن الخياطة في جسده الكثير من التشوه، سيلتئم جلده بأسرع مما نتوقع جميعًا.

كان الصمت العلامة البارزة مع (سليم) الذي ظهر وكأنه يفكر في شيءٍ ما.

نقل (بودي) للغرفة وجلس (سليم) مع (حسين) و(فتحي) على طاولة طعام يتحدثون حتى سألهم (سليم):

- متى سيعود (بودي) لمنزله؟

- ليس قبل أن ندربه.

- على ماذا؟

هنا رد (حسين) قائلًا:

- أتعتقد أن كل ما يمتلكه (عبد الرحمن) الآن هو جسد لا يخترق؟ تلك الخاصية وجدت لحمايته أثناء استخدام قرينه.

- كيف سيستخدمه؟

- قرينك ملتصق بك حتى مماتك، لو ابتعد عنك فيعني هذا موتك أو اقتراب أجلك بعد ثوان أو دقائق، صاحب حجاب الجلد يمكنه إخراج قرينه من جسده ليقاتل به، ولكن أمامه فرصة أقل من دقيقة أو اثنتين قبل أن يموت صاحب الحجاب إن لم يعد قرينه لجسده.. أثناء فصل القرين عن الجسد سيكون (عبد الرحمن) في أضعف حالاته، كأنه في حالة سكر، عدم اختراق المعادن لجسده هي لحمايته في هذه الحالة من أي هجوم عليه.

قال (فتحي) هنا:

- ألم أقل لك إن قرين (بودي) مميز، سنعلمه كيف يتواصل معه ويتحكم به ومن الليلة.

سكت (سليم) وشرد للحظات ثم قال:

- سأعود غدًا للقاهرة فلي مصلحة لم تنقض بعد.

- نحن الآن في مركب واحد، أخبرنا.

- سأمنع (يوسف) و(مؤيد) من قتل المزيد، كنت أنتظر الاطمئنان على (بودي) وأعتقد أنه جاهز

- انتظر لنعود جميعًا لنرسم خطة جيدة كي نوقف (مؤيد) ونستدرج (مالك) ليخرج الكائن ونقتله

- سأنتظركم في (القاهرة) إذًا.

(5)

1405 م - القاهرة - مصر

اختفى السلطان (فرج بن برقوق)، من سيصدق هذا!! يصحو العامة من النوم ليعرفوا أن لا سلطان في القلعة، انتفض الأمراء ومن بينهم الأمير (إبراهيم بن غراب) الذي خرجَ على رأس مائة مملوك يبحثون عنه في صحراء (الرايدانية) وما يحيط بها من مناطق، كذا فعلَ بقية الأمراء لتعج مصر بين ليلة وضحاها بآلاف المماليك المسعورين يبحثون عما لا يعلمون ماهيته.

جثة.. رداء.. دماء.. أي شيء يشير للسلطان لكن بلا جدوى.

أما (إبراهيم) فعاد للقلعة ينتظر الأمراء القادمين من جهات المحروسة، بعد ساعاتٍ اجتمع أكثر رجال الدولة من الأمراء داخل قاعة العرش ودار النقاش عما سيحدث، توالت الآراء والتي انصبَّ معظمها على إكمال البحث عن السلطان الغائب، إلا أن (إبراهيم) حذَّرَهُم من مغبة ذلك الفعل، لو لم ينصب سلطان موضعه لتقاتلت المماليك في بحر أيام.

استحسنوا رأيه فأضاف بأن الأنسب هو توليه شقيق السلطان الغائب (عبد العزيز بن برقوق) ووضع وصي عليه، وقبل أن يتجادل الأمراء اقترح عليهم (إبراهيم) اسم الأمير (بيبرس الأتابك) والذي لا خلاف عليه.

وكي لا يكتسب أحدٌ عداء الأمير (بيبرس) المشهور ببطشه وافقوا بالإجماع وبدأت مراسم تنصيب السلطان على عجل في الليل ليخرج المنادي فجرًا يزف الأنباء للعامة والخاصة.

وعند مطلع النهار غادر (إبراهيم) مع بقية الأمراء القلعة وعاد كل منهم لمنزله، أما (إبراهيم) فدخل منزله بعدما انطلق المنادون وسط الأحياء، وصل لقاعة خاصة أعدَّها منذ زمن، استأذن للدخول فيها فجاءه إذن صاحبها.

- مولانا السلطان المعظم (فرج بن برقوق) أدام الله عزك.

كان السلطان (فرج) يجلس بجانب الشرفة على وسادة مخملية يرتدي ملابس منزلية متواضعة، نظر لإبراهيم بخيبة أمل وقال:

- صدقت يا (بن غراب) المماليك السلطانية كانوا يتحضرون لقتلي وتنصيب أخي مكاني، سمعت المنادي منذ قليل يعلن تسلطنه.

جلس (إبراهيم) على ركبتيه وقال:

- قلت لك مرارًا يا مولاي أن الأمير (بيبرس الأتابك) يعد العدة لينقلب عليك، ولم يمر يوم إلا واجتمع بنا في القلعة لتنصيب أخيك.

لم ولـن يصـدق أحـد في وقتهـا أن السـلطان هـرب عـلى حصانـه ليـلًا ليـس معـه إلا طواشـيه الخـاص ليقابـل (إبراهيـم) عنـد بـاب القلعـة السـري ويبـدل ملابسـه ثـم يـأتي بـه لمنزلـه، ولم يتوقـع الأمـراء أنهـا إحـدى ضربـات (بـن غـراب) لهـم كعادتـه وهـذه المـرة سـتكون الضربـة لبيـبرس الـذي نازعـه في سـلطة البـلاد.

فإبراهيـم الآن بيـده سـلطة (الأسـتدارية) والقضـاء ونظـارة الجيـش والدواويـن وعـدد لا يحصى مـن المناصـب جمعها شـخص واحـد لأول مـرة، حتـى إن لقبـه الرسـمي أصبـح (القـاضي الرئيـس الأمير سـعد الديـن إبراهيـم بـن غـراب).

بعـد شـهرين مـن هـذا التاريـخ سـيعيد (إبراهيـم) السـلطان (برقـوق) لعرشـه ثانيـة ويقـضي عـلى آخـر أعدائـه دفعـةً واحـدةً.

صـوت طرقـات عـلى بـاب القاعـة جعلـت (إبراهيـم) ينهـض ليفتحهـا مسـتفسرًا، أحـد خدمـه يخبره بزيـارة خاصـة مـن رجـل لا يـرد.. إنـه (ابـن خلـدون)، جلـس (إبراهيـم) كعادتـه بـين يديـه أدبيًـا و(ابـن خلـدون) يقـول:

- العامة يتحدثون عن عربان الإسكندرية.

- ما بالهم؟

- يقولـون إنهـم يسـتخدمون أسـلحة غريبـة عليهـم، الدبـوس والرمـح والقـوس والنشـاب، ويقسـم آخـرون إنهـم امتلكـوا مدافـع النفـط.

تغير وجه (إبراهيم) وهو يتمتم:

- أغبياء، يستعرضون قوتهم.

- متى مددتهم بالأسلحة؟

- منذ شهر تقريبًا.

- أسلحة المماليك في يد العربان بلا تدريب تساوي الموت يا (بن غراب).

- بعد انتهاء أزمة السلطان سأرسل بعض مماليكي الثقات ليبدأوا تدريبهم.

- متى نويت على التحرك؟

- بعد إنهاء المشاورات مع عربان الفيوم وسيناء والصعيد، أقل من عام بإذن الله وسأكون جاهزًا.

- والسلطان (برقوق) هل يقيم عندك الآن؟

- نعم، كل شيء يسير على ما يرام.

- خوفي من لحظة الصدام.

- لا تخف يا شيخي، فعندي مكيدة أخيرة أدخرها لآخر لحظة.

(6)

2011

مرت ثلاث أيام منذ عاد (سليم) للقاهرة، اطمأن على (بودي) بالهاتف أكثر من مرة، وعرف أن تدريباته بدأت وحركة جسده أصبحت أفضل من المعتاد، وعده بأن يأتيه بعد يوم عندما ينتهي مما وراءه.

قضى اليومين جالسًا في صالة استقبال شقته، يلعب ألعاب فيديو جيم قليلًا، يشاهد أفلام على التلفزيون ويضحك من قلبه على الكوميدي منها، يطلب الطعام من الخارج هاتفيًا، لأول مرة يشعر أنه في إجازة، وكأنه يكافأ على شيء فعله، أو تحديدًا يشعر بالحرية، اختفى ثقل قلبه وجاءته ذكرياته السعيدة مع عائلته بدلًا من جثثهم المحروقة.

نام بعمق في غرفة نومه قرأ كتبًا عادية، أحسَّ بأنه شخصًا آخر غير الذي تعود عليه، في نهاية اليوم الثالث تلقى مكالمة من (مؤيد) برقم هاتف مصري، ردَّ عليه بهدوء وسكينة، عندما طلب مقابلته وافق.

دخل ليستحم وهو يغني لحنًا لا يتذكر مصدره، ارتدى

أفضل ملابسه وخرج من منزله يستقل سيارته وهو سعيد، بدلًا من الاتجاه لشارع الهرم لمقابلة (مؤيد) ذهب لمدينة نصر عند مبنى يحفظه عن ظهر قلب لأنه راقبه كثيرًا.

دخل المبنى وصعد للطابق الثامن عند شركة مقاولات طلب مقابلة السيد (مالك) مدير الشركة وأخبر السيكرتيرة أنه صديق دراسة قديم، بعد دقائق كان في مكتبه، لأول مرة يراه عن قرب، (مالك) ذو النظارة الطبية والشعر فاتح اللون الذي ظهرت منه مقدمة صلعته، والطول الفارع والصوت الجهوري.. استقبله (مالك) بابتسامة عذبة ودعاه للجلوس.

- ذكرني بسيادتك لأن نظري ليس على ما يرام كما ترى.

ضحك (سليم) بصدق وقال:

- أنا (سليم صابر الحريزي)، ألا يذكرك اسم عائلة (الحريزي) بشيء؟

فكر (مالك) وهو يتطلع إلى سقف الغرفة ثم قال:

- هل الاسم خليجي؟

- أنا من سلطنة (عمان).

- أهلًا بسيادتك، هل تقابلنا من قبل؟

- في الحقيقة أنت قابلت أبي وأخي منذ زمن، أعذرك على نسيانهما.

بابتسامة مجاملة قال (مالك):

- اعطني أي شيء لأتذكرهما.

قال عبارته وعرض سيجارة على (سليم) الذي رفضها فأشعلها هو.

- سأنعش ذاكرتك، تقريبًا عام 2002 قتلت أبي وأمي وأخي وأختي في شقتهم بالمعادي ولم أمست تلك الليلة لأنني كنت عند صديقي.

ارتسمت ملامح عدم الفهم على وجه (مالك).

- عذرًا!!!! هل سمعتك جيدًا؟

- لا أريد الدخول في تفاصيل لتشغل بالك، أنا كنت من رجال أرض النحاس وإن كنت أشعر بالخجل الآن من اسم جماعتنا، ربما علينا التصويت على تغييرها.. المهم، أحد كبراء جماعتنا وهو (مؤيد) يريد السيطرة على الكائن أو الكيان أو الملك الثامن الذي تتحكم فيه أنت وعائلتك منذ آلاف السنين، وبالمناسبة عليك اختيار اسم لهذا الكائن، أعتقد أن من يسخرون الجان عندهم مشكلة في اختيار الأسماء.

(مالك) يسحب أنفاس سيجارته ويرسم تعبير عدم الفهم على وجهه والذي تغير لتعبير المترقب، و(سليم) يقول بكل هدوء كأنه يتحدث في موضوع سعيد:

- (مؤيد) أرسل (يوسف) لقتل (جمال) صديقك القديم الذي كان يُساعِدك في قتل السحرة، وربما حصل على معلومات عنك منه، ليجبرك على إخراج الكائن هذا فيمكنه هو السيطرة عليه عن طريق إعداد كمين لك، وإن كنت أرجح أنه سيستخدم ابنتك وزوجتك كرهائن حتى تكشف عن موضع الكائن أو تعطي سرّ تحكمه له.

لم يتكلم (مالك) وأكمل تدخين سيجارته فابتسم (سليم) وقال:

- والاثنان الباقيان من أصدقائك يخطط لاستجوابهما وربما قتلهما، تذكر أن السر كله في تحريك الكائن، فالغرفة النحاسية في سلطنة (عمان) تستطيع رؤية مكانه إن خرج من سباته، آه بالمناسبة أين موضعه؟ أهو في قبر (إبراهيم بن غراب) أم في مغارة في جبل المقطم؟ توقعت أماكن كثيرة لكنني فشلت.

- لمَ شرفتني بالزيارة يا سيد (سليم)؟

- ربما تعبت من مراقبتك طوال السنين السابقة، ربما خفت على عائلتك التي أعرفها جيدًا، ربما أشعر بأننا صديقان حميمان لم يلتقيا من قبل وحان وقت ذلك.. المهم أن تحمي عائلتك فلن أحمل دماءها لقبري، وبالمناسبة أسعار المقابر عندكم بمصر غالية جدًّا.

بكل هدوء أطفأ (مالك) سيجارته وسأل:

- هل اشتريت قبرًا بمصر؟

- نعم، لن تصدق جماله ما لم تره بعينك، مشكلته الوحيدة أنه لن يزورني أحدٌ عند دخولي فيه.

- أخشى أن أخبرك بأنك تخلط بيني وبين شخص آخر.

وقف (سليم) وابتسم وهو يصافح (مالك) ويقول:

- لا مشكلة، تشرفت بمعرفتك، أعرف أني أكثَرتُ من ذِكر كلمة (بالمناسبة)، لكن بالمناسبة أنا ما زلتُ أقيم في شقة عائلتي بالمعادي ولا تخف فليس هناك كمين لك.

أنهى عبارته وغادر المكتب.

***

لم يعد (سليم) لمنزله على الفور، بل قام بدخول السينما، اختار فيلما عشوائيًا واشترى المقبّلات ليأكلها بالداخل، استمتع بالفيلم وبالمقبّلات وخرج من دار السينما يستمتع بنقاء الهواء، مرَّ على محل لبيع البيتزا واشترى واحدة ليأكلها على العشاء.

وصلَ لمنزله وظل بملابسه التي خرج بها وهو يفتح البيتزا ويتذوقها باستمتاع، فتح التلفزيون وقلّب في القنوات حتى وجد فيلمًا لمحمد هنيدي، يقضم من البيتزا ويضحك حتى ولو كان مشهدًا تراجيديًّا.

رنَّ جرس الباب، فكر هل توقعه في محله، فتح الباب فوجد (مالك) يقف ثابتًا.

- حماتك تحبك، عندي بيتزا بكل المكونات.

دخل (سليم) وهو يدعو (مالك) للدخول بترحاب شديد مغلقًا الباب خلفه، أغلق التلفزيون وعاد للجلوس على طاولة الطعام، دفع بالبيتزا لتصل لمالك الذي جلس على الناحية الأخرى من الطاولة لكن هذا الأخير هز رأسه نفيًا.

- هل جئت لتهديدي اليوم في مكتبي؟

- لا تكن غبيًا بالله عليك، جئت لتحذيرك.

- والسبب؟

فكر (سليم) وهو يمضغ قطعة من البيتزا ثم قال:

- لأني أحببتك.

- هل تحب دائمًا السخرية ممن حولك؟

- لا أبدًا، هذه المرة الأولى التي أعترف فيها بكل شيء، أتعرف يا (مالك) أنني لا زلت عند يوم مقتل عائلتي، كأنني مت معهم وتأخرت دفنتي حتى الآن.

ألقى بقطعة البيتزا في علبتها وتناول منديلًا مبللًا مسح به يده وفمه وهو يضيف بجدية:

- راقبتك أنت ومَن حولك، رأيت فيك الحياة التي تمنيتها، خدعت نفسي بأني سأنتقم، والحقيقة أنني جبنت على مواجهتك فظلَّت حياتي معلقة، لا أنا انسحبت وعُدت لبلدي ولا أنا واجهتك ومتُّ بشرف، على الجانب الآخر كنت أنت القوي الشجاع الذكي الخبيث دمرت عشرات السحرة في مصر واختفيت لتكمل حياتك في هدوء، تزوجت وأنجبت ونجحت شركتك، والحقيقة أنك كنت لي القدوة التي خشيت أن أتبعها.

- كان يمكن أن تعود لبلدك وترتاح من كل ما قلته.

- فقدت هويتي يا (مالك)، لم أعد أعرف هل أنا عماني أم مصري، اختلطت شخصيتي الحقيقية بالشخصية التي اخترعتها، والأجمل أنني اخترعت كل شيء لأواجهك وانتهى بي الحال بدلًا من مواجهتك بتعويذة أمسكت في يدي قطعة بيتزا!

حافظ (مالك) على بروده وهو يقول:

- لم يكن قتل عائلتك في نيتي، كنت أخيف أباك لا...

قاطعه (سليم) بإشارة من يده وهو يقول:

- لا تبرر شيئًا، أجب عن سؤالي فقط.. لم قتلت السحرة في مصر؟

ببساطة قال (مالك) وهو يعدل إطار نظارته:

- أحدُهم خدَّر زميلتي في الجامعة واغتصبها فدمر حياتها، أحببتها وقررت إعادة ثقتها، ونجح الأمر كما ترى.

- أهي زوجتك الآن؟

- نعم.

ابتسم (سليم) وقال:

- والآن ما خططك؟

- أنت قلت بنفسك، عائلتي في خطر لن يبقى أحد على قيد الحياة يمكن أن يمثل تهديدًا لهم.

- وكيف ستصل لمن تنوي قتلهم؟

- سأستجوب قرينك.

ضحك (سليم) وقال وهو يلعب بإصبعه في أنفه:

- أتعرف أنني طوال التسع سنوات السابقة أقوم يوميًا بتلقين قريني معلومات مغلوطة كي لا تستجوبه، لكن منذ بضعة أيام تركت قريني على حاله ربما كان يحمل شيئًا من هويتي الأصلية.

- أراك لا تنوي المقاومة.

- أصبت، لكن لي عندك سؤال وطلب..

- تفضل.

- كيف تتواصل مع هذا الشيء؟

فك (مالك) أزرار قميصه وكشف عن كتفه الذي رسم عليه علامة تشبه الدائرة محفورة بالنار وقال:

- مِن هذه العلامة يصل لي في أي مكان فهو يراها، وإن لمستها وطلبته أتى في الوقت والساعة.

- لم أفهم الآلية لكن على كل حال ألف مبروك وربنا يتمم على خير، طلبي الأخير كي لا أنساه، أريدك أن تبدأ بمؤيد، وترسل له تحياتي.

- سأحاول.

نهض (مالك) من مقعده فرفع (سليم) يده أمامه يقول بسرعة:

- انتظر انتظر، هناك شيء يجب أن تعرفه.

ضحك (سليم) بقوة وهو يقول:

- فعلت كل ما فعلت في حياتك ومن سيقتلك اسمه (بودي).

- (بودي)؟

لم يستطع (سليم) التوقف عن الضحك وصوته يجلجل في أرجاء الشقة.

(7)

الأربعـاء _ 1406/3/18م...19 رمضـان 808هـ

القاهـرة - مصر

الأمـير (إبراهيـم بـن غـراب) مريـض، مـن مـلأ الدنيـا صخبًـا وعنفوانًـا طريـح الفـراش منـذ أيـام واحتـار الأطبـاء في دواه، لم يصـل لعمـر الثامنـة والعشريـن بعـد، وكاد أن يحكـم مـصر والشـام.

اختلفـت الآراء عليـه مـن العامـة، منهـم مَـن قـال بأنـه خـرق الأصـول والأعـراف ولعـب لعبـة المماليـك، ومـن قـال بأنـه ناطحهـم نطـاح الكبـاش فأذلهـم، ومـن يـرى السـلطة يسـتحق المـدح والثنـاء.

لكـن أعـداءه لم ينكـروا عليـه أنـه بنـى المـدارس والأوقـاف لله، وفي زمـن الوبـاء دفـن عـلى حسـابه عـشرة آلاف جثـة ارتمـت عـلى الطرقـات وتكفـل بمثلهـم مـن المحتاجـين والعاطلـين، واليـوم يـأتي المماليـك مـن كل ربـوع مـصر والشـام ليـزوره في بيتـه.

يدخلـون عليـه مخدعـه فـلا يجلسـون أمامـه حتـى وهـو عـلى

فراش الموت، للأمير هيبته ولو كان جثة متحللة، يقدمون له الهدايا ويدعون الله بتعجيل شفائه، ثم يخرجون للشارع يتهامسون بأنها إحدى ألاعيبه ليعرف من يناصره ومن يعاديه.

يصوم (إبراهيم) لأن الطعام يؤلمه والدواء لا يفيد، يقولون إنه مبطون، مرض أصاب أمعاءه أو معدته أو أي شيء، المهم أنه يسحب الحياة منه يومًا بعد يوم.

يدخل (ناصر بن دوام) حماه ومعه أولاد (إبراهيم) يقبلونه ويتمنون له الشفاء، يطلب منهم (ناصر) المغادرة ويجلس هو على طرف فراشه يتأمل عظام وجهه التي ظهرت وبانت فيقول (إبراهيم) بإرهاق:

- أوصيك بأولادي يا عمي.

- سأرسلهم لأخيك (ماجد) فهو سيطلبهم على كل حال، وهو أحق بهم مني.

تتسرب دمعة ألم من عين (إبراهيم) ويقول بأنفاسه اللاهثة:

- ضاع كل شيء.

- لم تمتلك شيئًا ليضيع يا (بن غراب).

- امتلكت كل شيء واستعددت للوقت المرتقب ولكن ضاع كل شيء.

دمعت عين (ناصر) وهو يقول:

- أحلمت حقًا بحكم مصر؟

لم يرد (إبراهيم) فأضاف (ناصر):

- العربان المسلحين ستخرج لهم التجريدات المملوكية وتعيدهم قطاع طرق كما كانوا، لم ولن يصلحوا جيشًا يواجه المماليك، أم كنت تحضر لهم الملك الثامن ليساعدك على اعتلاء العرش؟ وتتكرر حكاية جدك (غراب)، الملك الثامن يقتل المماليك والعامة وتتسلطن أنت على عرش من الجيفة.

- كنت أحضر لثورة العامة.

ابتسم (ناصر) ومسح دموعه قائلًا:

- أتعرف لمَ صنعوني يا بني؟ لأقتل الملك الثامن، ولأني جبان فقد تركت في يدك قوة لا تفهمها، وحان وقت تصحيح أخطائي، السم يسري في جسدك يا بني، وأنا من دسسته لك.

- مَن حرضك؟

- أعداؤك في كل مكان، ولو لم أقتلك أنا لقتلك غيري، ولن يهدأ بالٌ للمماليك قبل أن يتخلصوا من كل معاونيك، ربما مت أنت ومات بعدك (ابن خلدون) بمرض غريب مثلك، ربما مات (ماجد) وربما مت أنا، الحصيلة واحدة.

بصعوبة قال (إبراهيم):

- شيخي كان يقول إنهم سيكتبون عني عاش وأكل الطعام ومات.

ابتسم (ناصر) وهو ينهض ويقبل رأس (إبراهيم) ثم يغادر المخدع.

***

استأجر الناس أسقف البيوت والحوانيت ليتمكنوا من رؤية جنازة الأمير (إبراهيم بن غراب) وهي تمر بين شوارع المحروسة، نزل السلطان (فرج بن برقوق) من القلعة في سابقة لم تتكرر ليصلي عليه ويحمل التابوت بنفسه إلى مدفنه.

وبعد موت (إبراهيم) بيوم واحد، توفي (إبن خلدون) فجأة يوم الخميس 20 رمضان 808 هـ.

(8)

2011

استيقظ (بودي) في الصباح ونزل من على الفراش وهو يحرك أطرافه ويقدر نسبة الألم بعدما أوقفوا عنه المورفين فتح باب الغرفة في الطابق الأرضي ليجد (فتحي) و(حسين) وشابين يتجادلون بصوت مرتفع ملوحين بالأيدي.

توقفوا عن الجدال عند رؤيته.

- ما الذي حدثَ؟

سأل (بودي) فردَّ (فتحي):

- لا شيء.

صرخ (حسين) فيه:

- أخبره، فمن حقه أين يعرف.

هزَّ (فتحي) قدمه اليمنى بعصبية وكأنه يسيطر على انفعالاته ثم قال:

- زوجتي أخبرتني على الهاتف أنهم سمعوا أمس جلبة في شقة (سليم) ولم يرد عليهم، حطموا الباب فوجدوا جثته ممزقة والأثاث محطم.

اختار (بودي) مقعدًا قريبًا وجلس عليه و(فتحي) يكمل:

- تأكدنـا مـن أن عـمار المـكان مـن الجـن قتلـوا مثـل حادثـة مقتـل عائلتـه.

سـقطت دمعـة مـن عـين (بـودي) فمسـحها بسرعـة، تصلـب وجهـه فجـأة وهـو ينظـر حولـه ويقـول:

- أنا لا أرى أيَّ جنٍ حولنا، ولا حتى عما......

بـتر (بـودي) عبارتـه لأن جـزءًا مـن سـقف المنـزل انهـار عليهـم، الأحجـار التـي وقعـت قتلـت (حسـين) في الحـال و(فتحـي) والشـابان يحـاولان جـره مـن تحـت الـركام.

قفـز (بـودي) مـن مقعـده محـاولًا تفـادي الـركام السـاقط مـن الأعـلى وهـو يخـرج مـن بـاب المنـزل مفكـرًا في البحـث عـن (مالـك) إن كان هنـا، خـرج إلى المسـاحات المتزرعـة بالقصـب خـارج المنـزل وظـلَّ يلـف حـول نفسـه كالمجنـون، فجـأة اشـتعلت النـار بملابسـه وجسـده كلـه، صرخ وهـو يخلـع ملابسـه ويلقـي بهـا بعيـدًا، لكنـه توقـف عندمـا لم يشـعر بـآلام الحـروق، شـم رائحـة الشـياط لشـعر رأسـه الـذي يحـترق لكنـه وقـف ينظـر يمينًـا ويسـارًا وجسـده مشـتعل، مـن وسـط زراعـات القصـب خـرج (مالـك) يرتـدي قميصًـا وسروالًا مـن الجينـز يدخـن سـيجارة.

وقعـت السـيجارة مـن فمـه وهـو يـرى (بـودي) التـي تشـتعل النـار بـكل جسـده ووجهـه لكنـه هـادئ ينظـر لـه، لم تكـن تفصلهـا عـن بعضهـا سـوى بضعـة أمتـار، لم يسـتطع (مالـك)

إخفاء دهشته وهو يتراجع خطوة للوراء و(بودي) يقترب منه بخطواته، لكن فجأة تلقى (بودي) ضربة من شيءٍ مجهول ألقت به عشرة أمتار وسط أعواد القصب التي اشتعل بعضها بعد أن لامس جسده.

وجد (بودي) طريقَةُ للعودة لساحة المنزل الخارجية ثانية وتوقف عند (مالك) الذي كان يتحدث مع شيء ما يقف بجانبه، هنا خرج من جسد (بودي) قرينه، يشبهه لكنه أضخم بكثير وبلا عيون ولا أنف، أصبح قرينه هو عينه التي يرى من خلالها، ولأول مرة يرى الكائن الواقف بالقرب من (مالك).

لم يكن جنيًّا فهو يعلم أشكالهم، لكن هذا الكائن ضخم طويل لا يقل طوله عن ثلاثة أمتار، جسده كجسد رجل عار مفتول العضلات، رأسه مثل رأس الأسد بدون الشعر، له جناحان يخرجان من ظهره يشبها أجنحة الوطاويط.

هجم القرين على الكائن الذي أمسكه وطار به للأعلى.. خرج (فتحي) في نفس اللحظة من باب المنزل ونظر لمالك بغضب وهو يقرأ شيئًا بفمه، هبط الكائن على الأرض بجانب (فتحي) ولمسه فاشتعلت النيران به وهو يصرخ، بينما نظر الكائن لبودي التي قلت النيران في جسده تدريجيًا.

خرج أحد الشابان من المنزل يحاول إطفاء (فتحي) ومساعدته على خلع ملابسه، الكائن يقترب من (بودي) الذي شعر بالوهن فجأة ووجد نفسه يسقط أرضًا على

ركبتيه، (حسين) أخبره بأن يتحكم في قرينه ويعيده لجسده إن شعر بالضعف وإلا سيموت بعد ثوانٍ.

لكنه لا يشعر بمكان قرينه، يرى من منظور عين القرين لون أبيض يحيط به، هبط القرين من السماء خلف الكائن بالضبط وأمسك بجناحيه جاذبًا إياهم من الخلف ليقع الكائن أرضًا.

نجح الشاب في إخماد معظم الحريق من على (فتحي) بينما الهواء ينفذ في رئة (بودي) عند وقع على وجهه يحاول سحب الهواء لرئتيه بلا نتيجة.

القرين يسحب جناحي الكائن الساقط أرضًا حتى خلع أحدهما فصرخ الكائن بصوت سمعه الجميع، سحب القرين بسرعة لجسد (بودي) الممدد وكأنه حبلٌ يصل بين جسده وقرينه.. تنفس الفتى بسرعة وغادر قرينه جسده ثانية ليشتبك مع الكائن و(بودي) ينهض والقرين يتلقى ضربات من الكائن لكنه يتحملها ويعاود له الضربات.

الذعر يتملك (مالك) الذي يشاهد العراك بعينيه ولا يستطيع المشاركة، الوهن عاود (بودي) لكنه لم يستدعي القرين الذي أمسك الكائن واهتزَّ في مكانه كأنه يرتعش بردًا، الكائن يقاومه لكن القرين يكمل اهتزازاته.

وأمام عين (فتحي) والشاب ظهر الكائن لهم بوضوح هو والقرين الذي رفعه لأعلى وألقاه على المنزل الذي تهدم، سقط (بودي) أرضًا لكنه حرك القرين ليحمل حجارة

ضخمـة مـن ركام المنـزل وينـزل بهـا عـلى رأس الكائـن الـذي يتلـوى، تحطمـت الحجـارة فأتـى القريـن بأخـرى وأكمـل عملـه.

فلاحـون يأتـون مـن أراضٍ زراعيـة مجـاورة يخترقـون القصـب المـزروع ليعرفـوا سـبب هـدم المنـزل، تحـوَّل جسـد الكائـن لشـفاف ثـم اختفـى نهائيًـا.. عـاد القريـن لجسـد (بـودي) الـذي نهـض يلتقـط أنفاسـه وهـو يشـاهد (مالـك) يهـرب داخـل القصـب.

خـرج قرينـه مـن جسـده وراء (مالـك) يدفعـه بقـوة ليسـقط أرضًـا وسـط القصـب يتلـوى ألمـا، اخـترق (بـودي) بنفسـه المزروعـات حتـى وصـل لجسـد (مالـك) الملقـى أرضًـا ووقـف عنـد رأسـه وهـو يقـول:

- أمات صاحبك أم هرب وتركك؟

رفع (مالك) رأسه للأعلى ينظر للفتى الذي أضاف قائلًا:

- ليـس مهـمًا، عصفـور في اليـد خـير عنـدي مـن صاحبـك، سـأبحث عنـه فيـما بعـد.

فتـح (مالـك) فمـه ليتكلـم لكـن (بـودي) رفـع قدمـه وأنزلهـا عـلى رأسـه وهـو يـصرخ، مـرة واثنتـين وثـلاث، وصـوت تحطُّـم رأس (مالـك) يدفـع الفتـى لإنـزال قدمـه مـرة أخـرى حتـى ارتعـش جسـد (مالـك) وهمـد تمامًـا مخلفًـا جمجمـة محطمـة وبِركـة مـن الدمـاء تتسـع لتحيـط بالفتـى.

تمت

سعد الدين إبراهيم بن عبد الرزاق بن غراب الإسكندراني، كان غدّارا لا يتوانى عن طلب عدوّه، ولا يرضى من نكبته بدون إتلاف النفس، فكم ناطح كبشًا وتل عرشًا وعالج جبالًا شامخة واقتلع دولًا من أصولها الراسخة

كتاب المواعظ والاعتبار بذِكر الخطط والآثار

المقريزي

وكان مليح الشكل شديد الزهو والعجب، يحب الانفراد بالرياسة، يظهر التعفف، عارفًا باللغة التركية مع الدهاء والمكر والمعرفة التامة بأخلاق أهل الدولة، وهابًا مفضالًا كثير البذل وافر الحرمة، بلغ في المملكة ما لم يبلغه أحد، فإنه لم يمت حتى صار أميرًا يتقدمه ألف، تنقل في الولايات نظر الخاص والجيش والاستدارية وكتابة السر وغيرها، ولقد تلاعب بالدولة ظهرًا لبطن، وخدم عند الأضداد، وعظم قدره حتى شاع أنه لابد أن يلي السلطنة

كتاب الضوء اللامع لأهل القرن التاسع

السخاوي